غزّة
النّاجِية الوحيدة

غادة الخوري

سرْديّة شخْصِيّة جدّا

دار الآداب

سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

غزَّة الناجية الوحيدة

سرديَّة شخصيَّة جدًّا

غزَّة الناجية الوحيدة

غادة الخوري / روائيَّة لبنانيَّة
الطبعة الأولى عام 2025
ISBN 978-9953-89-794-3

مكتبة
t.me/soramnqraa

دار الآداب للطباعة والنشر

للمزيد من المعلومات عن دار الآداب الرجاء زيارة موقعنا:
www.daraladab.net

يمكنكم التواصل معنا على البريد الإلكتروني:

info@daraladab.net
rana.adab@gmail.com

Facebook: Dar Al Adab Instagram: @daraladab Twitter: @DarAlAdab

غادة الخوري

مكتبة
t.me/soramnqraa

غزَّة الناجية الوحيدة

سرديَّة شخصيَّة جدًّا

رواية

دار الآداب بيروت

«نحن لا نتوقَّع ـ طبعًا ـ أن يتركنا أعداؤنا نغيّر تاريخ المنطقة، ونزعزع مراكزهم الاستراتيجيَّة والاستعماريَّة، من دون أن يبذلوا أقصى جهدهم لمنعنا من ذلك... وهكذا، فإنَّ المعركة قاسية.»

غسان كنفاني

الجزء الأول

مباركة ثمرة بطنك يا غزَّة

«ما زلنا محاصرين منذ خمسة أيَّام، والكلاب تنهش أجساد شهدائنا ونحن ننظر إليها ولا نستطيع أن نقترب منها».

ـ بدايةٌ عنيفة... اختاري حالةً أقلّ قسوة.

«وفي اليوم العاشر راحوا يكتبون أسماءهم على أذرعهم وأقدامهم كي يتعرَّف عليهم المسعفون إذا تناثرت أجسادهم أشلاء».

ـ أو؟

«وجدتُ جثَّة طفلٍ وقد تحلّلت. هي لابن شهيدٍ أحببته اسمه همّام... رفعت وسطه فسقطت قدماه، رفعت وسطه من جديد فسقط رأسه... حملت الوسط والرأس والقدمَيْن، ووضعتها في كفنٍ وواريته التراب وأنا أقول: أهكذا يُفعل بشهدائنا؟»

ـ لا نريد استدرار الشفقة ولا إرضاء ساديّة العدوّ... من الأفضل أن تظهري صمودهم.

«هنا ذكرياتنا وأحلامنا ورائحة أهلنا. بيتنا الذي تحوَّل إلى ركامٍ سنبنيه مرَّةً خامسةً وسادسةً وعاشرة، ولن نعيش في مكانٍ آخر».

ـ لا بأس.

«السماء ازدحمت أكثر من الأرض».

ـ هذه ممتازة!

مكتبة
t.me/soramnqraa

***

من أين أبدأك يا غزّة، من أين؟ قولي لي، كي يتوقّف هذيان الكلام في رأسي. ارفعي سبّابتك واختاري السطر الأوّل الذي يليق بطلّتك على هذا البياض ـ السراب. لست أبحث عن «أقوى أوّل سطر» في تاريخ السرد الروائيّ، بل أحار بين أكثر أوجاعك إيلامًا، لأكتب بصدقٍ صافٍ عن طوفان دمك الحرّ، عن زلزال العار الدوليّ، عن بركان الحرائق في قلوب الشعوب الهاتفة بحرّيّتِك.

ردّيني من جنون عجزي يا غزّة. ردّي لي عقلي واخمدي جمر غضبي لتشتعل لغتي. من أين أبدأك ولك في ذاكرة هاتفي ألف صاروخٍ وألف صراخٍ وآلاف الأكفان وسيرة قرن من الحروب. قولي لي من أين؟ من موتك أم من قيامتك؟ لو أنّك متِّ مرّةً واحدةً لهانت عليَّ الطريق إلى أنفاسك الأخيرة. ولو أنّك نهضت مرّةً واحدةً فقط، لعثرتُ فورًا على حاملات الطيب لأشهد معهنّ تدحرج الحجر عن قبرك!

وكيف أكتب عنك وأنا لم أطأ ترابك رغم التمنّي، ولا شممت نسيمك رغم لهاثي، ولا ذقت خبزك رغم اشتهائي؟ أليس بالتمنّي واللهاث والاشتهاء... يلتهب الكلام؟ هذا الحبّ عن بعد، يزكي احتراقي عليك، وكعشّاق الجاهليّة أهجس بضياعك قبل لقياك. لا أريد الكتابة مثلهم فأرفعك على صهوة الأسطورة وأنت تغرقين في بحر دمائك. أريد أن أرويك من عطشك أنت، لا من توقي العاقر إلى خلاصك.

أربعون يومًا وقلبي بهلوانٌ أخرق، يتشقلب على حبال دمي عاصرًا أوردتي... ثدياي متحجّران كأنّي أحتبس حليبًا لأطفالك الجوعى، عظامي تقارع بعضها بعضًا كأنّها في حقل ألغامٍ سرطانيّة. عليّ أن أكتبك يا غزّة. ليس لأتعافى من هول الصدمات التي تتوالى على شاشتي منذ 7 تشرين الأول 2023. ولا لأتصالح مع ضميري وأنا أتفرّج على أشلاء أطفالك، عاجزةٌ تمامًا، خرساءُ بالكامل، ومشلولةُ الخيال. عليَّ أن أكتبك كي أستحقّ حياتي. هكذا بكلِّ أنانيّة.

أعود إلى روايةٍ كتبتها منذ أشهر، وأخرى بدأت رسم خطوطها. أيُّ عالمٍ هجستُ به وظننت همومه كبيرة!؟ أيُّ مستقبلٍ أرعبَ مخيّلتي ومحوتِه أنت بلحظة!؟ كأنَّك يا غزّة أمسكتِ الأرض من كتفَيْها ورمَيْتها في زمنٍ جديدٍ لتدور شمسها ولياليها على إيقاعك. كأنَّك وضعت كوكب الأرض كلَّه في غربال، هززته بعنفٍ وبيدَيْك المشقَّقَتَيْن رميت الحصى بعيدًا وأهدَيْتنا القمح بلا زيوان.

كنّا في زمن الذكاء الاصطناعيّ والمجرّات المأهولة، كنّا على تخوم عوالم موازيةٍ وأشباه إنسانٍ ما فوق الإنسان... كنّا ما بعد الحياة وما بعد الذاكرة وما بعد صلة الأرحام. وجئت أنت ونفضتِ الأرض كثوبٍ مبلول.

وبأيِّ منطقٍ أسردك، وكلُّ شيءٍ انفلت دفعةً واحدةً من حضنك؟ من أين أبدأ؟ هل أُغرق سطوري في شلّال دمك وأهمل نزف شقيقاتك؟ أم أنَّ جراحك متى التأمت، ختمت نزف فلسطين كلّها؟ هل أبني هيكل روايتي من أشلاء أطفالك؟ أم أبدأ من الأنفاق التي لا يعرف دهاليزها سوى فرسانك؟ وكيف أحكي عن تلك الهامات التي ما أن تطلّ بلثامها

حتى يدحر صهيلها عدوًّا مدجَّجًا بأثقل الأسلحة؟ هل أبدأ من السماء المشتعلة بضياء شهدائك؟ أرفع عينَيَّ إليها، فأرى وسط جنائن المسك وجهَ صبيٍّ واسع العينَيْن، يجهد في مناداة خالته. يراها في المستشفى تحمل يده المتفحِّمة، وتقول: «هذه يد أنس، مبطبطة». ثمَّ تلتقط ذراعًا، وكقطعة بازل تلصقها باليد، وتهتف: «قلت لكم، هذه يد أنسٍ وهذه ذراعه تناسبها تمامًا». طيف أنسٍ يهمس لها: «أنا ارتقيتُ يا خالتي واكتملتُ».

وأرى أحمدَ يرفرف فوق أمّه، وهي تمسح دماءه عن الأرض، مات قبل أن ينطق بحرف، فكيف يقول لها: «احتفظي بالمحارم لتمسحي دموعك، الحرب ستطول». وأرى إخوةً يتقاسمون الغيوم كغزل البنات فيما أمَّهم تصرخ: «أولادي استشهدوا من دون ما ياكلوا». وأرى يوسف قلقًا، يخشى حلوله في منام أمّه. ماذا لو لم تعرفه لا من صوته ولا من رائحته ولا من دفء عناقه؟ هل ستبكيه أكثر إذا رأته بهيئة طيور الجنَّة، فلم يَعُد «أبيضاني وشعره كيرلي وحلو» إلَّا في الصور.

عصف صاروخٍ يدحرج عينيّ صوب أنقاض بيت. فتاةٌ تجلس كجدَّتها أيّام النكبة وتقول لصحفيّ: «لست أبكي داري التي هُدمت ولا أهلي الذين ماتوا... أبكي جنى صديقتي، رأسها على عتبة الدار، أين بقيَّة جسمها؟»

وينقطع المشهد فأرى موكبًا لأربعة أطفالٍ في عمر الخامسة أو أقلّ، يحملون طفلًا يخفي ضحكته وسط حِرامٍ صوفيّ، يعبرون به أروقة المستشفى المكتظّ بالدم والصراخ، تتعالى أصواتهم النحيلة بالنشيد. يسألهم صحفيٌّ ماذا تفعلون؟ يجيبونه بابتساماتٍ لبنيَّة: «نلعب لعبة الشهيد».

إنَّهم على قيد مجزرة، ومرثية الشهادة التي ينشدونها، حفظوها كاملةً مثل أهازيج العيد. لا خيط يفصل بين الحياة والموت، ولا بين العيد والجنازة سوى لهبٍ حاقدٍ يحرقهم أحياء تحت أسطح بيوتهم.

وأسطح البيوت هَوَت على الآلاف من أصدقائهم وأقاربهم. لم يعثر عليهم أحد طوال أربعين يومًا. رأوا عمَّهم ينادي على أطفاله: هل تسمعوني؟ يلصق أذنه بالباطون البارد لمبنى من خمس طبقاتٍ هوى على رؤوسهم. كلُّهم تحت الأنقاض وهو ينادي: هل تسمعوني؟

ليس فقط تحت الركام، من لا يرّد.

هل توقَّعتِ يا غزَّة دويّ كلّ هذا الصمت بعد أوّل صاروخٍ مزّقك؟ على ماذا راهنتِ حين قرّرت فرط العقد الذي طوقوك به حدَّ الاختناق؟ وعلى من راهنتِ حين اخترقتِ جدار الموت لتطلقي سراح قمحك المنهوب؟ أيقظت الوحش من سباته يا غزّة. لا، لم يكن في سبات. كان يقضم الأرض وما تحتها، مخفيًا أنيابه، متنكّرًا بجلدٍ ناعم، مضيفًا طبقةً جديدةً فوق ذيله، ومدرِّبًا صغاره على قعقعة الأفعى!

اسمحي لي. هذه المرّة، أسرفتِ في إيذاء أعدائك. أوهمتهم بصمود «مسالم» ضمن أسوارهم، فقالوا: بلغتِ سنّ الواقعيَّة ولن تغامري بدمك بعد «الرصاص المصبوب» و«عمود السحاب» و«الجرف الصامد». لكنّك غافلتهم بطوفانٍ قلبَ رأس العالم على قفاه وهو نائم.

ليتني أعرف ماذا توقَّعتِ قبل ذلك الفجر المجيد من تشرين الأوّل 2023... لعلّك قلتِ: سيرتدع العدوّ من هزائمه الماضية، أو سيخشى رعاته ويراعي خوفهم على عروشهم. لستِ بلا ذاكرةٍ لتتهوّري، ولستِ ساذجةً لتتوقَّعي أنَّ «رجوم» التي سقطت على المستوطنات،

ستُسقط معها كلّ معاقل العار، أو أنَّ صقورك التي حلَّقت فوق السياج، سترفع بأجنحتها هاماتٍ لم تقف في تاريخها كلّه إلَّا منحنية. أو لعلَّك لم تسرفي بقدر ما استهانوا هم بك، فأنت العتيقة جدًّا برحمٍ فتيٍّ تلدين أشبالًا من رماة الأحجار، ونساءً يعجنّ خبز الثوار، وثوارًا يعبرون حفاةً عين نفق، ومن مسافة صفرٍ يضعون قنبلةً على متن دبّابةٍ كما توضع ركوة قهوةٍ على شرفة الصباحات.

لم يتَّعظوا من هزائمهم. ما زالوا يظنُّون أنَّ اقتلاعك من خاصرة البحر أسهل من فكّ أزرار قمصانهم، وأنَّ تذويبك بالنار أبسطُ من حلّ السكَّر في الشاي. تعرفينهم جيِّدًا، فهؤلاء المحنَّطون في نرجسيَّتهم المريضة لا يتغيَّرون. كلُّهم عشَّاق صورتهم الكاذبة. يؤثرون الزيف على نصاعة المرايا، يجدِّدون شبابهم بارتكاب الحماقات نفسها! ها هم بكلّ ترساناتهم الفتيَّة فائقة الذكاء يتهافتون على تكرار حماقتهم لذبحك... على قدر إذلالك لهم، جاء انتقامهم واتَّحدوا لتقطيعك ألف فلذة، وغمرتهم النشوة بدمك المتطاير على وجوههم المسلولة، فزادوك موتًا وأرسلوا إليك الأكفان بكلِّ المقاسات.

عن ماذا أكتب يا غزَّة وكيف؟ كيف يُكتب عن طوفانك وكلُّ شيءٍ واضحٌ لا لبس فيه؟ فأنت الخير كلّه وخصومك الشرّ كلّه. انتهى. قصّةٌ بسيطةٌ لا تصلح لهذا الزمن ولا تقنع إلَّا الأطفال! كسرتِ أدبيَّات السرد الروائيّ يا غزَّة! لكي أكتبك، أحتاج إلى بطولةٍ ملتبسةٍ وشرٍّ نسبيّ، فلا أبيض وأسود في الروايات. أحتاج إلى شرّيرٍ بملامح مضيئة، كي يبدو مثل الجميع: ضحيَّة نفسه تارةً وضحيَّة مجتمعه غالبًا. وأحتاج إلى كسر هالة الأخيار، فأكشف ظلمات نفوسهم لأقارب الحقيقة، فلا بطولة بلا شوائب حتّى في الأساطير! لكن أين كعب أخيل في أسطورتك يا غزَّة؟

وهل كان سيزيفُ سعيدًا بعقابه العبثيّ كما يدَّعي أدباء الغرب؟ أم جبانًا لا يحتمل موته؟

لا التباساتٌ في حكايتك يا غزَّة، والنهايات فيها ترتسم من البدايات، فأنت الحقّ المُطلق يحارب الباطل المُطلق. وأنت التي وشَمْتِ على جبين فلسطين قضاءً مبرمًا: لا حياة لظالمٍ ولا فناء لثائر.

وأيُّ الشخصيَّات أختار لأرويك، وكلُّ أطفالك ونسائك وشيوخك وشبابك ومسعفيك وأطبَّائك أبطال! أمَّا خصومك فكلّ مَنْ هم على الجهة الأخرى من الأرض، كيف أحشرهم جميعهم في روايةٍ واحدة؟ الاستلهام من فيض بطولات شعبك وتأطيرهم في تخيُّلٍ سرديّ، ظالمٌ ومخيِّبٌ للخيال. واختزال أشرار العالم في شياطين خفيَّةٍ أو ملائكةٍ مقنَّعةٍ أو حفنة لصوصٍ ومصّاصي دماء، ظالمٌ لظلمهم ولن يرقى إلى مصافّ أكثر الكوابيس بشاعةً وأكثر حقب ما قبل الإنسانيَّة فجورًا ودمويَّة، فما العمل؟

«هذه المرَّة غير كلّ ما مضى» تقولين. وجميعنا يرى ذلك بوضوحٍ ويسأل: والآن ماذا؟ عدوّك يفاخر بحرمانك ضوءًا وضمادةً ومصلَ تخدير. هذه المرَّة ينوي القضاء عليك وعلى قضيّة فلسطين كلّها!

لليوم الثالث والأربعين وأنت في الميدان تحاربين، وفي المستشفى تحملين أطفالك وتصرخين: «نتبرَّع بالدم للعالم كي لا تموت الكرامة في عروقه».

الصدى مات يا غزَّة.

الدبّابات تقتحم المستشفى والجنود ينكّلون بالجرحى ويأمرون مقطوعي الأيدي برفع الرايات البيضاء. مات الشهيد الرابع من الأطفال

الخدّج، لُفَّ في كفنٍ ودُفن في المقبرة الجماعيَّة بساحة المستشفى. سيسير المرضى والنازحون ثلاثين كيلومترًا على الأقلّ وسيعبرون فوق الجثث إلى الجنوب. بعض المصابين عاجزون عن المشي. سيجرُّهم الأطبَّاء في الأسرَّة والكراسيّ المتحرِّكة، لكنّ أكثرها سيتكسَّر على ركامٍ بعلوّ الأشجار.

الصدى مات!

ويأتيني منك خبرٌ عاجل: «مجزرةٌ جديدةٌ في مدرسة الفاخورة: مئتا شهيد»... لا تشتّتيني يا غزَّة. دعيني أعود إلى مجمَّع الشفاء. هناك الرهان على سقوطك، يقولون. وأنت تحرقين الجنود داخل دبّاباتهم في جباليا ودير البلح وخان يونس وحيّ الزيتون! ونحن نُمعن في الأمل بتوبة أو بردَّة أو بمروءة من لمَّعوا سيوف العدوّ ليقطع بها نسلَك الثائر. ولنسلِك ألف يدٍ تنبت بين أسياخ النار والحديد لتفتّت الصخر وتسحب قدمًا من تحت جدارٍ وجديلةً من حافة شبّاكٍ ورأسَ رضيع من ثدي أمّه...

ومن بوَّابة مستشفى المعمداني يخرج حسن، في قبضتَيْه كيسان جمع فيهما أشلاء أطفاله. ونحن متفرِّجو الصفّ الأوَّل لا حيلة لنا إلَّا أن نمسك بصورةٍ من بقاياك ونقذفها في وجه العالم الذي يشتدّ لون عاره كلَّما اغتسل.

كيف أكتبكِ يا غزّة، وأنت تلفظين الموت وتشهقين للحياة في اللحظة نفسها، مبتورةٌ متلاحمةٌ في آن، أرضك قبرٌ ورحم، جحيمٌ وجنَّة، وجهك رمادٌ وعيناك ضياء، ودمك مستباح ... مستباح... ويُراق لأجلنا.

ليس الآن وقت الروايات المتخيّلة، فقد جعلتِ الخيال يغار من الواقع لأوَّل مرَّةٍ في التاريخ. فمن أين أبدأك وكيف؟

هل أكتب إليك كما فعلتُ ذات حبٍّ حين هجم عليَّ من قلب فلسطين؟ لم أر وجه آدم. تراسلنا سنتَيْن ورسالةً بعد أخرى مثل بتلةٍ بعد بتلة: تحبّني. يحبّني. نلتقي. لا نلتقي. لا أعرف إذا كانت الكلمات هي التي ربطت قلبَيْنا على الصبر، كما يُربط الجرح بضمادة. لكنّي أعرف أنّي كنتُ مستعدَّةً لأكتب إليه طوال عمري بلا لقاء. لم يخطر في بالي طوال السنتَيْن أنّ آدم سيجترح موعدًا مستحيلًا للقاءٍ أبديّ، وسيجعل من الجرح نفسه ضمادة.

هل أكتب إليك كما فعلتُ ذات صدمة، حين أقمتُ عرسًا لذاكرة أمّي؟ فأنا حين أفكّر بكِ لا أرى بلادًا أو مدينةً أو حجارة. حين أقول غزَّةَ أرى طيف أمٍّ تنتظرني لأقرع الباب وأحضنها. وأسمعك تسألين بأيّ حقٍّ أنصّبك أمًّا وأراكِ كما يحلو لقلبي وهواي؟! ويعاودني سؤال أمّي: متى سأصبح سيّدة نفسي؟ ونضحك. فهي ونحن نعلم أنّها سيّدتنا جميعًا ولا قرار إلّا لها ولا إذعان إلّا لما تشاء. وجلّ ما تشاء أن تكون ناطورة البيت، حارسة المفاتيح، أن تعيش لتصنع لنا الحياة، أن نغرف من قلبها ليبقى لنا قلب، أن ننهل من غمر يدَيْها ليبقى لنا زرع، وأن نقتفي آثار قدمَيْها لتبقى لنا أرض.

أقول غزَّةَ وأرى أمّي تصارع سرطانًا وحشيًّا ينهش لحمها وتهمس لي: «لا أخشى موتي، بل حياتكم من بعدي». أقول غزَّةَ وأرى جراحك تنزُّ أملًا يرفعه أبناؤك حرابًا وقرابين، على صدورهم شقائق النعمان أوسمةٌ ونصال، وأصواتهم تنشد لك الفداء يا سيّدة الأزهار، يا أمّ الأحرار يا غزَّة.

لا حراب لي ولا نصال ولا حتى «يافطة» أرفعها ولا ساحاتٍ تبيح لي الغضب والهتاف باسمك.

لا حيلة لي سوى الكتابة إليك كما فعلت ذات حبٍّ وذات فقد.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«يرى اللَّاجئ في غزَّة الزرع ينمو في أرضه،
وراء الأسلاك الشائكة. يمضي ويقصّ بأصابعه
الأسلاك ويذهب لزرعه. يعود بحزمة سنابل
ويسقط مثقوبًا بالرصاص، وفي صباح اليوم التالي
يعلنون عن مقتل متسلِّل».

معين بسيسو

على بعد آلاف الكيلومترات منك، أكتب إليك من بيتٍ يملك نسخةً من مفاتيحه حرّاس البرج. والبرج مزروعٌ بكاميرات مراقبةٍ على بوّاباته وفي أروقته وممرَّاته وفوق باب كلٍّ شقَّة.

بعض الناس هنا، لا يقفلون أبوابهم لفرط شعورهم بالأمان. أمَّا نحن فنُحكم إقفال السقاطة. لسنا في القرية وجيراننا غرباء كغالبيَّة اللَّاجئين الطوعيّين في هذه البلاد الجاذبة لكلٍّ الجنسيَّات.

جئت إلى هنا قبل عشرين عامًا، مكرهةً وطوعًا. تفهمين قصدي. تركت لبلادي مهمَّة حسم الصراع بين أبنائها حول مفهومَي الحياة

والموت. سؤالٌ جوابه أسهل بكثيرٍ من كلِّ ما أفرزته النظريّات الفلسفيَّة، إذ تكفي الإجابة على سؤالٍ آخر مبدئيّ: من هو عدوُّنا الحقيقيّ الذي يريد لنا حياةً أشبه بحفلةٍ تنكُّريَّةٍ يختال فيها الموت عاريًا ولا يصدِّقه أحد؟ ما علينا. المهمّ...

أختلي بك الآن في غرفة مكتبي المطلَّة على مدينةٍ شاهقة المباني، مراياها عازلةٌ للألفة، عاكسةٌ لسماءٍ بلون الصحراء، وشمسٌ طاردةٌ للغيوم. هنا، لا نلحظ توالي الفصول ولا تغيُّر المواسم. فكلُّ الفاكهة والخضار متوفِّرةٌ على مدار العام، والقيظ إن خفت لا يليه شتاءٌ ولا برد، وإن احتدَّ وعنُف انكمشنا كالقنافذ في بيوتنا المبرّدة.

لنا موسمٌ واحدٌ على مدار العام هو الاشتياق إلى المواسم. اشتياقٌ يحرث في الذاكرة ويقلِّب تربتها فنملأ سلال عزلتنا بحكاياتٍ عن أشتية، وأصياف، ورِباع، وخُرُف. اشتياقٌ إلى الفصول الأربعة نقاتل فيه خوفنا من نسيان أرضٍ أنبتتنا وقذفتنا كمحارتَيْن على رمالٍ كاوية، تتبادلان الملح وأصوات البحار البعيدة. اشتياقٌ بسيطٌ إلى قطف تفّاحة من شجرة.

مرّت سنتان على آخر هبّة شوقٍ يا محارة فلسطين. حين أغمدتِ سيفك في هبّة كرامةٍ فاطمأنَّ قلبنا. ما زلتِ هناك ولم يبلعك البحر.

أعترف لك. نسيناك. انشغلنا بموتٍ محتملٍ إثر زلزالٍ مرتقب. لا شكَّ تذكرين الزلازل التي شقَّت الأرض وابتلعت الآلاف في تركيا وسوريا والمغرب، وفاضت أرض ليبيا فأغرقت الملايين. قيل: غضب الطبيعة، وقيل: قانون الطبيعة، وقيل: العبث بطبقات الأرض يخلخل اتّزانها. وعلَّقت الأرض مصيرها على قارئي الغيب وراصدي الكواكب

والأفلاك. من سيسلم من الزلازل ومن سيُنسى تحت الركام؟ هل حقًّا توقَّفت نواة الأرض عن الدوران؟ انشغلنا بتلك الأسئلة فهل نُلام على نسيانك؟

وتذكرين الوباء الذي كرّس العزلة خلاصًا من سموم الأنفاس واللمس، ورفع رفاهية الأجسام إلى أوّل مراتب القيم. نسيناك... وانشغلنا بقمم ترتيب «الفوضى المناخيَّة»، وبخطط القضاء على الفقر، واستدامة الأمن الغذائيّ. أقلقتنا التحذيرات من تفاقم الصراعات والبحث عن «القفزة العملاقة» لدرء كارثة اللجوء عن مليار إنسانٍ بحلول العام 2050!

بالطبع كنَّا نتذكَّرك، كما نتذكَّر الفقراء في يومهم العالميّ، والمعلَّقين على حيطان الصور والمصابين بوعكاتٍ متكرِّرة. وكما نتذكَّر حُبًّا خذلته عهود الوفاء... لكنَّنا مضينا في حياتنا السائلة بذاكرةٍ نحيلةٍ تمرّست بالصيام المتقطّع لتتخفَّف من سمنة الآلام.

هل أُمالقك إن قلت: النسيان ابن الطمأنينة أحيانًا؟ فنحن لم نخَفْ عليك طالما أنَّك هناك تتعايشين مع حصارك منذ ستة عشر عامًا كأنَّه سرطانٌ خامل، وتتدبَّرين أمورك كي لا تنتكسي، فمناعتك ذاتيَّةٌ صرف، وأشبالك يرفسون الصدمات ككرة القدم. أبناء الموج والرصاص هم، فلمَ نخاف؟

لم نخف عليك فأنت في خارطة فلسطين هنا، قرب فانوسنا الليليّ، وفي صورة غسّان بالأبيض والأسود، وفي حنظلة مرسومًا على حوض زهور، وفي نقشة الكوفيَّة على فنجان، وفي مجسَّمٍ خشبيٍّ للمسجد الأقصى حُفر عليه: نصرٌ من اللّـه وفتحٌ قريب. شو بدك أحسن من هيك؟ إنَّها طمأنينة الانتماء، نفخر بأنَّ لنا في فلسطين حصَّة... حماتي التي لم

أرها إلَّا عبر صوتها، أهدتني زيًّا نابلسيًّا أرتديه في يوم الأرض، ولي زوجٌ يأتيني بالجبن والزعتر كلَّما زار البلاد. ما عُدْتُ أسأله عن أحوال السفر بين النهر والجسر. نسي كيف يكون العبور بلا شقاءٍ والقلب على الكفّ والحرِّيَّة قيد انتفاضة.

النسيان ابن العادة أيضًا، وهذا زمن التعوُّد على كلّ شيءٍ كأنَّ لا شيء آخر ممكن.

وباغتتنا جميعًا يا غزَّة. هكذا بلا مقدِّمات. أو نسينا المقدِّمات أصلًا... كيف أصف تلك البغتة؟ ليست كبغتة ضيفٍ في صباحٍ متثائب، ولا كبغتة حبٍّ بعد الأربعين. باغتتنا بغتة الضرورة، بغتة اللَّامفرّ.

كنَّا في تشرين الأوَّل ننتظر شحنة الزيتون السنويَّة، متوقِّعين غلَّةً أقلّ من سابقاتها. المعاومة هي السَّبب. لم أفهم المصطلح تمامًا لكنِّي قرأت عن ظاهرة «تبادل الحِمل» التي ازدادت بفعل التغيُّر المناخيّ، وأضعفت طاقة الأشجار على الإثمار كلَّ عام. أما أنت، فكنت على غفلةٍ منَّا، تروين زيتونك البعل، تزوِّدينه بالأسمدة حتّى تبرعم أغصانُه وتثمر، فينقضي زمن المعاومة ويأتي الخريف لتعلني طوفان غلالك... فنتذكَّر أغلالنا وكم نسيناك.

الآن أكرّ روزنامة الأيَّام في رأسي. أحتاج بشدَّةٍ إلى تأمُّل تلك البغتة في صباح السابع من تشرين الأوَّل 2023... كانت الساعة السابعة... صحوت قبل آدم، على طمأنينة يومٍ عاديٍّ كَسِواه. أعددت القهوة... تناول كلٌّ منَّا هاتفه... بالتأكيد كنَّا مبتسمَيْن ليوم سبتٍ سنمضيه معًا ونحتفي بطقوسنا الثابتة. سأطبخ المنسف، وسنبحث عن فيلمٍ مشوِّق...

لا أذكر أنَّنا تبادلنا، كعادتنا، نوادر سخيفةً على مواقع التواصل الاجتماعيّ. كنت أقرأ الجريدة حين طالعني عنوان: «البقّ الفرنسيّ قادمٌ إلى لبنان». نهضت عن الكنبة كأنَّ البقّ عقصني. دخلت المطبخ لأعدّ عصير الفاكهة. لحق بي آدم رافعًا هاتفه في وجهي. احترت أين أنظر، في عينَيْه الحمراوَيْن أم في الشاشة. ناولني نظّاراتي لأحسن القراءة: «القائد العامّ للقسّام: نعلن بدء عمليّة طوفان الأقصى، إطلاق خمسة آلاف صاروخٍ وقذيفةٍ على مواقع العدوّ ومطاراته وتحصيناته العسكريَّة».

لعلَّ الخبر نكتة؟ أو إشاعة؟ ... أو خيالٌ اصطناعيّ؟ أين التفاصيل؟ هل من فيديو؟ ابحثْ عن مصدرٍ موثوق... إنَّها الثامنة بالضبط، لا بدَّ من نشرة أخبارٍ بالبثّ الحيّ. لننتقل إلى الصالون. شاشة التلفزيون أكبر. ارفعْ الصوت. مكتبة سُر مَن قرأ

«... على مواقع العدوّ ومطاراته وتحصيانه».

افتحِ القناة على يوتيوب، لنرى الخبر من أوَّله.

اهدئي ها هو الخبر العاجل: «محمّد الضيف: نعلن بدء عمليّة طوفان الأقصى». سيبثُّون الخبر من جديد... العصير... نسيت العصير.. ارفع الصوت ليصلني إلى المطبخ. اجلسي لا نريد العصير الآن. على المظلّات؟؟ فجَّروا السياج!؟... عبروا!... إلى المستوطنات؟! أُنظري... هجموا على القواعد العسكريَّة! الجنود تحت أسرَّتهم! معقول؟! المستوطنون يهربون... ماذا يقولون؟ يصرخون بهلع! أُنظري قاعدة عسكريَّة أخرى، الجنود يُسحَلون كالجرذان! علم فلسطين يرفرف على أنقاض الدبَّابات...

«فات السبت بصرم اليهوديّ»! وجاءنا المنسف منك يا غزَّة! مزَّقتِ غلافك هكذا بكلِّ بساطة، مثل العملاق الأخضر!؟ انتفضتِ

على الممكن والمستحيل، على الذاكرة والخيال، على اليقين والجنون. لا نصدّق.

ويسألني آدم: ما تاريخ اليوم؟ «ليست صدفة، أقول، بالأمس كانت ذكرى 6 أكتوبر». إنَّه يوم الكيبور، يهمس. وأبحث في غوغل: كيبور، يوم التكفير أو الغفران، «الفرصة الأخيرة لتغيير المصير الشخصيّ أو مصير العالم في السنة الآتية!»

وصلت الرسالة يا غزَّة. كانوا يشخرون وأبوازهم تلمس أطراف ذيولهم يوم كيبور 1973. باغتهم الجيشان المصريّ والسوريّ، وعبرت القوّات المصريَّة قناة السويس وحطَّمت خطّ بارليف. هذا النصر العسكريّ عالقٌ في ذاكرة الأحرار فقط، لكنَّ غصَّة الخواتيم مرَّة. في يوم كيبور 2023، المباغتة جاءتهم منكِ أنت فقط! بالمظلّات والصواريخ والطائرات المسيَّرة، من البرّ والبحر والجوّ باغتهم، فانهاروا من الساعات الأولى. والآن ماذا؟ نحتفل أم نتوجَّس؟ نرفع رؤوسنا أم ننكّس قلوبنا؟ نهجس بخيبات السبعينيَّات أم نصفَق الباب في وجهها! الذاكرة تنشقّ نصفَيْن، لبّها مكتنزٌ بانتصارات الألفين. الثمرة مفردة النواة، ومن النواة «يشقّ رأسٌ أخضرُ طريقه في عنفوانٍ له صوت»! إنَّه الخريف يا غزَّة وأنت تبرعمين!

والآن ماذا؟ سيجُنّ الصهاينة!! آدم لا يرّد. عيناه على الشاشة تخمّران مشهدًا يتكرَّر... سرب الصقور في سمائك، سرب الدرّاجات الناريَّة يقتحم غلافك، سرب الطائرات المسيَّرة يقذف المستوطنات، سرب الدبّابات المحترقة فوق حقولك المنهوبة، وجزمتك فوق رقاب الجنود الصهاينة. كيف عطّلتِ الرادارات؟ كيف أعميتِ الكاميرات؟ كيف ضلّلتِ القبّة الحديديَّة؟!

ما أجملك بلا سياجٍ يا غزَّة! بماذا شعرت حين عبرتِ الإسمنت المسلَّح ودهستِ الكاميرات وأجهزة الاستشعار! وحين خرجتِ من أنياب «ثعالب النار»، ألم تحاري بين الصراخ والبكاء فرحًا، بعدما كان همسك يُحصى بالثواني؟ وتلك الفِرقة «الأقوى في الجيش الصهيونيّ» التي يسمُّونها ثعالب النار في رعيم، كيف انهارت أمامك في ربع ساعة!؟

أكنتِ مع الصقور، أم مع مفجّري السياج، أم مع آخذي الرهائن؟ أم مع فارسك الغامض الذي أيقظ العالم على هدير صوته! أم معهم جميعهم؟

هيّا تعالي إلى حضني قليلًا، ولنمزمز معًا لحظات المجد هذه. لنكرّ الشريط ونصغي إلى الصوت الذي أوقف الشمس على محرابك:

«في ظلِّ هذه الجرائم المتواصلة بحقّ أهلنا وشعبنا، وفي ظلِّ عربدة الاحتلال وتنكُّره للقوانين والقرارات الدوليَّة، وفي ظلِّ الدَّعم الأميركيّ والغربيّ والصمت الدوليّ، فقد قرَّرنا أن نضع حدًّا لكلِّ ذلك، بعون اللَّـه، ليفهم العدوّ أنَّه قد انتهى الوقت الذي يعربد فيه من دون محاسب، فإنَّنا نعلن بدء عمليَّة طوفان الأقصى، كما أنَّنا نعلن بأنَّ الضربة الأولى التي استهدفت مواقع العدوّ ومطاراتِه وتحصيناتِه العسكريَّة خلال الدقائق العشرين الأولى قد تجاوزت خمسة آلاف صاروخٍ وقذيفة».

هل سمعتِ مثلنا ذلك الصوت: دا دا دااا! بربِّك قولي، ألم تسمعي افتتاحيَّة تلك السيمفونيَّة مع تحليق صقورك وانطلاق صواريخك وهجمة أبطالك على المستوطنات وجرّ الصهاينة من أعناقهم وتمريغ أنوفهم في التراب؟!

دا دا دا دااا ... بيتهوفن الأصمّ سمّاها «صوت القدر يطرق الباب». لو رآك في ذلك اليوم لقال معنا: إنَّه نشيد النصر. ربّما طنَّت الموسيقى نفسها في رؤوسٍ أخرى، لكنَّ وقعها كان حتمًا مختلفًا، فالنفوس وما تشتهي والقلب وما يهوى يا غزَّة، أليس كذلك؟

دا دا دا دااا... وركضتُ إلى غرفة المعيشة، وقبّلتُ عيْنَي غسّان المعلَّق في صورةٍ وصرخت: «لم يقرعوا جدران الخزان، بل فجّروه يا غسّان... برعمت الدالية يا بن العم! برعمت».

وقضينا ساعتَيْن آدم وأنا، نشاهد الشريط مرَّةً بعد مرَّةٍ على إنستغرام، على يوتيوب، على الميادين، على الجزيرة... اسمكِ في كلّ مكان، خبرٌ عاجلٌ يا غزَّة! هل تساءلتِ مثلي، ماذا الآن؟ فالصهاينة لن يغفروا! أو أنَّك مثل آدم لم تأبهي، فليكن ما سيكون، هي الآن أو أبدًا... و«تؤخذ غلابًا».

خبرٌ عاجل: الجيش الإسرائيليّ يعلن حالة تأهُّبٍ للحرب، ويقول في بيان: «جيش الدفاع سيدافع عن سكّان دولة إسرائيل. منظَّمة حماس ستدفع ثمنًا باهظًا».

سيدمّرون غزَّة يا آدم. أسمعتَ ما قالوه!

«لن تكون أوَّل مرَّة، يحاولون تدميرها منذ قرونٍ وظلَّت باقية». ويسحب بسبّابته صفحة انستغرام ليشرح لي مرَّةً أخرى كيف بدأ هجومك من فوق الأرض، بطائراتٍ شراعيَّةٍ تحمل مقاتلَيْن اثنَيْن... حلّقت على ارتفاعاتٍ منخفضةٍ وأربكت الرادار لأنَّ وابلًا من صواريخك يرافقها. رصدتها الرادارات ولم تستطع رصد المظلّيّين المحلّقين على ارتفاعٍ منخفضٍ بسرعة الطيور... ما أجمل إنزالك المظلّيّ يا غزَّة!...

كأنَّك في رحلة استجمام، وفيروز تغنّي راجعين يا هوى. قولي لي، كيف كانت رائحة أرضك المسلوبة؟ آه... أعرف... أسماء المدن هناك ببشاعة محتلِّيها! لكنَّ رائحة الجذور لا تتغيَّر، صح؟

ويهتف آدم: «الميركافا تحترق مثل نمرٍ من ورق... «فخر الصناعة الإسرائيليَّة» ... غادتي، هذا عملٌ عبقريّ... أتتخيَّلين؟ في يومٍ واحدٍ انهارت المنظومة الدفاعيَّة للصهاينة. عيونهم لا تغفل عن قطاع غزَّة. طائراتهم المسيَّرة تذرع السماء ذهابًا وإيابًا على مدار اليوم، والحدود شديدة التأمين والكاميرات تتزاحم على مراقبة السياج... كلّ التكنولوجيا الذكيَّة انهارت في ربع ساعة!

- لكنَّهم لن يرحموا غزَّة الآن يا آدمي...
- القناة 13: مقتل 659 وإصابة أكثر من 2000 صهيونيّ!
- اسمع ماذا يقولون على انستغرام: «كيف يمكن أن تباغت المقاومة «إسرائيل»؟ لا بدَّ أنَّ «إسرائيل» سمحت بحدوث هذا... تحضيرًا لشيءٍ أكبر».
- سنسمع الكثير من هذا الحكي الفاضي... أُنظري إلى وجه نتنياهو تفهمين كلَّ شيء... هيبتهم المزعومة سقطت إلى الأبد!

وأكملنا تناقل الأخبار العاجلة، كلٌّ منَّا يمتطي هاتفه كأنَّنا نلعب السيسو، هو يقرأ خبرًا يرفعه ويهبط بي، وأنا أقرأ خبرًا يرفعني ويهبط به.

- إطلاق عمليَّة «السيوف الحديديَّة» ضدّ حماس في قطاع غزَّة.
- أغلقوا المطارات!
- 545 مستوطنًا نُقلوا إلى المستشفيات، هاتي بوسة!

- استشهاد أكثر من 22 فلسطينيًّا وإصابة العشرات في قطاع غزَّة.
- وصول عدد قتلى الصهاينة إلى 100 وإصابة نحو 800، العدد أكبر بالتأكيد. خبثاء لا يعترفون!
- استشهاد 198 فلسطينيًّا بفعل الغارات الإسرائيليَّة وعدد المصابين 1610.
- كتائب القسَّام: «لا يزال مجاهدونا يخوضون معارك بطوليَّةً في 25 موقعًا حتّى اللحظة».

انتصف النهار ونحن نرتفع ونهبط، وقلوبنا تتمرجح على حبال الخوف والغبطة ونسينا أن نأكل... لا أذكر ماذا طلبنا ومن أيِّ مطعم. كلٌّ منَّا ممسكٌ بهاتفه والتلفزيون شغَّالٌ من قناةٍ إخباريَّةٍ إلى أخرى... نحدِّق في الشاشات، قادة المقاومة يتوعَّدون بتمدُّد الطوفان «إلى كلِّ مكانٍ يوجد فيه شعبنا وأمّتنا»، يناشدون الضفّة ـ «الكلمة الفصل في هذه المعركة» ـ فاللحظات «تاريخيَّةٌ والملحمة البطوليَّة عنوانها الأقصى ومقدَّساتنا وأسرانا»، وإلى أحرار العالَم نداءٌ خاصٌّ بالوقوف والمشاركة في المعركة. وهبّ رفاق الدم والسلاح ووقفوا جبهةً واحدةً تتوعَّد تل أبيب بالقادم الأعظم.

***

أعترف لك... الصواريخ التي بدأت تسقط عليك لم تؤلمنا. طوفانك خدَّرنا... «غزَّة العزَّة» «غزَّة الأبيَّة» «غزَّة الملحمة» تدور كالنجوم فوق رؤوسنا وتشحننا بطاقة على الطواف، وتتلاشى من حولنا الجدران وبخفَّة غيمةٍ نلامس قبَّة السماء... عاطفيُّون نحن. يضربونك ويقصفونك

فتسقطين جريحةً ثمّ شهيدة. عاديّ. أنت قويَّة. نهلّل بحماسةٍ لصواريخ تدكّ سديروت وتل أبيب، المباراة حاميةٌ وأنت تسدِّدين كلّ الضربات الجزائيَّة في مرمى العدوّ.

في قيلولتنا القصيرة بعد الغداء، تعانقنا رأسًا على صدر، وقلبي يسأل قلبه: هل اقترب موعدنا مع فلسطين؟ هل سنطأ عتبة بيتنا هناك قبل أن ترقّ عظامنا ويتعكّز كلٌّ منّا على الآخر؟ نغمض عيوننا لنحبس الحلم في أهدابنا. قبلةٌ بعد قبلةٍ نتبادل الحلم ليبقى نديًّا وشهيًّا مثل توتك الأرضيّ، ذهبك الأحمر. يفوح رحيقك من جلدنا وتتفتَّح أجسادنا كخوابي الأمنيَّات، ونتخيَّلك مثلنا تتأوَّهين نشوةً لكنَّ أنين صراخك يسدّ تخوم اللَّذة. لا يتساوى زارع الحلم بحاصده يا غزَّة، ولا تعب الإنجاز بلذّة القطاف، فهل يتساوى جبينٌ ينزف دمًا بجبينٍ يتعرَّق من الانتظار تحت الشمس؟

«راحت السكرة» يا غزَّة. مساء السبت العظيم غيرُ فجر الأحد. من شاشاتنا الصغرى والكبرى نتفرَّج على إحراق فستان عرسك المقدَّس. نتفرَّج على صَلبك... ونراك تنزعين المسامير عن راحتَيْك لتقذفي الهاون بيد، والرجوم بأخرى... وينتفض شمالك ليسند ظهرك العاري بدرع الجنوب، ويشتعل غضبٌ مصريٌّ هائمٌ في حبّك، فيسقط سائحان «إسرائيليّان» على أرض الاسكندرية.

العدوّ مصدومٌ وأوَّل تجلّيات الصدمة جريمةٌ عبثيَّة! قصف جمعيَّةٍ خيريَّةٍ في وسطك! عبثٌ أرفقه العدوّ بادِّعائه «مقتل العشرات من مقاتلي حماس». أمام أعيننا يتصاعد الدخان الأسود وينهار برج فلسطين كأنَّه من ورق. وسرعان ما تطلّين في بيانٍ خاطف: «أمّا وقد قام

الاحتلال بقصف برج فلسطين وسط مدينة غزَّة فعلى تل أبيب أن تقفَ على رِجْلٍ واحدةٍ وتنتظر ردّنا المزلزل». وزلزلت تل أبيب رشقةٌ من مئة وخمسين صاروخًا عليها.

سبّابتك أوقفت العالم كلَّه على قدمٍ واحدة! وكم انتظرناها نحن، يومًا بعد آخر، كي لا نهوي على سلّم الإحباط. نتعمشق بتلك السبّابة، بتلك الضربة الأوركستراليّة القويّة العنيفة المتفجّرة القاطعة المتطرّفة، تشدّ وتر الرهبة لحنًا لبطولةٍ سامقةٍ ومقاومةٍ تعد وتتوعَّد ثمّ يرقّ الوتر خافقًا بكبرياء الحقّ وفروسيَّة الشهادة.

السبّابة بصوتك تضرب ونسمع عظام العدوّ تقرقع. تنطلق صفّارات الإنذار لتكمل الحركة الثالثة من سمفونيَّة النصر: 100 صاروخٍ على تل أبيب، وتطير جلسة الحكومة الصهيونيَّة ويتدافع الوزراء هلعًا لبلوغ الملاجئ!

نسينا جنونك يا غزّة! كبر جنونك على حين غفلةٍ منّا فما عاد يرضى بمسيَّراتٍ سلميّة، ولا بهبَّةٍ أو انتفاضةٍ أو دفاعٍ عن هجومٍ مباغت. كبر جنونك حتّى طاف وطغى وفاض.

أكنت تعلمين أنَّ ابنةً لك تتهيّأ لعرسها وسيصير مأتمًا؟ وأنَّ طفلًا لك يكتب قائمةً بالهدايا لعيد ميلاده، ليصبح هو الهديّة بكفن؟ وأنَّ حفيدًا لك وصل من سفرٍ طويلٍ سيحضن أباه وسيهوي السقف على عناقهما؟ ألم ينذرك جنونك بأنَّ تلميذًا في مدرستك سيفرغ حقيبته من الكتب ليضع مكانها أشلاء أخيه ويحملها على ظهره؟ أكنت تعلمين أنَّ العالم كلَّه سيتفرَّج عليك ويقول: لتُبَدْ غزَّة عن بكرة أبيها!

ها أنت تعاقَبين على جنونك. امتدَّت الأيادي إلى جبينك، وشَمَتْهُ برسم عقرب: مئتان وستُّون جثّةً في مهرجان «السوبر نوفا» الموسيقيّ في «إسرائيل» تحمل بصمات أبنائك. ويخرج الوحش ويتقدَّم ليناطحك، بألف أفعى في رأسه وألفٍ في قدمَيْه والنيران تنبعث من فمه. سيكثر الفحيح يا غزَّة. ستصفرُّ الشاشات بوجه ذلك المعتوه حامل اسم قائد جيوش الملك داوود، وحامل جيناته. زجاجيّ العينَيْن، يواف، بكلّ فجاجته يعلن قطع الماء والكهرباء والغذاء عنك. أين زيوس ليصرع هذا التايفون بصواعقه؟ وتردِّين: هذا بعلُ الكنعانيّ آتٍ بمطارقه التي تطير كالصقور فتحفر حفرة العار لأب كلّ الوحوش.

وتنتهي عطلة نهاية الأسبوع والنار مستعرةٌ فوق أرضك وفي قلوبنا. هل يكمل البرعم الأخضر نُبوتَه وإلى أيِّ ثمرةٍ سيؤول؟ هل تلويه عاصفة النار فيذوي قبل البلوغ؟ على الباب، يطمئنني آدم. لن تُهزمي. ويخرج إلى العمل...

أقفل الباب، وأطيل الوقوف أمام دمى الماتريوشكا في ردهة المدخل. أراك في حمرة الخدود وخضرة الحجاب وسواد العيون. أمسك بالجدَّة الكبرى، أفصل جزأَيْها لأخفي الأمّ في جوفها، ثم أفصل الأمّ لأخفي فيها الابنة الكبرى... وهكذا حتّى عادت كلّ الأجيال إلى الرَّحم الأوَّل، دافئةً وفي مأمن... ليتني أطولك لأفعل الشيء نفسه!

أمرُّ على لوحات غسّان فوق الجدار الرُّخاميّ... كلُّها «بلا عنوان». فلسطين اسمها ولون حصانها وظلّ خيمتها وسراج نازحيها وبندقيَّة مقاوميها... أتوسَّل عنترة كي يرفعني فوق خيله ويطير بي إلى منازل عزِّك... يولي لي ظهره، ورمل الصحراء يُغرق قدميّ. ألتصقُ بالكنبة

وتلتصق يدي بهاتفي، وتلتصق عيناي بالتلفزيون، وتلتصق سجائري بفمي ويهرهر الرماد على السجّادة وينعف الغبار بأبراجك المتهاوية وتلتصق لحوم أطفالك بالحيطان والشجر، وتصفرّ وجوه أعدائك ويرغو على ألسنتهم الحقد ويبصقون لعاب الضحيَّة: «هذا اليوم قاسٍ لنا جميعًا وحماس تُريد قتلنا».

«ضربني وبكى، سبقني واشتكى!» نقرأ والمنشورات تتوالى... أغنيات الثورة تصدح والقبور تنفتح فيقوم غسّان ودنقل والقاسم وقبّاني..... هذا في العالم الافتراضيّ أمّا على أرضك يا غزَّة فالقبور تنفتح لتبتلع سنابلك الطرِيَّة. يريدونك أن تنسي مأثرتك! يريدوننا أن ننسى قفزتك العملاقة! ألف طنٍّ من القنابل خلال خمسين ساعةً فقط تشقّ رؤوس أطفالك وتنقذف الأدمغة على الأرض وتتشظّى الذكريات والأحلام. ويكتب لي آدم: «لا تخافي، العدوّ يكره الحروب الطويلة». لا أدري إن كان يقصد ما يقول أم يريد طمأنتي فقط.

الضباع الثلاثة تعوي: نتنياهو وغالانت وغانتس... «حماس ستدفع الثمن»... وذلك الجربوع طويل الأذنَيْن، هاغاري، يعلن استعادة السيطرة على البلدات الواقعة جنوب قطاع غزَّة لكن «ما زال هناك مخرِّبون في المنطقة».

وتُفتح الستارة على معزوفة الشيطان: «من حقّ إسرائيل أن تدافع عن نفسها»، ويبحر العرّاب الأميركيّ على متن حاملات الطّائرات لإنقاذ ابنه العاقّ المفضوح في ضعفه وزيف حصونه. ويقذفونك بأوصافهم لتصبحي أنت مرتع «الحيوانات البشريَّة»، وأنت «أرض داعش»، وأنت

«الإرهابيَّة التي تقتل اليهود»، و«عقابك آت: لا ماء لا كهرباء لا وقود. وما سنفعله سيتردَّد صداه لأجيال».

الجوقة الدوليَّة تقرع الطبول وتدوزن الأوتار على النغم نفسه. ممنوعٌ على أيِّ وترٍ التزحلق عن طبقة القرار. أمَّا الجواب فأنت مُنشدته على مقامات الصبا والحجاز. طافت الدماء في جباليا والشجاعيَّة ودير البلح! يا هوْ... يا عالم... يا مجتمع دوليّ... يا عرب... أطفالنا يُقتلون، بيوتنا تُهدم، نساؤنا حوامل وعجائزنا في العراء...

أتفرَّج! أبعث لآدم خبرًا تلو الآخر... يفتحها ولا يردّ. لعلَّه مضغوطٌ في العمل... (هنا الناس يعملون كما في أيِّ يومٍ عاديّ لزوم الاستدامة). مشغولٌ أو ليس بهشاشتي، فهو سليل شهداء وأخ شهداء ورفيق شهداء وكاد يكون شهيدًا. يعرف النضال وأثمانه، يعرف البطولة وكارهيها، ويعرفك يا غزَّة كما يعرف ظمآنٌ الماء.

ملتصقةٌ بهاتفي، أنا التي لا أبعثر يومي هباء، لن أغتسل، لن أمشي، لن أسبح، لن أطبخ، لن أكتب، لن أكلِّم أحدًا... أحدِّق بك وتضيق عليّ الجدران أتقلَّص أنضغط وأفرغ من الهواء... تشفطني الشاشة. أتناثر على سطوحكِ غبارًا ودمعًا ويرتمي قلبي في حضن طفلٍ يرتجف من عصف صاروخ...حزام ناريّ... انفجاران في كلِّ دقيقة... 72 مبنى وسبعة مساجد سوّيت بالأرض... 560 شهيدًا و2900 مصابًا... خبرًا بعد خبر، أنتفخ كدولابٍ وأتدحرج كقنبلةٍ إلى حفرة... السدّادة لا تفتح وبارود غضبي محتقنٌ في جوفي... تحت لساني طعم دمٍ وحلقي يابس. ومثل مطرٍ صيفيٍّ فوق جلدي المشتعل، تأتيني كلمات آدم في منشورٍ على انستغرام:

«غزَّة، رابع مدينة بُنيت على وجه الأرض. غزَّة الكنعانيَّة استراحة القوافل والتجَّار الذين عبروا على أرضها فأطعمتهم من بحرها وبرِّها طوعًا، ثم غادروا دون أن يمسُّوا طهر جدائلها ليس لأنَّهم طيِّبون، بل لأنَّها وفيَّةٌ لعشق البحر والتاريخ وأوائل الأمكنة وبدايات الأزمنة. غزَّة وأَدَت حلم يهوذا وشمشون، لم تدخل مملكة بني إسرائيل، حاصرتها بجدائلها وقطعت أوصالها وضيَّقت حلمها. لم ترفع راياتها البيضاء أمام الإسكندر المقدونيّ، فحاصرها وحاصرته وأحرق سنابلها وقثّاءها، ونخيلها. لكنَّها قاومت الموت وبقيت جدائلها طاهرةً عربيَّةً كنعانيَّة الولاء تعرف هويَّتها وتاريخها جيِّدًا. ستمرّون عليها وترحلون من دون أن تأخذوا حصَّتكم من دمها. لا حصَّة لكم فينا وما ستأخذونه ستدفعون مقابله كيفما نشاء وكيفما ترضى هي. اسألوا عنها الإغريق والرومان والبيزنطيِّين والعثمانيِّين لتعرفوا أنَّ اقتلاعها من جانب البحر ومن جذور التاريخ مجرَّد أوهامٍ ستكلِّفكم وجودكم العرَضيّ بين صفحات سيرتها الممتدَّة إلى أبعد من أبصاركم وأبعد ممَّا تعلمون».

أقرأ كأنِّي أردِّد المنشور من ذاكرتي، أهو أسلوبه المألوف أم مآثرك؟ وضعت رمز القلب على النصّ وتمنَّيت أن يمسك آدم بطرف إصبعي ويسحبني إليه لأعانقه وأربّت على قلبه الذي نزفت منه هذه الشهادة فيك. ولمَّا حلَّ المساء وعاد إلى البيت كانت منشوراتٌ أخرى قد ألهتني عن الطبخة الأولى فاحترقت. أبرز إعلاميّي الغرب ثقبوا ألسنتهم وعلّقوا فيها قرطًا فأصابتها جرثومةٌ معديةٌ راحت تتقرّح وتلتهب:

do you condemn Hamas?

أشكو لآدم ما فعلوا بك وماذا قالوا عنك وكيف سلخوك عن ماضي عذاباتك كأنَّ التاريخ بدأ في 7 أكتوبر، وكلّ ما قبله لا وزن له، فلا

الحصار ولا التنكيل بك ولا كتم أنفاسك طوال سبعة عشر عامًا يبيحون لك التمرُّد على هذا القهر. قالوها كلُّهم بوقاحةٍ تامّة: ممنوعٌ عليك كسر الهامش واقتحام متن الحياة إلّا محترقة!

يصغي إليَّ كأنّي أضعت خاتمًا، يهزّ رأسه كبندول الساعة ويغمس قطعة خبزٍ في الزيت ويدور بها في قعر الصحن. تخفت نبرتي وأستاء لأنَّه لا يشاركني الغضب نفسه من النعوت المقذوفة عليك قبل صاروخٍ وبعد مجزرة.

«وماذا كنت تتوقَّعين؟ يقول. هؤلاء مهزومون. غزَّة أذلّتهم أمام العالم كلّه وفضحت هشاشتهم. انتهوا. يعرفون أنَّ كيانهم انتهى ودورهم في المنطقة انتهى. ألم تري كيف جاءت أميركا لنجدتهم؟ وستلحق بها بريطانيا وكلّ أوروبا! المشروع المُعدّ للمنطقة سقط سقوطًا مدوّيًا والكيان لن ينهض من هذه الهزيمة أبدًا».

صوت نتنياهو يصدح في الصالون مُعلنًا تشكيل حكومة طوارئ. آدم يغمس من زيت الزيتون مادحًا قلّاية البندورة التي أعددتها احتفاءً بطوفانك. أحدّق في هاتفي. طفلٌ متفحّمٌ وآخرُ يرتعش فوق سرير مستشفى وبرجٌ يتهاوى في كومة دخانٍ أسود، أنفاسي زوبعة غيومٍ وقدماي في الرمل تغرقان. «هذه بداية النهاية، ثقي بكلامي، هذه بداية الخلاص وبداية التَّحرير ليس فقط تحرير فلسطين، بل العالم كلّه».

وينهض كأنَّ الكلمات رفعته على خفيّ نسمة. «منشورك عن غزَّة اليوم، حلو كثير»، قلت، علّ النسمة تحرّرني من جاذبيَّة الرمل، «هادا نصٌّ قديم. كتبتُه سنة 2020».

لم ينسك يا غزَّة. نصٌّ قديمٌ ما زال صالحًا اليوم لأنَّ لا شيء تغيَّر فيك ولا في أعدائك. إنَّه العدوان الخامس... ما جمع عدوان؟ لا جمع له. العدوّ مفرد. «السيوف الحديديَّة» أسموه. وهل تصدّ السيوف طوفانًا؟ قبل عامَيْن أشهرتِ «سيف القدس» لتغمديه بعد أيَّام. قلنا ارتدعوا! لكنَّ «حارس الأسوار» ملعونٌ بمتلازمة سيزيف، «بطل اللا جدوى»، هذا الأحمق العنيد سارق الآلهة وأسرارها، مخادع الموت، الفاني لا محالة. سيزيف صهيونيٌّ بالتأكيد. يحمل الصخرة إيَّاها ويكرّر العمل التافه إيَّاه. وقفةٌ ثمّ عودةٌ وبينهما «قبولٌ مبهجٌ للنضال ضدّ الهزيمة». هكذا وصفه أدب الغرب المفطور بعضه على العبث الوجوديّ، نازع القدسيَّة عن الحياة والموت وما بينهما من صعودٍ وهبوط، وخطاب أجوف: «أنا أسمى من مصيري، وأقوى من صخرتي! وكلُّ شيءٍ جيّد».

أمَّا في الشرق وعلى بعد ساعةٍ واحدةٍ من الصخرة المشرّفة كنت أنتِ تكبّرين الحجر سنةً بعد سنة، تلقّمينه البارود، تنقّلين كلاشينكوف واحدةً وحيدةً من كتف في الشجاعيَّة إلى زندٍ في رفحَ حتّى انتظمت الأكتاف مع الزنود لترصف راجمة صواريخ فتدكّ «رعيم» و«العين الثالثة»، و«نيريم»، و«أميتاي»، و«كيسوفيم». وكنت في الوقت ذاته ترصفين الجسر مع السيزيفيّين إيَّاهم، المرتابين من لعنة الفناء، المتنكّرين بسحنة الضحيّة مفتولة العضلات صاحبة الإرادة التي لا تُقهر! خدَّرتِ خيالاتهم المرتابة وروَّضتِ هوسهم بأشباحك، وأغرقتهم في وهم السيطرة حتّى غافلتهم من حيث ائتمنوا. وكذاك الملك الذي وجد نفسه فجأةً عاريًا أمام الملأ، أصدروا أمرهم بقتل من كشف عورتهم وتدميره!

هل توقَّعتِ كلّ هذا الجنون يا غزَّة؟

***

الآن أريد بكلِّ جوارحي الإصابة بعدوى آدم، بمتلازمة يقينه أنَّ هذا الدم الذي يتفجَّر من عروقك هو ختمٌ بالشمع الأحمر على سيرة سيزيف الصهيونيَّة. أريد التصديق مثله: كلّ حاملات الطائرات لن ترهبك! طوفانك سيجرف عرش إبليسهم! وسيألَمون كما تألَمين.

لكنَّ خوفه المستتر بهذا اليقين يتسلَّل إليَّ. مثله، رحت أتتبَّع خطَّ النار من أنفاقك إلى المستوطنات. ومثله يراودني طيف امرأةٍ من سلالة المناضلات بعد النكبة، وأتمنَّى لو أتقمَّصها الآن وأعبر كما عبرت هي، مخبّئةً الكلاشينكوف في فستانها ومخترقةً الحواجز لتسلّمه إلى المقاومين.

صدر آدم يعلو ويهبط وأسترق النظر إلى طرف عيْنه. رمشًا رمشًا ينغلق حلم السفر إلى البلاد. سيجارةً بعد سيجارةٍ تشتعل رغبته للطيران إلى الهناك... فهناك شربت طفولته من حكايات الثورة. إحداها كانت عن شجرةٍ وافرةٍ قيل عنها مسكن أشباح. لم يقترب منها أحدٌ حتّى قصدها صِبْيةٌ من الحارة المجاورة. عثروا على كتابٍ مطمورٍ في ترابها. خبَّأه فتى في سترته وركض إلى البيت. انزوى في غرفته وراح يقرأ فيه قائمةً من المكوّنات الكيميائيَّة. من أين يأتي بهذه الموادّ الغريبة؟ سأل أخته ثمّ هرع إلى الدكّان. أخبر رفيقًا له فتدبَّرا معًا كمّيَّةً كافيةً لصنع زجاجاتٍ متفجّرة. في اليوم التالي، كان وفدٌ من المستوطنين يزور معالم أثريَّة. صعد الفتى مع رفيقه إلى تلَّة. رميا عليهم عدَّة التفجير وهربا بسرعة. جلسا على حافة الطريق. مرَّ الجنود من أمامهما متَّجهين نحو مكان الحادث. استاء الفتى لأنَّهم لم يبالوا بهما ولم يشكّوا بأمرهما. عاد إلى البيت وسأل أمَّه إن كانت سمعت أيّ خبرٍ عن التفجير. أمرته

الدخول إلى غرفته وإكمال واجباته المدرسيَّة. لم يمرّ وقتٌ طويلٌ حتّى عرف. عمليَّته الأولى أحدثت شظايا أصابت أكثر من ثلاثين شخصًا. بعدها، منعت «إسرائيل» تلك الموادّ عن كلّ فلسطين.

صدر آدم يعلو ويهبط. نسيت رقم الإسعاف. بأيِّ صديقٍ أتَّصل إذا أصابته ذبحةٌ قلبيَّة؟ يسحب يدي ويضعها على رأسه. أعرف هذه الحركة جيِّدًا. جبينه نار حنينٍ وغضب. يسحب جسمه إلى طرف الكنبة حاملًا هاتفه ويكتب ما سأقرؤه بعد دقائق:

«بالنسبة للفلسطينيّ، فلسطين ليست مجرَّد بيتٍ أو بلاد، فلسطين حالة عشقٍ لا يمكن للكلمات وصفها، نحن نشتاقها، نحنُّ إليها، نخاف عليها، ولا نحتمل حتّى قسوة النسمات على محيّاها وكأنَّها الحبيبة والعشيقة، كأنَّها الابنة أو الأمّ أو الأخت والرفيقة. فلسطين الوطن الوحيد الذي يتَّخذ جسدًا وملامح، ويمتلك نبضًا ومشاعر ولغةً وذاكرةً لذلك نحن لسنا فلسطينيِّين فقط، نحن عشّاقٌ حتّى الشهادة، نحن حرّاسها وحماتها ونحن فرسان طهرها وبراءتها. عندما يقترب الظلام تتَّكئ على بنادقنا ونريح رأسها على صدورنا نغنّي لها لتنام ونبقى يقظين لنحرس أحلامها من وحوش الليل».

كيف أريح رأسه على صدري وأحرس حلمه؟ هذا الرجل أحببتُه يا غزَّة لشدَّة وفائه لفلسطين. فلا أمان لحبٍّ بغير الوفاء. «فلسطين ابنتي، قال لي مرَّة، أرعاها عن بعدٍ وأسعى بكلّ جهودي لتوفير ما تحتاجه من دون أن تعلم ومن دون أن أنتظر ردًّا لجميل».

«أغبطكَ، قلت، تكفيك لقمةٌ مغمَّسةٌ بالزيت الفلسطينيّ لتتجلَّى لحظتك البروستيَّة، وتتفتَّح مسامّات حواسّك على ذاكرة التراب والمطر

والطفولة. أمَّا أنا فعليَّ انتظار التحرير الكامل لأرى ما عشقتُه طوال عمري في الصور والحكايات وعينَيْك. متى يحين العقد الثامن يا آدم؟».

تعلمين الفرق بين الحنين والشوق يا غزَّة، أليس كذلك؟ للحنين طعم المرارة وشحوب الجياع. الحنين باذخ الحسرات، فيه سُعار الندم، واستحالة الحضور، واستحالة العودة، وصبرٌ ملّ طول أنفاسه، وكرٌّ وفرٌّ يتعكَّزان على احتمالاتٍ انتهت صلاحيَّتها. الحنين يحسد الشوق على فتوَّته، على توقه إلى الممكن من المستحيلات، على وثبة روحه لاسترداد ما ضاع، على أملٍ يُخضِر كلّ الاحتمالات، وعلى غصَّةٍ تقضم عمر الانتظار، وعلى دمعٍ يَعِد بتصحيح الأخطاء.

وحده الشوق يتربَّص بك يا غزَّة، يا دائمة الفتوَّة، يا خضراء القلب، يا شرسة الحنين، يا مفترسة المكان والزمان، يا طوفان اللوعة. لك في الصبر شجونٌ ولك مع الانتظار قَسَمٌ وحسابٌ طويل.

متى يحين العقد الثامن يا غزَّة؟ هل سيفقد شوقي فتوَّته؟ وكيف أحمي حنين آدم من هشاشة عظامٍ وأمراضٍ مستعصية؟ هل أوصي ابني من الآن بحمل رفاتنا إلى الهناك؟

ما بي أفكِّر فينا وأحتفل افتراضيًّا بالتَّحرير وأنت أمامنا خبرًا عاجلًا تُحرقين؟!

لنجرّ خطانا إلى السرير، فغدًا يوم عملٍ عاديّ في كلِّ مكانٍ حتّى في أرضك! نتقلّب ونواري وجهَيْنا ونسترقُ النظر. كلٌّ منّا يريد الاطمئنان على الآخر. هل سيتمكَّن من النوم؟ تتشابك أصابعنا. نسحب اللحاف إلى العنق. بردٌ اصطناعيٌّ وليلٌ أطول من انتظارنا وأنت في خيالات الضوء والعتم... أيُّ بيتٍ من بيوتك ينهدُّ الآن، وأيُّ عائلةٍ

تنقرض الآن، وعلى أيِّ جدارٍ تتطاير رؤوس أطفالك الآن؟ تأتينا الأجوبة في الصباح لحظة سقوط عيوننا على هواتفنا ورقود التحيَّات والقُبَل في تفل القهوة المُرَّة.

«المرأة الفلسطينيَّة يا سيادة القاضي تنجب أطفالًا تمامًا كالمرأة اليهوديَّة، لم يحدث حتّى الآن أن أنجبت امرأةٌ عربيَّةٌ عبوةً ناسفة»

وليد دقة

ليس ما يحدث زوبعةً في فنجان يا غزَّة. في الأيَّام الأولى كنَّا مثلك أشدَّاء، نرى غلافك عاريًا من محتلِّيه وأبناءك المقاومين يتبادلون المواقع ويخترقون الجبهات ويُدخلون الأسلحة والذخيرة. عرفنا أنَّ المحتلِّين يهجرون البيوت على وقع صواريخك، وراجماتك تقصف عسقلان وفي القدس. قيل، الصهاينة يهربون مغادرين حائط البراق.

لكن بعد أيَّام، شاهدنا النَتِن يهاتف الخَرِف: «إنَّه هجومٌ لم نشهد وحشيَّته منذ المحرقة» قال له بوجهٍ يثير في النفاق رعشة اشمئزاز، لكنَّه يشدُّ النفاق من شعره ويرغمه على الإصغاء: «لقد تمَّ ذبح المئات، عائلاتٌ بأكملها قُضِي عليها أثناء نومها، نساءٌ قُتلن واغتُصبن بوحشيَّة. كما تمَّ اختطاف أكثر من مائة شخص، بما في ذلك الأطفال. ومنذ

تحدُّثنا آخر مرَّة، ازداد حجم هذا الشرّ. لقد أخذوا عشرات الأطفال ربطوهم وأحرقوهم، وقطعوا رؤوس الجنود».

وراح الخَرِف يجترّ كلام النَتِن. هل سمعت ما قال؟ «لم أكن أعتقد حقًّا أنّني سأرى صورًا لإرهابيّين يقطعون رؤوس الأطفال. لم أعتقد قطّ أنَّ هذا سيحدث».

بكلّ لغات العالم سالت الأكذوبة: «حماس قطعت رؤوس أربعين طفلًا في كيبوتس كفار عزَّة». لسان الأفعى يقذف النار. تتلقَّفها ألسنة الثعابين الصغار وتقذفها على الهواء لتدور حلقةُ النار فوق المتفرّجين على سيركٍ من أكاذيب السحرة.

سيمرّ وقتٌ ليس بقليلٍ قبل نفيٍ يصدر من زمرة الخَرِف: «بايدن لم ير صورًا لأطفالٍ مقطوعي الرؤوس». الآذان صمّاء. والألسنة تزبد وتلوك وتعلك الخبر الأوَّل الذي نفاه خبرٌ لاحق. وتخرجين أنت بكامل أرواحك المقاومة تهدهدين أطفال الكيبوتس. لا يصدّقك العالم. الخبر الأوَّل كالطحالب التصق على الجماجم. ثم تُخلين سبيل مستوطِنةٍ مع طفلَيْها ولا يصدّقك العالم. هكذا نسي الجميع ما قبل 7 أكتوبر ليلفظ جملةً واحدةً فقط: اضطهاد اليهود جريمة.

السابع المجيد لنا، اللَّعين لهم، حدثٌ بلا سياقٍ فالتٌ من الزمان ومن الجريمة الأولى. هكذا زوَّروا الرواية. مسخوا اللغة وشوَّهوا المصطلحات: المقاومون «مخرّبون». المستوطنون «مدنيُّون». والعدوان الوحشيّ «دفاعٌ عن النفس». إنَّه فنُّ الدعاية وأوَّل شروطه استخدام «الاتِّهام في المرايا».

يُسقطون الآن صورتهم الحقيقيّة عليك. كلُّ طفلٍ من رحمك «مشروع مخرِّب، حاقدٌ وإرهابيّ». مكشوفون أمامك بما يضمرون. غافلون عن حقيقة خوفهم. كلُّ طفلٍ فلسطينيٍّ يذكِّرهم بسرقتهم الأصليَّة، ولا سبيل لمحو هذه الحقيقة إلّا بقطع نسل هذه الأرض. والمأساة أنَّ أطفالك يعلمون. فذاك فتى لك يُسأل: ماذا تريد أن تكون عندما تكبر، فيقول: «نحن في فلسطين لا نكبر». لو لم يكمل هذا الفتى عبارته تلك بالقول إنَّنا نموت قبل أن نكبر، لقلتُ هذه أجمل جملةٍ ثوريَّةٍ سيسجِّلها التاريخ.

أطفال فلسطين يحقِّقون حلم الإنسان الأزليّ: ألّا يكبر ليبقى الطفل فيه يصدِّق مستحيلات الأحلام. «نحن في فلسطين لا نكبر» إلّا في السرّ، وتحت الأرض لا فوقها. نعبث بالتراب ونتعفَّر به ونختفي في أعماقه ونتفرَّع كشبكة جذورٍ غير مرئيَّة، فيها يكمن سرّ علوّ الأشجار وطول عمرها. أطرافنا التي ترونها مبتورةً تحفر في أديم الأرض معبرًا لأميرٍ صغيرٍ اشتاق إلى كوكب زهرته الوحيدة وسئم التفسير للكبار «الذين لا يفهمون شيئًا بمفردهم ويحتاجون دائمًا إلى الشرح».

حنظلة لم يكبر. أعداؤك، أعداؤنا شاهدوا تلك الطفلة التي أنقذت كتبها لتنقذ أحلامها في التعلّم حتى التفوُّق. وشاهدوا رمضان أبو الجزر يقول بملء عينَيْه الحذقتَيْن «أريد أن يكون لي اسمٌ كبيرٌ في هذا العالم». رأوا الطفل الذي صحا ليجد قدمه مقطوعةً ومرميّةً بعيدًا بُعدَ حلمه ليكون لاعب كرة قدم! والرضيع الذي أخرجه مسعفوك بعد عشرين يومًا من تحت الردم والأنقاض، ما زال يتنفَّس. هرعوا به إلى المستشفى. هو الناجي الوحيد. سبعون فردًا من عائلته انقرضوا!

سيلاحقونه بصواريخهم إلى المستشفى. هناك، لا دواء ولا ماء ولا كهرباء، سيبقى محرومًا من التعافي إلى أن يموت.

ولعلَّهم رأوا أيضًا ماريا وهي تحفر بأصابعها التراب وقلبها على المسعفين، تزيل الحجارة من أمامها ونصف جسمها في الردم، تسحبه إلى أعلى وتسحل كسمكة. ترفعها الأيدي وتُحمل على الأكتاف. نجت، ولكن إلى متى؟ بريق عينَيْها يجب أن يخبو، بسمتها تقضم الرماد، ومن شعرها المربوط ينفلت جموح مهرةٍ لن تشرد عن نواصيها. إذن لنحرق المراعي بالفوسفور!

ولعلَّهم رأوا حبيبة، «معطية الأحضان» كما تسمِّيها أمّها. عمرُ حبيبة ثماني سنواتٍ فقط، شعرها أحمر، متفوِّقةٌ في الصف الثالث. سمعوها تقول أحلم أن أصبح فنّانةً وأتقن الإنكليزيَّة لأُخبر العالم معاناة غزَّة. سمعوها تقول «جسمي كان يرجّ من صوت الصواريخ، مسكت فرشاية الرسم لأنسى الأصوات». رأوا فرشاة الرسم قنبلة، فقصفوا البيت لتحترق حبيبةُ وحيدةً بلا أحضان.

أطفالك أهدافٌ استراتيجيَّةٌ في الوطن والشتات. كنتِ بلا كهرباء ولا إنترنت عندما صرخ عجوزٌ أميركيّ: «أنتم أيُّها المسلمون، يجب أن تموتوا» وشهر سكِّينه العسكريّ، وطعن وديع الفيوم ستًّا وعشرين طعنة. مات الطفل وديع لأنَّه فلسطينيّ. والدته حنان شاهين طالتها اثنتا عشرة طعنة، وعاشت لتشهد. لكنّ الأبشع من هذه الجريمة، إخفاء أسماء الضحايا. اكتفوا بالقول: مسلمين وفلسطينيِّين! وخرج الخَرِف وقال: «أسرة الطفل الفلسطينيَّة المسلمة جاءت إلى الولايات المتَّحدة سعيًا وراء ما نسعى إليه جميعًا: ملاذٌ للعيش والتعلُّم والصلاة بسلام». هذا

الذي لم يثنه خرفه عن التباهي بصهيونيَّته والقول: «لو لم تكن إسرائيل لأوجدناها!» كيف ننسى ما قاله عندما كان في كامل قواه العقليَّة: «طالما ظلَّت الولايات المتَّحدة على وجه الأرض، فإنَّ الشعب الإسرائيليّ لن يكون أبدًا بمفرده».

أتذكرين حين قال ذلك في حفل تأبين شارون؟ شارون الذي أقسم بحرق كلّ طفلٍ فلسطينيٍّ يمكن أن يولد. شارون الذي أرعبته المرأة الفلسطينيَّة، لأنَّها نفوضٌ كثيرة الولادات وهي أخطر من كلِّ رجالك!

كلّ أطفالك أهدافٌ يا غزَّة، لأنَّهم يشتاقون إلى المدرسة أكثر من اللعب. أصواتهم أعلى من الزنّانات ويكبرون قبل أوان البلوغ. الصاروخ، لا الكتب، علّمهم كيف تكبر الأرواح لترضع حليب القوَّة، فتسبق الجسد الطريّ علوًّا. من أين لهم تلك البلاغة إذن؟ كلٌّ منهم مؤسَّسةٌ إعلاميَّةٌ قائمةٌ بذاتها. ينقلون الحدث بأدقّ تفاصيله. يرصفون كلماتهم على سطرٍ واحدٍ ومن دون تلعثم. وكقنابل الهاون تنطلق عباراتهم مصيبةً هدفها: تقزيمنا جميعًا وإعلاءنا في آن.

ما لنا نحن لنعتدَّ بك ونفخر بما أنجزتِ؟ لا فضل لنا عليك في أيِّ شيء. بأيِّ حقٍّ نجنح إلى التزيُّن بمجدٍ أنت صانعته، كثوبٍ مستعارٍ نختال به، لنوحي بثراءٍ لا جهد لنا فيه. أتغفرين لنا هذا التماهي؟ كيف نستحقّ حياتنا إن لم نعتمر الكوفيَّة ونشهر السلاح في صورة، ونوزِّع كلام أطفالك على الصفحات لنرى في مرايانا عجزَنا وعارَ بُكمنا؟

ماذا فعلنا بزجاجيّ العينَيْن يواف حين قال: «نحن نحارب حيواناتٍ بشريَّة»؟ ليس بالريموت كونترول وحده، يُكتَم صوت الجربوع

طويل الأذنَيْن وهو يفاخر بأنَّ «هناك المئات مدفونين تحت المباني في هجماتنا». جينات الكرامة تدفن على مرأى منَّا جميعًا. وننام. وتلك الجمرة المضادّة للخمود، توقدينها وحدك فوق الرماد.

خبرٌ يعجّل خبرًا، مجزرةٌ تعجّل أخرى. ونحن نتفرَّج. قالوا لنا: بالدُّعاء تُنصر غزَّة. اللّـه رحيمٌ شاهدٌ ومشهود. وشهيدٌ يسقط وشهيدٌ يعلو وشهيدٌ مفقود. يومان، ثلاثة، أسبوع... ألفٌ وأربعمئة شهيدٍ وستّة آلاف جريحٍ ستّون بالمئة منهم أطفالٌ ونساء. ستّة آلاف قنبلةٍ بزنة أربعة آلاف طنٍّ من المتفجرات. صاروخٌ واحدٌ يقتل ثلاثين شخصًا في لحظةٍ واحدة. وتطلّين بلثامك الأحمر، لتبرّدي القلوب وتعيدي إلينا نشوة انتصار اليوم الأوَّل، فتروين لنا تفاصيل التخطيط للطوفان من الإعداد والتجهيز والتدريب إلى الاستطلاع والتنفيذ، وتحديد الهدف في تدمير فرقة غزَّة أوَّلًا. تذكّريننا بسيف القدس وبهدفَيْن رئيسيَّيْن: إنقاذ الأقصى وتحرير الأسرى. ثمّ تؤكّدين على ذلّ العدوّ وسحق صورته أمام الأجيال الحاليّة والقادمة. وتختمين مرافعتك تلك بالقول: «ما هذه الدِّماء إلَّا ليغطّي الملك المتسوّل عورته، وينقذ هيبته المزعومة. سيدفعون ثمنًا باهظًا في مستقبلهم السياسيّ والعسكريّ».

أيُّ ادّعاءٍ سيجرؤ عليه الصهاينة الآن؟ السبَّابة ـ الشهادة، تمحو كذبهم وترفع أرواحنا المجروحة على عتباتك يا غزَّة. ونمهلك صبر ساعةٍ وبيننا وبينك زجاج الشاشات وزجاج الكاميرات وزجاج عيوننا.

اصبري يا غزَّة. موتي لكي تحيَي. ونحن هنا باقون. سننام قليلًا لكنَّنا عائدون لنتفرَّج. سيلكزنا ضميرنا الغائب عن المنصّات الافتراضيَّة: «انشروا، شاركوا، ناصروا غزَّة وأهلها، الصمت خيانة».

والكلام أيضًا طعنٌ في قلب الحقيقة. الصهاينة غربًا وشرقًا يملؤون العالم ضجيجًا: «غزَّة قطعت رؤوس الأطفال وأحرقت نساءً في الأفران، ورجالها اغتصبوا وبقروا بطون النساء»...

هل من يصدِّق؟ أجل. كثرٌ صدّقوا وبصموا ووصموا: «هذه بربريَّة» قالوا. وتدثّروا عباءة الدفاع عن حقّ بني صهيون وهُم من عباءة التاريخ فارُّون منبوذون.

الانحدار إلى أعلى يتجلَّى. قذارات العالم على السطح تطوف. أقنعةٌ قابلة للتحلُّل انتهت صلاحيَّتها، فأسفرت الوجوه عمَّا في الصدور.

أخللٌ طارئٌ أم عطبٌ ما بعد الصدمة؟ أم هو التراكم بلغ مرتقاه بعد سنين من انحدارٍ لزجٍ سيّال. لا. بل انحدارٌ خارقٌ حادٌّ مسنون، راح يفتح قاعًا بعد قاعٍ معابد لآلهةٍ سفليَّةٍ سافلةٍ واعدة: «من يبقى لي عبدًا تبقى معصيَّته سرًّا».

استعمارٌ ناعمٌ خوارزميٌّ جرّ العالم من شعره، فانزلقنا على أرداف مروة راتب ومؤخّرة كيم كردشيان. وانعقدت أسئلة الوجود على شفاه نادين وعُلِّقت كلّ الهموم على خصر مايا، وأجّل الكوكب تقرير مصيره بعدما توقَّفت نواة الأرض عن الدوران وحطّت عدسة المراقبة الخفيَّة فوق حياة بطل قرصان الكاريبي.

أشاهدت هذا التعاطف العالميّ مع جوني ديب قبل سنواتٍ قليلة؟ المسكين ضحيَّة التعنيف النسويّ من الطفولة إلى النجوميَّة. كلّ القلوب ذَوَت على حاله. لكنَّ التعنيف أصبح ترند وهاشتاغ ونسخًا ولصقًا.

تناقل العالم كلّه مشاهد امرأةٍ تقطّع زوجها أجزاءً وترميه في البحر، ومشاهد شابٍّ ينحر عنق خطيبته أمام زميلاتها في الجامعة، ومشاهد

رجلٍ يقتل أمّه، ومشاهد ثلاثة أخوةٍ يحرقون والدهم حيًّا... ومشاهد أمٍّ تذبح ابنها وتطبخ جثّته وتأكلها.

بالحماسة نفسها شاهدوا وتداولوا حكاية امرأةٍ تبتكر حبيبًا بالذكاء الاصطناعيّ له كلّ مواصفات عشّاقها الآدميّين، ويتفوّق عليهم بمزيّة الوفاء الأبديّ...

هذا غيضٌ من فيضٍ لانحدار سريعٍ سحيق. هكذا غلا الرخيص. علا السفيه. أشباهُ بشرٍ وعريٌ يعتلفُ من خواء الشرف. امّحت الأجناس. ساد الشبه. تأنّث الرجال. ورفعت الأنثى علامة المذكّر المنصوب. من كان يجرؤ على وصم أيّ فعلٍ بالمعيب؟ «لا تحكم على أحد، لكلّ أمرٍ تبرير». كلّ معنِّف ضحيَّة، أليس البادي أظلم!

علكٌ وإعادةُ تدويرٍ لحِكَمٍ واقتباسات. «إمبرياليَّة مقولات». وتنمية أوهام سعادةٍ وريادةٍ يتساوى فيها الهجين بالأصيل. مرتقى الغرائز قمّة التحضُّر. كلّ مواجهةٍ تنمُّر، والتشهير شجاعة، والفضيحة عدّاد التقييم. والقيمة للممتلئ بالفراغ.

والفراغ بالونٌ عالميٌّ نطوف داخله حتّى التسمُّم الجماعيّ. فيروسٌ لا يُرى ولا يُلمس ولا يُشمّ يثقب البالون. يشتِّت أجسادنا. يكمِّم أفواهنا. يعزلنا فرادى في فقّاعات صابونٍ وتعقيم. وفضاءٌ يتنفَّس بلا نفاثاتٍ وطرقاتٌ بلا نفاياتٍ تختال فيها حيواناتٌ استعبدها البشر داخل أسوار الفرجة.

عُقمٌ شموليٌّ ولقاحاتٌ ممهورةٌ بختم «المليار الذهبيّ». هندسةٌ وراثيَّةٌ للفناء السريع، وثالوثٌ مقدَّسٌ أوحدُ تنبع منه ثروات الدخل السريع: صناعة الحروب والمجاعات والأمراض. تآمرٌ في العلن وشراءُ

ذممٍ وغواية الشيطان لتسقطي في معصية السلام وإلّا حصارٌ مستدامٌ وسدّ الأنفاق وخنق أنفاسك المتمرّدة وتقطيع أوصال السلاح.

لم يعلموا مدى عنادك لتعدّي لهم العقاب بسلاح جريمتهم، ولتمهلي ضفادعك البشريّة ما يلزم من وقتٍ وتدبيرٍ لاستخراج ما خفي في بحرك منذ الحرب العالميّة الأولى. تلك القذائف البريطانيّة التي صدأ حديدها أصبحت كنزك الأثير. لم يعلموا مدى مكرك لتمهلي مهندسيك فرصة إعادة تدوير البارود العتيق، فيما مقاومون آخرون ينبشون ترابك ويحوّلون أنابيب مائك المسروقة إلى أجسام صواريخ باطنُها يستوعب البارود وظاهرُها ملوّنٌ لمّاعٌ يليق بانتصاراتك القادمة.

القهر والفخر يتناوبان على قلوبنا يا غزّة، ويكاد القهر يركل قفزتك العملاقة إلى قاع النسيان، فالسحابات الرقميّة تبتلع الأخبار والصور، وأخاف أن يتبدّد الفخر في أتون القهر. أنا من جيل الصحف الورقيّة. كنت أقصّ مقالاتٍ من جريدةٍ وأجمع ملفّاتٍ من القصاصات. الآن أعوذ بذاكرة غوغل لأقرأ ما كُتب عن طوفانك لأستلّ أملًا بدأ يضمر. كأنّنا محكومون دائمًا بالرجوع إلى ومضات ماضٍ قريبٍ أو بعيدٍ كلّما اسودّ حاضرنا وانسدّ الأفق. نجترّ بطولةً وحكاية نصرٍ أحيانًا لقتل اليأس، وأحيانًا لتثبيت الإيمان بجدوى التراكم، فلا جهد حقيقيًّا يضيع ولا فكرة عادلةً تموت.

وأقرأ: «المقاومة عبرت. حقًّا عبرت». تفاصيل العبور الكبير خطّها ابنك يوسف فارس:

«الساعة السادسة والثلاثون دقيقةً من صباح السابع من تشرين 2023، كانت شاهدةً على تجسيد واقعٍ عمليّاتيّ، يتجاوز الأحلام

والأمنيَّات: أكثر من 3000 صاروخٍ قصير المدى من طرازٍ صُنع خصِّيصًا لهذه الجولة سيحمل اسم «رجوم»، دكَّت بها الوحدة الصاروخيَّة لـ«القسام» المستوطنات المحاذية لقطاع غزَّة. وبعد عشرين دقيقةً من القصف المتواصل، كانت وحدة المظلِّيِّين «صقر» تندفع مع الريح على متن آليَّاتٍ مظلِّيَّةٍ نصف أوتوماتيكيَّة، صُنعت أيضًا خصِّيصًا لهذه المَهمَّة، في اتِّجاه الحدود. وفي غضون ذلك، بادر المئات من المقاومين بالهجوم على السياج الفاصل، فتحوا ثغرةً عبر تفجير السياج، ثمّ التقوا مع من سبقهم من رفاقهم المظلِّيِّين، وشرعوا في تطهير المواقع العسكريَّة المتاخمة للحدود. اشتباكاتٌ اعتمد فيها المقاومون على عامل الصدمة والمباغتة، والتحم فيها المقاتلون المجهَّزون بكمِّيَّاتٍ وافرةٍ من القنابل والرصاص، وجهًا لوجه مع الجنود الإسرائيليِّين الذين لم يكونوا قد استوعبوا بعد هول المفاجأة. قبيل الهجوم بلحظات، كانت طائرات المقاومة المسيّرة تمهِّد الطريق لعبور المقاومين، عبر قصف كلّ ما يعترض طريقهم من أهداف، مثل الدبّابات والأسلحة الآليَّة الرشّاشة. وبعد أقلّ من ساعةٍ على الصدمة التي اعترت الإسرائيليِّين، اندفع الآلاف من المقاومين في اتِّجاه المواقع التي وطأتها أقدام رفاقهم، ثمّ تبعهم عشرات الآلاف من المواطنين. تجاوز مشهد الساعات الخمس الأولى الأحلام كثيرًا، إذ ضجّت شوارع القطاع بأنباءٍ عن العشرات من الأسرى الجنود والمستوطنين، من بينهم نحو 20 ضابطًا من ذوي الرتب العسكريَّة المهمَّة، والعشرات من المستوطنين والمستوطنات، الذين اقتيدوا لتوفير الحماية للمقاومين أثناء الانسحاب، وهو ما تمَّ فعلًا. غابت شمس اليوم الأوَّل من المعركة التي حملت اسم «طوفان الأقصى» على وقع انتصارٍ معنويٍّ وعسكريٍّ مجلجل، وبدا جيش الاحتلال غارقًا في البحث عن الطريقة التي يمكن عبرها أن يرتِّب

أولويّاته: هل يبدأ بتطهير نحو 90 كيلومترًا خرجت من سيطرته بمحاذاة غزَّة؟ أو يشرع في عمليَّةٍ انتقاميَّةٍ تعيد إلى قوَّاته شيئًا من الهيبة الضائعة؟ هل يدخل برِّيًّا أو يكتفي بالقصف من الجوّ؟ هل يوقف الحرب ويبدأ بالتفاوض لتحرير أكثر من 60 أسيرًا وأسيرةً من جنوده ومستوطنيه؟ ثم يعاود الكرَّة بعد أن يخرجهم من غزَّة؟»

وأقرأ: «ما فاق الخيال عند الصديق كما عند العدوّ، تحوَّل إلى واقعٍ جديدٍ في مسار الصراع العربيّ ـ الإسرائيليّ. وصار النقاش يتجاوز الهزيمة التي لم تستوعبها إسرائيل بعد، إذ قادة كيان الاحتلال يسعون إلى حشد تغطيةٍ دوليَّةٍ واسعةٍ لجريمةٍ كبرى. يعدُّون لها في قطاع غزَّة وأماكن أخرى من فلسطين، ليس بهدف الانتقام فقط، بل لمحو الآثار العملياتيَّة والنفسيَّة والسياسيَّة لعمليَّات طوفان الأقصى».

وأقرأ: «العدوّ يخطِّط لحفلة جنونٍ ستشعل المنطقة».

أقرأ وأرصف السطور كأسنان مشطٍ أسرِّح به شَعر الكلام وأنقر الحروف كما ينقر الطير ريشه ويفرد جناحَيْه للماء. لست ببراعة الطير لأعرف مزاج الريح. أعرف أنَّ التنُّور فارَ، «علامةً على بدء الطوفان وكان عدد المؤمنين قليلًا». ولكن هل أصبتِ في اختيار التوقيت يا غزَّة؟ من يقوى على قراءة أفكارك الآن وعلى ماذا تنوين؟ أرى الطوفان كحدثٍ مفصليٍّ في روايةٍ جمعتِ أركانها في سياقٍ منطقيّ، فكلُّ مقدِّماتها صحيحةٌ وكلّ خلفيَّاتها واقعيَّةٌ وكلّ دوافع أبطالها تقود الحدث إلى ذروته. لكنَّ الحبكة شديدة التعقيد. هل لدَيْك حلٌّ لكلِّ عقدة؟ أو ستفلت منك الحبال كما يحدث لبعض الروائيِّين فتقود الرواية نفسها إلى أحداثٍ لم تكن في الحسبان وإلى خاتمةٍ صادمةٍ لهم أوَّلًا؟

ليت الشخوص دمى نحرّكها كما نريد. وليت الأشرار يموتون كما في الروايات. وأنتِ أكثر العالمين أنَّ حلول الخير في الأرض احتاج إلى طوفانٍ كبير. وتعلمين أيضًا أنَّ عدوّ اللّـه تعلّق بذيل الحمار ليدخل سفينة الخلاص! ما الحكمة في حكاية الطوفان؟ إبليس باقٍ أبد الدهر ليذكّرنا أنَّ الحياة ليست سوى في محاولتنا لنحيا؟ أم أنَّ الحياة لا معنى لها إلَّا بمقدار ما نبذل في سبيل ما نراه جميلًا؟

ضاق الهواء بأنفاسك الثائرة، فنزلتِ باطن الأرض وحفرت بأظافرك أوَّل نفق. سنين وسنين وأنت تحفرين، ينهار التراب فتُرمّمينه. ينهار نفقٌ ويطمر أبناءك. تنفضين الغبار وتقولين: «لو عادوا جرحى لعالجتهم وأرجعتهم إلى النفق». تتربَّصين بالغزاة، متاهتهم هنا، مقبرتهم هنا تقولين. أرتعش كأرنبٍ وأجرش على أسناني... إبليس عاد وتعلّق بذيل صاروخٍ وراح يحرق عظام أطفالك وهم نيام.

ماذا الآن؟

«غزّة، امرأةٌ عَرافَةٌ تتنبّأ بالموت وتتجهّز له جيّدًا.
امرأةٌ بسؤال الموت».

مريم الخطيب

ها أنا أنقر في تراب الصوَر يا غزَّة، فأجدك تارةً تحت الركام العالي، وتارةً في سيارة إسعاف، وتارةً تولين لي ظهرك ولا أرى منك سوى يديك تدكّان الرجوم والهاون. وتارةً أسمعك تعدّين أرقامًا لا يحفظها العقل: 1850 شهيدًا صاروا 4100 في أسبوع! 4600 طفلٍ قتلوا وأصيب 9000 آخرين. أبعُدُ عنك لحظةً فأرى فقّاعاتٍ تطفو في الفضاء، ليست كفقّاعات الصابون التي ينفخها الصغار، بل رغوةً بشعةً تتكاثر وتتطاير في كلِّ الأنحاء ولا تتبخّر! ينفخها عجوزٌ خرِفٌ ويتفرَّج عليه العالم ويتحمَّسون فيفعلون مثله. ويتحوَّل الجميع إلى نافخي فقّاعات.

كانت أمّي تقول: «اتبع الغراب يدلّك على الخراب!» كيف للعالم أن يتبع خرِفًا هو نفسه الذي سخر منه الجميع عندما تعثّر صاعدًا إلى الطائرة وعندما صافح الهواء بعد خطاب، وعندما تحدَّث عن خسارة

بوتين لحرب العراق وعندما وضع يده على صدره أثناء عزف النشيد الوطنيّ الهنديّ، وعندما ختم مناشدته للكونغرس بتشديد قوانين حيازة السلاح قائلًا: «ليحفظ اللّـه الملكة، يا رجل»!

هذا الكائن كان قبل أشهرٍ وصلةً ترفيهيّةً لجمهورٍ عالميٍّ معادٍ للشيخوخة عاشقٍ للفرجة. هذا الكائن الذي حمته حاشيَته من فضيحة انحرافه بعدما تسرَّبت مذكّرات ابنته البكر وكشفت عن كابوس الاستحمام مع أبيها وهي طفلة. ماذا حصل بعد 7 أكتوبر ليصير هذا المنحرف في عقله وأبوّته، المصدر الموثوق والشاهد ـ الملك على سرديَّة قطع رؤوس الأطفال واغتصاب النساء؟

لعلّك أنت الوحيدة التي لم تتفرَّج على تلك المهزلة! هكذا تمنَّينا، فأنت لا تنعمين مثلنا برفاهيَّة التفرُّج. نحن جمهور الصفّ الأوَّل، المنتمون إلى الواقع الموازي، الهائمون في عالمٍ افتراضيٍّ تارةً يجمّل لنا عالمنا، وتارةً يكشف فظاعة ما فيه، وفي الحالتَيْن يعدُنا بوجودٍ لا شقاء فيه، خالٍ من المهمَّات العسيرة، ويبدِّد لنا المسافات بين رغباتنا وإشباعها، ويخيِّرنا بين الانفصال والاتِّصال، بين الرحمة واللَّامبالاة، ويدعونا إلى الثورة على ما يسبِّب لنا الإحباط. إنَّه عالمٌ يقول لنا كلّ لحظة: DIY «افعلها بنفسك» لتستحقّ الانتماء إلى جنَّة العالم الحديث.

فعلوها وأطلقوا الشائعة، ووثّقوها في صورة كائنٍ متفخّم. فعلوها وكرَّروا الشائعة. الصورة على كلّ المواقع يبثّها كلّ من ارتشوا بحرق أسمائهم وسيرهم إذا خرجوا عن النصّ المعدّ على عجلٍ لتعجيل الانتقام بذريعة «الدفاع عن النفس».

سريعًا فكّك أحدهم كذبة التزييف العميق. ما عدت أذكر من فعلها! ربما هذا الناشط الأميركيّ ويدعى جاكسون هينكل. المهمّ أنَّ أحدًا فعلها بنفسه وأطلّ على جمهور متابعيه العريض، ليقول: هذه الجثّة المتفحّمة هي لكلبٍ وليست لطفلٍ من «إسرائيل»! لكنّ أخلاقيّات فردٍ واحدٍ لا تُصلح فساد العالم، والشبكة العنكبوتيّة تحبك خيوطها بمهارة، وتلتفّ على بعضها، وتتمدّد حيثما تريد، وتستمرّ في الغزل والحبك صعودًا وهبوطًا إلى ما لا نهاية.

إصبع واحدّة ثقبت النسيج. إصبع صغيرة عليها نثار خبزٍ أخير. إنّها لطفل لك، اسمه مكتوبٌ على ذراعه. عليٌّ، خرّ عليه السقف قبل أن يشبع. وهذه فتاةٌ تعطي المسعف ورقةً دونّت عليها أسماء كلّ عائلتها: «رجاءً، ابحث عنهم يا عمو»...

الجمهور العربيّ يتناقل الصور، يتحايل على النقاط فوق الحروف، يتسلّل من جدران الحجب. وصحف الغرب ما زالت تغزل وتحوك وتلصق الغراء على نسيجٍ واهنٍ من الأكاذيب.

سأمطّ عضلات لغتي الفرنسيّة المترهّلة بعد سنواتٍ من الخمول لأردّ على أحفاد نابليون برشاقةٍ وتهذيبٍ مُحترِمةً «الحرّيّة والمساواة والأخوّة». أعرف كم انشغلوا بابنة ميتران غير الشرعيّة، وبمراسلاته مع عشيقته ولم يرسوا على برٍّ في تحديد هويّة السيّدة ماكرون الجنسيّة أو حتّى في رجولة مسيو ماكرون نفسه! لا يلامون. لعلّ التزييف العميق يربكهم. العالم يراهم خارج قطار التكنولوجيا السريع، عالقين في متاهات الأسئلة الفلسفيّة والتحليل النفسيّ. أتفهّم حساسيّتهم. صورة

طفلٍ متفحّم ستؤرق ضمائرهم أكثر من شهاداتٍ لضحايا أديبٍ كرّموه بجائزةٍ مرموقةٍ على رواياته البيدوفيليَّة!

لا يلامون. لن يخطئوا مرَّةً أخرى ويلصقوا التهمة بجنديٍّ يهوديّ الأصل! إميل زولا أدّبهم مرَّةً وفضح عنصريَّتهم، لكنَّ دريفوس الجديد ليس بريئًا هذه المرَّة!

حسمت أمري أيضًا. ما نفعُ اللغات الأجنبيَّة التي نجهد في تعلُّمها إذا لم نستخدمها في الوقت المناسب؟ سأكبت نقمتي على بعض أحفاد سرفانتس أيضًا. وعليَّ أن أميِّز بين كتالونيا ومدريد. مثلما بين نابلس وبيت فوريك. للطبقيَّة أحكامها. لكنِّي سأشحذ كلّ أصول التعبير لأركِّز على قضيَّة مركزيَّة Por favor، أين ذهبتم بخمس حروبٍ وعشرة عقودٍ من احتلالٍ ومجازر؟ Por favor، يردُّون بتهذيب، ليتَّهموني بالتبرير! ويسحبون الخيط الأوَّل من الشبكة ويلصقونه من جديد: 7 أكتوبر جريمة الجرائم، لا قبلها ولا بعدها من يقين.

ليسوا هم أنفسهم من كانوا يقدِّسون التبرير قبل تشرينك بقليل. أعرف كثرًا منهم وكنت أتابعهم بانتظام، لزوم التدرُّب على اللغة الإسبانيَّة. قبول الآخر كان شعارهم ولا مكان عندهم لـ«الأحكام المسبقة». كلُّ انحرافٍ وشذوذٍ يضعونه في سياقٍ تاريخيّ: خللٌ هرمونيٌّ أو سيرة عذابٍ بين ميولٍ «فطريَّة» وقيودٍ «بالية»...

استماتوا قبل شهورٍ لفهم وتحليل خلفيَّات جريمةٍ ارتكبها ابن فنَّانٍ إسبانيٍّ شهيرٍ بحقّ ثريٍّ تايلانديّ. يومها قالوا إن التايلانديّ كان يهدِّده، وقالوا إنَّ التايلانديّ متحرِّشٌ مغتصبٌ ضيَّق عليه الخناق فما كان من الشابِّ الوسيم إلَّا الانتقام لحرِّيَّته وانتزاعها بالسكِّين!

هو ضحيَّة، حتّى لو قطَّع رجلًا ورماه في القمامة. وهم ضحاياه لأنَّه وسيمٌ وابن ممثّلٍ أوسم منه وله ملايين من المعجبات والمعجبين. أن يقطّع جسد التايلانديّ بحِرفيَّة شيف متمرِّس، مفهوم. فالمتحرّش - أي البادي - أظلم، وهو من أوصله إلى هذا الانتقام الذي قد تفكّر فيه أيّ ضحيَّةٍ مثله. أمّا أنتِ فلا. عليك أن تجوعي وتُحرقي ويُقطع رأسك من غير ضجيج!

قلت: ليسوا هم أنفسهم من يرفضون الآن كلّ دوافعك وأسبابك الموثَّقة في التاريخ! لا بدَّ أنَّهم ذباب. تعرفين أنَّ التكنولوجيا أصبحت قادرةً على إنتاج الذباب. ذبابٌ أزرقُ أو حتّى بكلّ الألوان. ذبابٌ قادرٌ على التَّحليق في كلِّ الفضاءات ليغطّ في مواقع محدَّدةٍ ويبيض. يمكن لذبابةٍ أن تنتحل صفة إنسانٍ واسمه وصورته وتتكلَّم وتشارك منشوراتٍ تضلِّل الناس وتلهيهم بكشّ الذباب عن أيِّ شيءٍ آخر مفيد!

أهي صدفة تسميتهم بالذباب؟ لماذا لم يسمُّوهم «نحل إلكترونيّ» مثلًا. الاسم يخدم الغرض. ذباب. ما أكره هذه الحشرة! قرأت مرَّةً أنَّها تتمتَّع بذاكرةٍ ضعيفة. لذلك تبحث عن الطعام في المكان نفسه أكثر من مرَّة. مسرسبةٌ أنا من الحشرات. أقرأ كثيرًا عنها رغم أنّي لا أجرؤ على ذكر اسم بعضها. المهمّ. بالعودة إلى الذباب خذي هذه المعلومة. وتذكّريها في حال تسرسبت أنت أيضًا. أعرفك مهووسة بالنظافة. لا تخافي، فالذباب ولأنَّه غبيٌّ وبذاكرةٍ ضعيفة، قد يغطّ على شخصٍ نظيفٍ وليس فقط على الأماكن المتَّسخة أو على من لم يغتسلوا جيّدًا. يعني حتّى لو اغتسلت خمس مرَّاتٍ ولبست ثوب الصلاة المهفهف قد يحوم عليك الذباب لأنَّك تناولت طعامًا ملوَّثًا. بحاسّة شمٍّ شديدة

القوّة يستشعر الذباب ما في داخل أمعائك ويحوم حولك! قولي اللّه. يجعلها أكبر المصائب... حاولي أن تخفّفي من الأندومي.

في هذه الأثناء سآخذ على عاتقي التعامل مع الذباب الإلكترونيّ الأجنبيّ. مهمّةٌ شاقّةٌ ولست أشكو. تستحقّين. ولن يضيرني التعامل الافتراضيّ معهم طالما أنّ حاسّة الشمّ الفذّة لدَيْهم لا تخترق الموبايل مهما خبصتُ في الأكل.

مهمّةٌ شاقّةٌ قلت لأنّ هؤلاء استحقّوا مناصبهم ولقبهم كذبابٍ لقاء إثبات ضعف ذاكرتهم، فنسوا وبسرعة برقٍ إلكترونيّ، كيف ترتّب الموائد وموضع السكّاكين على اليمين، وبأيّ شوكةٍ تؤكل السمكة وبأيّ كأسٍ تُرفع الأنخاب، ونسوا بالتالي كلّ المقدّمات قبل الوجبة الرئيسيّة.

ضيّعت وقتي ثمّ استسلمت. سيّدةٌ تابعت منشوراتها التعليميّة على مدار عامٍ وتواصلنا قليلًا على البريد الخاصّ بعثت لي أسفها على الضحايا المدنيّين من «كلا الجانبَيْن». خرمشت الكلمتَيْن، وغلّظت حروفي لأبعد المحتلّ عن سطر الضحيّة. فكتبت: لا مدنيّين في «إسرائيل». اكتفت بتعليق قلبٍ مكسورٍ على ردّي. وبعد ثوانٍ كتبت لي: «أصلّي كي تنتهي دوّامة العنف ويحلّ السلام».

لم أبادلها القلب المكسور. وليست ذبابةً لأكشّها. لكن هل أصابها طرف ألزهايمر؟ رسائلها قبل أشهر كانت تنزف على أوكرانيا التي لا تعرف من ناسها أحدًا! وفي ماضٍ أبعد، شاركتني تضامنها مع نساء أفغانستان! يومها أجبتها: «كلّ مصيبةٍ وراءها الأميركان». وبقي بيننا سلام... حتّى الآن. رقيقةٌ هي. عاطفيّةٌ لا تحبّ العنف. أهلها عانوا من الحرب الأهليّة في إسبانيا. تنشد السلام كي لا يموت أحدٌ لا المحتلّ ولا ضحاياه!

لن تفهمك. شحذت لغتي بما يلزم لأذكّرها بخداع الصورة. أخبرتها عن أسد الريف قائد الثورة عبد الكريم الخطابي. قلت إنَّه نشر في مذكّراته صورةً للعسكريِّين الإسبان يجلسون بزهوٍ بالغٍ فيما تحيطهم الرؤوس المقطوعة لمواطنين من الريف المغربيّ.

سُقت هذه الواقعة سريعًا لأتبعها بأخرى لا شكّ تعرفها السيّدة الشقراء. فالصورة نفسها أعيد نشرها في الصحافة الفاشية أيّام فرانكو ونُسبت يومها إلى «الفلول الهمجيَّة الماركسيَّة» التي تفخر بقطع الرؤوس، وكان عنوان الصورة: البربريَّة الحمراء. قلت لها هذه الصورة مزيَّفةٌ كصورة الطفل المتفحّم وكالرؤوس المقطوعة في الكيبوتسات بلا صورٍ ولا دليل. لم تردّ. ولعلَّها قالت إنّي من الفلول نفسها...

لماذا يعنيني إلى هذا الحدّ أن تفهم؟

سأفهم لوعة أحد عجائزك: «هذا الخذلان أقسى من ألف غارةٍ علينا». الخذلان أقسى مغمَّسًا بسكّر الكلام. وأشكو لآدم زعلي في المساء. ويضحك: «السكّين سيبقى على اليمين، فلكلٍّ طبقةٍ سرديَّتها. لا تضيّعي جهدك حيث لا يلزم».

وترتمين أمامي جاثية، رأسك إلى الخلف، على ركبتَيْك جثّة طفلةٍ ومن جوف فمك ينفجر لهبٌ يقدح السماء. ثوانٍ وتنتصبين: «فداك يا فلسطين».

أعيريني دليل أمومتك يا غزَّة. أفهميني كيف يكون في شرف الأرض العوض! فأنا أقلق من نحول ابني بسبب الرياضة، وأرتعب من أزيز ذبابة، وأصرخ ألمًا عند ارتطام قدمي بحافة طاولة، وأعطش بعد رشفتَيْ قهوة، وأجوع بعد عشر دقائق من المشي، وأتوتَّر إذا نفد خبز

الحمية، وتحبطني سُمنةٌ على محيط خصري. ومن أين لي ادِّعاء القوَّة وأنا مقتلَعَة طوعًا من أرضي، أعيش في أرضٍ لا تتلاقح أشجارها، ومطرها «لا ينزل إلَّا بقرار»؟

وتهاتفني صديقةٌ حائرةٌ بحدادها الطازج على أمِّها، أين تخبِّئه من عيون «أيتام غزَّة»؟ وأصطفُّ معها في طابور الأيتام. ونتقاسم رغيف العزاء: «أمَّهاتنا رحلن على أسرَّتهن هانئاتٍ راضياتٍ مُحاطاتٍ بالأحفاد مدثَّراتٍ بأجمل ثياب النوم الأبديّ». ويراوغ العزاء: ليتامى غزَّة أمَّهاتٌ وآباءٌ هم كلّ الرجال وكلّ المسعفين، والممرّضات، والأطبَّاء، والصحفيِّين. ويهجم الغضب على مجلس العزاء: هؤلاء جميعًا يتامى طالما العالم ينكر عليهم معاناتهم، وحقَّهم الأصليّ في الوجود.

لا. لست يتيمةً يا غزَّة. ها هم، نراهم من شاشاتنا يرفعون الركام عن يد، عن قدم، عن نصف رأس، عن صوتٍ يلهث بآخر أنفاس الدُّعاء. بعض سقوفك هوت برحمة، تاركةً فسحةً لفانوسٍ تحتضر بطاريَّته، لعلَّه يكشف شعاع عينَيْن أو سبّابةً منتصبة. عبْر مكبِّرٍ للصوت يصرخ المسعف: «في حدّ عايش هان». نقطع أنفاسنا كي لا نشوّش عليه السمع. يكرِّر النداء. بوجوهنا الهلعة نترقَّب يده وهي تحفر في التراب، ستلتقط طرف قميصٍ أو خصلة شعر... سنسمع أنينًا كالصبر طويلًا لكنّ حبل الإغاثة أقصر. سواعد أخرى تحفر لتهيِّئ مساحةً فوق التراب لجسدٍ بانت أطرافه... تهبّ أجسامٌ أخرى لتشدّ العزم، ترتجّ قلوبنا من هتافاتهم، ينحجب عنَّا المشهد لحظةً لترتفع يدان وسط الحشد تراقصان جسدًا لم يبلغ سنّ الحبو، جسدٌ ضئيلٌ قهر الصاروخ ليموت كاملًا. «شوفوا بياض وجهه» يصرخ حامله. تحت القصف هاماتٌ تجهد لتنتشل الشهداء وقد تُطمَر معهم بصاروخٍ جديد. وفي مكانٍ آمنٍ أبعد منك، تتبختر أجسادٌ هلاميَّةٌ

تحت سقوفٍ مذهَّبة، نضب الماء من وجوهها، تمدّ يدًا أولى لتطعن، ثمّ يدًا ثانيةً لترشو الألم. تلك أجسادٌ سائرةٌ إلى موتها بكامل نقصانها المقيت، حتّى لو التحفت أنصع الأكفان بياضًا.

أرأيتهم كيف أبرقوا التعازي إلى من يهدر دمك فداءً لقرنهم الجديد؟ سمَّوْا قاتليك «ضحايا» وأهدوك الأكفان! يعلمون أنَّك عاشقة شهادةٍ وستموتين كثيرًا بعد. عشبةٌ ضارّةٌ أنت ويردِّدون مع قاتلك: «من لا يجزّ العشب يجزّه». ركاكةٌ في التعبير يسندها معجم العرب: «إذا كان جزّ العشب لا يجدي سيتوجَّب اقتلاعه».

أهدوك الأكفان ثمّ سكتوا. والسكتة إثمٌ يا غزَّة، وتعلمين ذلك القول في لسان العرب: «الحيَّة السَكوتُ وسُكاتٌ ِإذا لم يَشعُرْ به الملسوع حتّى يَلْسَعَه».

السكتة سقطةٌ أخلاقيَّةٌ وهي أصل كلّ هذا السكوت.

والسكتة داءٌ غادرٌ يا غزَّة. أصاب دماغ أغلى الصديقات من القدس. سكتت بيان نويهض الحوت قبل شهور. سقطت يدها في شللٍ أبديّ. ونجت يدها التي كتبت أكثر من خمسمئة صفحةٍ عن تاريخ فلسطين. يدها التي وثّقت بها تفاصيل مجزرة صبرا وشاتيلا على لسان الناجين وشهود عيان. أذكر يوم قرأت الكتاب تمنَّيت أن أطمر نفسي خجلًا من وطني. «مجزرة القرن» سمِّيت. الكتاب على الرفّ لم أفتحه من سنوات، علَّني أنسى امرأةً اسمها أملُ أدخلوا السكّين في بطنها وأخرجوا منه الجنين وهم يضحكون. سقطت أملُ على الأرض رمَوا الجنين إلى جانبها بعدما تأكَّدوا أنَّه مات. لم تصدمني هذه الكلمات كمن يكتشف لأوَّل مرَّةٍ وحشيَّة عدوّ، بل صدمني خيالي في جنوحه إلى تمثيل المشهد بعنفٍ لا يستوعبه عقل.

عادت صورة أملَ ليلة انقطع عنك الإنترنت وغابت عنّا مشاهد القصف والمجازر، ورأيت خيالي يفرد عضلاته في بقر البطون وتقطيع الأطراف! الخيال لا يأتي بشيءٍ من فراغ، يتعلَّم ويراكم ولدَيْه أرشيفٌ ينهل منه ليرتِّب الصور والأحداث ويعرضها في حلَّةٍ جديدة! كيف لا نحقد يا غزَّة على من لقَّح خيالنا بذاكرةٍ من الشرور؟ هل رأيتِ تلك الأقدام الستّة المرصوفة جنبًا إلى جنب؟ تخيَّلتك تقفين ويداك على خصرك وتتساءلين: كيف نرفع السقف الذي وقع على أجسادهم؟ ما زال هذا المشهد يطاردني، وخيالي يرسمك تقتربين من الأقدام وتتفحَّصين الأحذية أو ما تبقّى منها، وتلمسين الجوارب الممزَّقة على ساقٍ لم ينبت وبرها بعد. لن يطول الوقت لتعرفي لمن هذه الأقدام. قد تتذكَّرينها وهي تعدو في الحيّ وتركل المطر... قد تسطو عليك صورة الوجوه وانسحاق الرؤوس وتمزّق الصدور تحت الركام... قد تهجسين بما فكَّر أصحاب تلك الأقدام قبل قصفهم بصاروخ. وماذا عن الذين بقوا أحياءً تحت الركام ولم يصل إليهم أحد... منشوراتٌ كثيرةٌ استلهمت من الخيال لحظات انتظارهم، عطشهم جوعهم دعاءهم، وذكرياتهم عن حياة ما قبل الطوفان، وتخيَّلوا أحلامًا جديدةً تنمو لهم وسط الظلام والرماد والوحشة.

بغياب الصورة والنقل المباشر تتضخّمين في خيالنا. تتغلغلين في مسامّنا في ثيابنا في أنفاسنا. نسأل أحدهم: كيف حالك؟ يقول: غزَّة. ماذا تفعل؟ يقول: غزَّة. بماذا تفكّر؟ يقول: غزَّة. بأيِّ خفَّةٍ تطيرين إلى حضننا كأنَّنا خيمتك ونحن في صقيع العجز وعراء الخيبة لن ننجو لا من الذاكرة ولا من الخيال.

بعد أيَّامٍ وشهورٍ سيقول كثر: «من مات نجا». ولكن من الذي مات حقًّا؟

قاسيةٌ النهايات المتردِّدة يا غزَّة. موجعةٌ الحياة المعلَّقة على قدمٍ وساقٍ سبقا الروح إلى برزخ النعيم. أسأل عن بيان ابنتها حنين: هل تتابع أحداث غزَّة؟ وأتخيَّلها تحلِّل وتفنِّد وتربط العلَّة بالمعلول. ويعلو في قلبي شوقي إليها وهي تتكلَّم. آخر صوتٍ لها في رسائل هاتفي ختم نهاية الربيع. أكرّ الصوت لأداوي شوقي إلى حواراتٍ كان آخرها عزائي لها بفقد سلمى خضرا الجيوسي، قريبتها وعرّابة الطريق التي نصحتها ذات مراهقةٍ بترك الشعر لتدوين تاريخ فلسطين. أبحث عن لقاءاتٍ تلفزيونيَّةٍ معها وأراها تقول في إحداها: «كانت أمنية حياتي أن أنضمّ إلى حركةٍ أو حزب عز الدين القسّام، سمِّها ما شئت!»

لم أكن أعلم عن هذه الأمنيَّة شيئًا. ولم أعرف بيانَ شابَّة. صعبٌ عليَّ تخيُّلها في عمر الفتوَّة. كأنَّها كانت طوال عمرها هكذا مع تلك الحدبة التي لم تمنعها من رفع رأسها. حدبةٌ سببها ربّما الانكباب على الكتابة بدل حمل البندقيّة. لم أعرف ما الذي منعها من الانضمام إلى القسّام، لكنَّ «فلسطين: القضيّة. الشعب. الحضارة» كتابٌ استغرق منها سنواتٍ وأصبح يُدرَّس في جامعات فلسطين. ما فائدة الكتب إذا لم يقرأها إلَّا الفلسطينيُّون؟

تروي لي صديقةٌ تعنى بالنشر أنَّ أكثر الكتب مبيعًا اليوم هي تلك التي تتناول فلسطين وغزَّة! وأخشى عليك من مرض الترند والرواج العابر! لكن هذا ليس موضوعنا الآن. لنعُدْ إلى الأمنيّات. أليس أجمل ما فيها أنَّها سخيَّةٌ في السبل إلى تحقيقها، باذخةٌ في خيارات تجسيدها، وصادمةٌ في احتمالات تجلّيها على غفلةٍ منَّا أحيانًا؟ تعرفين ذلك جيِّدًا. فأنت مفتاح الأمنية الكبرى: تحرير فلسطين. فتحت كلّ السبل وكلّ الخيارات وكلّ الاحتمالات لتحقيقها. أمنياتك سطت على الخيال

ومحت تشوُّهاته. قولي لي كيف رسم خيالك مجرى الطوفان ونهايته؟ هل من خلاصٍ أخير؟ نصرٌ أم استشهادٌ تقولين. تعالي نتخيَّل معًا النصر. التخيُّل ترفُ الآن تقولين، فالمعركة في أوَّلها. من نفق، من مستشفى، من مدرسة، من مخيَّم، من الشمال من الوسط من الجنوب، تحاربين لأجل أمنيَّاتنا وبالنيابة عنَّا جميعًا، نحن المصابون بالسكتة بعد الصدمة، الغارقون في فضاء الأمِّيَّة الطوعيَّة والذاكرة المسحوقة والخيال المهزوم مع نسلٍ افتراضيٍّ تمرّس المشاهدة بلا فهم، والاستماع بلا نقد، واستهلاك المعلومات بلا بحثٍ وتقصّ.

«كيف لمن يرى بندقيّةً معلَّقةً على حائطٍ في فصلٍ مسرحيٍّ أوَّل، ألَّا يتوقَّع انطلاق الرصاص في الفصل الثالث»؟ هذه «لؤلؤة المنطق» التي اصطادها تشيخوف! فكيف سقط الفصل الأوَّل من مسرحيَّتهم وشاع العمى عن بندقيّةٍ رُفعت في وجهك منذ وعد بلفور، وعن حروبٍ شُنَّت عليك منذ دحرتِ الاحتلال، وعن محتلٍّ يحاصرك منذ سبعة عشر عامًا وعن مستوطناتٍ في أرض فلسطين المنهوبة، وعن تنكيلٍ بأهلك وعن أسر أطفالك وعن اغتيال أبطالك؟

قالها مريد البرغوتي: «من السَّهل طمس الحقيقة بحيلةٍ لغويَّةٍ بسيطة: ابدأ حكايتك من ثانيًا (...) حتّى ينقلب العالم». لكنّ هذه الحيلة وحدها لا تكفي لتبرير جزّ العشب. فعلى العقول أن تُجَزّ هي أيضًا، لتتلقّف الرواية من سطرها الثاني وتكرِّرها بمهارةٍ لا تقارب ذكاء ببّغاء.

كيف تتوقَّعين أن يناصروك يا غزَّة وأنت لا تلائمين كتالوغ العالم الجديد! سمراء بوجهٍ متغضّن، عيناك جيوب قهر، أسنانك عليلة، لا

غنج في صوتك ولا إغواء، رأسك أعند من صخرٍ وعلى شفتَيْك تكبيرٌ ودعاء...

لا تليقين بالعصر الأملس، المقاوم للضرر، عصر القلوب المرتطمة بلا أذى. عصر الإقطاع الرقميّ يوزِّعون علينا أراضيَ افتراضيَّةً لنحرثها كما نشاء مجّانًا وليجنوا هم حصاد حماقاتنا. عصر التعبير عن الإعجاب لاستدامة التواصل!

لا تليقين. لا تليقين. فأنت غزَّة النفوض، تتدثَّرين ثوب الصلاة وتَهَبين أطفالك للموت وتُحمدلين، وتحفظين حبل السرَّة «ميراثَ دمٍ وسلاحٍ» لطقس عبور الأجيال من عيون الأنفاق.

لماذا لا ترتمين في حضن التنوير الجديد يا غزَّة؟ ها؟ لماذا؟ ارمي «لؤلؤة المنطق» وليبتلعها بحرُك، وأَقْسمي أنّ لا فصل أوَّل ولا بندقيّة ولا من يحزنون.

غادري موكب الشهداء وأعلني ولاءك للتغيير المستدام. ها هو مشعل البناء على بابك مرفوع، احمليه واخرجي من الأنفاق وانطحي السحاب. انفضي عنك أطلال الخراب. تأنَّقي وتبرَّجي وتصَابَي وتغَنْدَري ليأخذك العالم في الأحضان. نادي المستقبل في انتظارك، لك فيه بطاقةُ عضويَّةٍ فخريَّةٌ تلزمك فقط نسيان الماضي إلى الأبد. اصفحي وصافحي، فهذا زمن القبول. ارمي السلاح يا غزَّة واسترخي على كرسيّك المحجوز في محفل الترقّي ليُقام لك طقس العبور من الظلمات إلى النور.

أراك تلاحقين كلماتي متأبّطةً حذاءك. هل سترمينه في وجهي؟ وَشَرَفي أستحقّ، ومعي كلّ من ينصحك بالمِثل في السرّ والعلن، ومعي

كلّ من يدغدغه العتب عليك وهو يحملق في شاشته الآن غير مصدِّقٍ أنَّ في القرن الحادي والعشرين يُقصف مستشفى، وتُدمَّر كنيسة، وتُحرق مدرسة، ويمزَّق طفلٌ وتُجهَض حامل!

كان ينقص العاتبين عليك أن يقولوا: لماذا لم تبن غزَّة مدنًا ذكيَّةً بأنظمة أمانٍ واستشعارٍ للمخاطر لحفظ السلامة العامّة!

ارحمي النيّات الحسنة يا غزَّة، فثمَّة من يخاف عليك من بطش عدوٍّ ليس «أحلَمَ الناس عند فتنة» ولا «أسرعهم إفاقةً عند مصيبة». أنت أكثر العالمين أنَّ تعظيم إرهاب العدوّ يوازي في خطره الاستهانة به.

البعض كان أكثر تواضعًا في عتابه: لماذا لم تجهّزي ملاجئ تحمي أهلك من الصواريخ مثلما فعل العدوّ؟ وكيف استطعت حفر متاهةٍ من الأنفاق ولم تحسني بناء ملجإٍ لنصف سكّانك؟! وكأنَّ «حارس الأسوار» يبيح لك إدخال الموادّ الخاصّة لإنشاء الملاجئ، وتوفير أنظمةٍ لتنقية الهواء والحماية من الموادّ الكيميائيّة التي قد تتسرَّب من الصواريخ، أو صفّارات إنذارٍ للتحذير من قصفٍ وشيك! أو كأنَّ الصواريخ عاجزةٌ عن اختراق أقوى الخلطات الخرسانيّة لتحوّل الملاجئ إلى مقابر جماعيَّة!

اعذريهم يا غزَّة. لا تقرصي ذاكرتهم الطريَّة الملساء. مرّت سنواتٌ على مجزرة ملجأ العامرية في العراق. صفحةٌ وطويت على أكثر من أربعمئة طفلٍ وامرأةٍ احترقوا في ملجأٍ محصَّنٍ ضدّ الصواريخ وضدّ الإشعاع الذرّيّ والنوويّ.

اعذريهم. لا تُشهري في وجوههم تقرير وحدة مكافحة الأنفاق الصهيونيَّة في أكتوبر 2013. هم لا يحبُّون الأنفاق أصلًا. يعشقون الشمس والهواء والفرفشة. ما لهم والنفق العجيب الممتدّ من قرية

عبسان شرق خان يونس حتّى مستوطنة العين الثالثة. ما همّ لو اخترق النفق الأراضيَ المحتلَّة مسافةَ نصف كيلومتر. وامتدَّ تحت أرضك مسافة كيلومترين، وتجاوز عمقه عشرين مترًا تحت الأرض. عشرون مترًا يا غزَّة كيف سيقيسونها من عليائهم في ناطحات السحاب؟ يقال إنَّها تعادل مبنى من خمس طبقات! المهندسون الصهاينة مسحوا المكان ليفهموا كيف تمكَّن رجالك من شقّ هذه الكيلومترات على غفلةٍ من المجسَّات الأمنيَّة والطائرات بدون طيّار. قالوا في تقاريرهم إنَّ إنشاء نفقٍ عرضُهُ مترٌ وعشرون سنتيمترًا، وارتفاعه متران وعشرون سنتيمترًا يتطلَّب استخراج ترابٍ ورملٍ وحجارةٍ من تحت الأرض «يصل حجمها الإجماليّ إلى ستّة آلافٍ وستّمئة مترٍ مكعَّب». هذه الكمّيَّة التي أخرجها مقاوموك من النفق تعادل ملء ثلاثمئةٍ وخمسٍ وستّين شاحنةً من الحجم الكبير. ولأنَّه ممنوع عليك استعمال الشاحنات، لجأت إلى ملء ستّمئةٍ وستّين ألف دلوٍ لإنشاء النفق. ولأنَّ مدخل النفق بعيدٌ جدًّا من جهة خان يونس، كان على رجالك أن يحملوا على أكتافهم، بواسطة آلةٍ ميكانيكيَّة، عشرة دلاءٍ معبَّأة، يمضون بها ثمّ يعودون. ويُقال إنَّ إجماليّ المسافات التي قُطعت لحمل الرمال وإخراجها من النفق تعادل 165 ألف كيلومتر. تمرينٌ يكفي لتكسير جدران الخلايا الدهنيَّة في آلاف الكروش والأرداف وبلا جميلة الليزر!

لن يحتملوا أن يتابعوا تقاريرك عن أسرار بناء الأنفاق وهم يعتلون أجهزة المشي الإلكترونيَّة، يكدّون ويعرقون لبلوغ الرشاقة المثاليَّة، ويسمعونك تقولين: ممنوعٌ على حفَّاري الأنفاق التعرُّق أثناء الحفر كي لا تنهار رمال النفق! ممنوعٌ التعرُّق أيْ ممنوعٌ شرب الماء! يا للهول! شرب الماء مقدَّسٌ عند خبراء التغذية!

الحفَّارات الكهربائيَّة ممنوعةٌ أيضًا فضجيجها يفضح مكيدتك. سلاسل الدرّاجات الهوائيَّة هي الحلّ تقولين. ورجالك يستلقون على ظهورهم ليحرّكوا الدعّاسات بأقدامهم فتحفر السلاسل الأرض.

تتوالى حكايات الأنفاق. القلوب الحمراء تتجمَّع فوقها. «احتاجوا إلى خمسة عشر ألف بلاطةٍ خرسانيَّةٍ لحماية جدران النفق من الانهيار. كان على مقاومَيْن اثنَيْن حمل بلاطةٍ تزنُ مئة كيلوغرامٍ والعبور بها في الممرَّات الضيِّقة وصولًا إلى تثبيتها في موضعها. ولنقل هذه الكمِّيَّة الضخمة من البلاط، قطع الرجال مسافة ثمانية عشر ألف كيلومتر! مذ اكتشف الصهاينة الأمر منعوا إدخال البلاطات الخرسانيَّة إلى غزَّة، فما كان من الشباب إلَّا استخدام الخشب في أثاث البيوت ليكون بديلًا عن البلاط فوق جدران الأنفاق. كما حرصوا على أن يكون ارتفاع السقف وعرضه ملائمًا للعبور بأسلحتهم من دون أن يحنوا رؤوسهم!»

مرهقةٌ تفاصيل بناء الأنفاق. ما لهم ولهذا الصداع. فما هكذا تكون الحياة الحديثة والعصريَّة يا غزَّة!

اشفعي لأصحاب النيَّات الحسنة جهلهم بكلّ هذا الإنجاز. لا تدَعي عتابهم ينغل في قلبك. أتمنَّى أن تكوني مشغولةً بمعركتك الآن فلا تسمعين اتِّهامك بالتواطؤ مع العدوّ على قتلك! وإن سمعت أتمنَّى ألا تبالي أبدًا. فهؤلاء يا غزَّة، سئموا ذاكرة الموت. تحرير فلسطين؟ سذاجةُ حلمٍ انتهى، «فلسطين بيعت وضاعت..» باذخون هم، في استدراج السعادة إلى حياتهم وفي الهرولة إليها حيثما كانت. عرقلت السَّيْر يا غزَّة! الآن علقوا في الازدحام. التصقت أيدي مغبّرةٌ بنوافذ سيَّاراتهم. راحت تقرع بقوَّةٍ على الزجاج. أنزلوا الشبّاك نصف سنتيمتر.

ناولوا الأيدي ثمن شربة ماء، ثمّ رفعوا الزجاج وأطلقوا زمّور الاستياء من طول الازدحام.

زلزلت سكينتهم يا غزَّة. قرعت أبوابهم بضجيج بؤسك! طوفانك أطاح بملاذاتهم الآمنة.

ها هم يطفئون هواتفهم ويخرجون لفسحةٍ تردّ لهم شهيَّة الاشتهاء، فيما أعداؤك يُخرجون أحشاء تاريخهم ويتجشّؤون تراثهم مذ حوَّلوك مأوى للمنكوبين. يومها لم يكن التلفزيون في كلِّ بيتٍ لكنَّ الشهود كانوا أكثر ممَّا تحفظه الكتب. وبعض الشهود كانوا هم أنفسهم الجناة، رَووا بكلِّ فخرٍ كيف بقروا بطون النساء وكيف باعوا الأطفال وكم شيخًا أحرقوا في الأفران! ها هي تلك الشهادات تُنكَش من خزائن الذاكرة وتُنشر أمام الملأ. وها هي كتبٌ تتصدَّر المنشورات، يا شعوب الغرب اقرؤوا ويا عرب تذكَّروا ما حدث من أوَّل حربٍ كبرى إلى النكبة وما تلاها من نكسات!

تخيَّلي أنَّ غالبيَّة المنشورات كانت لمؤرِّخين ومفكِّرين يهود. فالفلسطينيّ «منحازٌ بالضرورة ولعلَّه من حماس»! أمَّا نورمان فلكنشتاين وإيلان بابيه وآفي شلايم وياكوف رابكين وغيرهم... فهؤلاء يهودٌ معادون للصهيونيَّة. نستلّ منهم جملةً واحدةً تعيد النصاب إلى مقامه: «اليهود عاشوا في انسجامٍ مع العرب والحركة الصهيونيَّة هجَّرتهم ليحلُّوا محلّ الفلسطينيِّين». هؤلاء فضحوا خرافات إسرائيل وتاريخ التطهير العرقيّ في فلسطين، وغالبيَّتهم مَنَحتكِ حقّ الدفاع عن نفسك بالمقاومة المسلَّحة، كما جاء في القانون الدوليّ!

متابعون غربيون راحوا يتداولون أقوالهم وعناوين كتبهم. مدوِّنون بدؤوا يعترفون أنَّهم كانوا جهلةً معجبين بديمقراطيَّة «إسرائيل» ولا

يعلمون شيئًا عن فلسطين. الهوى بدأ يتغيَّر. ببطء... ببطء... بدأت تتزعزع أركان معبد إسرائيل في وجدان الجمهور الغربيّ.

وينقطع المشهد على خبرٍ عاجل: أمريكيٌّ يقتل طفلًا فلسطينيًا بستٍّ وعشرين طعنةً ويصيب والدته بجروح! المسنّ القاتل يبلغ من العمر 71 عامًا ارتكب جريمة كراهيةٍ وسرعان ما قيل إنَّه مختلّ! في اليوم نفسه أطلّ من عندك جمال الدرة، ليحكي عن استشهاد أخويه نائل وزياد وابنته الوحيدة. وتكرّين روزنامتك لتمسكي بورقة 30 سبتمبر 2000 لا لتقرئي لنا طرفةً كُتبت خلفها، بل لترينا صورة محمّد الدرة في حضن أبيه مقتولًا.

ما أطول عمر القاتل وما أصغر قتلاه! ثلاثةٌ وعشرون عامًا تخرج بطبعةٍ جديدةٍ وحبرٍ طازجٍ يسيل دمًا من ستٍّ وعشرين طعنة.

ليس الظلم ما يثير الغضب يا غزَّة، بل وقاحته. لم تَعُدِ العاهرة تحاضر بالعفَّة، بل تجاهر بكلِّ دوافعها لامتهان البغاء! الوقاحة بذريعة الشفافيَّة. الفجاجة بذريعة الصراحة. الفضيحة بذريعة الواقعيَّة. تلك الفجاجة نفسها تتجلَّى الآن في تبرير قتل الأطفال والنساء على مرأى من العالم بذريعة «لكلّ مثيرٍ استجابة». الطفل المسلم الفلسطينيّ وديع الفيومي أثار العجوز «المختلّ» فاستجاب بطعنه. وأنتِ أثرتِ الكيان فاستجاب بإبادتك. هكذا بكلِّ بساطة.

من سحب فيش الكهرباء عن الذاكرة؟ قبل أشهرٍ قليلةٍ كان التعنيف اللفظيّ محرّمًا مع الأطفال والنساء، وكان مرتكبوه يُدانون ويُحاكمون ويُسجنون. لم يَعُد أحدٌ يجرؤ على توجيه ملاحظةٍ لطفله. رُفعت شعارات احترام شخصيَّة الطفل ومنحه حريَّة التعبير. العقاب

بات محرَّمًا أيضًا. حتّى لو ارتكب الطفل جريمة قتل، كان الدافع يُقدَّس ويُشدَّد عليه، وعليه تُبنى مرافعاتٌ عمادها علم النفس السلوكيّ.

لكلِّ مثيرٍ استجابة. وأنت أكثر العالمين! من يبتر أطراف أطفالك الآن يبتر أيضًا دافعك إلى التحرُّر. ويبتر توقك إلى حياةٍ بلا حصار. ويبتر حقّك في التسلُّح لمقاومة محتلٍّ مختلّ. وتُبتر صور أطفالك من سياق الدَّعم الغربيّ لحقّ الكيان في الدِّفاع عن وجوده.

لا يتساوى الطفل الفلسطينيّ مع أيِّ طفلٍ آخر. ولا تتساوى المرأة الفلسطينيَّة مع أيَّة امرأةٍ بيضاء في العالم. النسويَّة الغربيَّة لا تبالي بخمسين ألف امرأةٍ ستلد تحت القصف. تهديداتٌ بالتوغّل البرّيّ. إنذاراتٌ بإخلاء البلدات والنزوح إلى مناطق آمنةٍ في الجنوب. لا أحد يعترض. وأنت تصرخين: «لكثرة ما حملت النعوش صارت كتفي مقبرة».

هل ظننتِ مثلنا أنَّ الفضاء المفتوح الآن، والعدسة القريبة جدًّا، وجرس التنبيهات الذي يرنّ في كلِّ الهواتف، ستوقظ أحدًا من سباته القهريّ؟! الكلّ سمع عصف الصاروخ وشاهد الحرائق من خلف السور الحديديّ لباحة مستشفى المعمداني. «يا اللّه» صرخت الحناجر! السماء مطبقةٌ بالعتم والرماد والنيران تلتهب. صفّارات الإسعاف تعلو وأفواج الإطفاء تعبر ووائل الدحدوح يتقدَّم: «صعبٌ أن نجد أجسادًا كاملة» يقول وعيناه تلاحقان قدمَيْه. لا يعلم إذا كان يدوس على أشلاء ناسٍ أو بقايا ملابس. امرأة تولول: «راس ابني طار على غصن شجرة». أطفالٌ قطعت أقدامهم ينادون رجلًا ليحملهم، ووائل ينبّه المصوِّر: «عن بُعد يا حمدان... عن بعد لو سمحت... المَشاهد لا تُحتمل».

المشاهد لا تُحتمَل أيضًا في اليوم التالي. أشرقت الشمس على الدماء. وخرج أهْلُكِ حاملين الأكياس لجمع أشلاء عوائلهم. هنا ذراعٌ وهنا أمعاءٌ وهنا حذاءٌ بلا قدم. هنا دبدوبٌ مدمًّى وهنا كرّاسةٌ محترقةٌ وأصابع فوق دفتر تلوين. أطفالٌ كانوا يغنُّون في باحة المستشفى ماتوا جميعهم وبعضهم بُترت أطرافهم. العدَّاد يسجِّل أكثر من 500 شهيد! غسّان أبو ستة يؤكِّد: «عدد المصابين فاق عدد الأسرَّة. جيش الاحتلال كان يهدِّد المشفى لعشرة أيَّامٍ ولم يردعه العالم. وإذا لم يرتدع سيستهدف مستشفيَّاتٍ أخرى».

أبو ستة المتخصِّص بالجراحة الترميميَّة عاد إليك متذكِّرًا بقايا بيت جدّه المدمَّر. مثلك تمرّس في التعامل مع البقايا. فالبيت يرمَّم، والحجارة تُرصف من جديد، والتشوُّهات تُمحى والحروق تُداوى. ومنك تعلّم: «إمّا أن تقتلع شوكك بأسنانك وإمّا أن تبقى تحت الحصار والاحتلال إلى ما لا نهاية».

منذ أن قصفك الإنكليز بغاز الخردل في نيسان 1917 حتّى قصف تلاميذهم الجدد لمبانيك بالفوسفور الأبيض، وأنت تقتلعين شوكك بأسنانك. ونشبت لك مخالب لتحفري الصخر وتذيبي الحديد. هذا جزاؤك الآن. لا مجلس الأمن ولا الجمعيَّة العامَّة للأمم المتحدة سيهتزّان على مشاهد أشلائك في المعمداني ولا على قصف المبنى الملحق بإحدى أقدم كنائس العالم، ولا على التَّهديد المتواصل للمستشفيات وإنذارها بالقصف.

وستُحجب الصور والمشاهد للقصف المباشر على طواقم الدِّفاع المدنيّ وسيَّاراتهم. وستُحجب شهادات الأطبَّاء عن الجروح الأشبه

«بسكاكين انفجرت في الجموع وقطّعت أجسادهم وأطرافهم»، وستُحجب مشاهد رؤوس أطفالك فوق مباني المستشفى، فقد تكون «مزعجةً للبعض».

قلنا لن يمرّ اليوم الحادي عشر من العدوان كباقي الأيَّام. بالمناسبة، أتعلمين كم يومًا من الأيَّام العالميَّة تحوي قائمة الأمم المتَّحدة؟ يوم السلام العالميّ، ويوم الأرض، ويوم القضاء على الفقر، واليوم الدوليّ للتضامن الإنسانيّ، واليوم الدوليّ للسكَّان الأصليِّين، واليوم العالميّ لضحايا العدوان من الأطفال الأبرياء، واليوم العالميّ للاجئين، واليوم العالميّ للضمير. هل أُكمل؟! أم أتركك الآن مع لفّ الأكفان في متحف الأشلاء الجديد!

قلنا جريمة المعمداني هي النهاية. جريمةٌ كاملة المواصفات تبثّ مباشرةً على الهواء ولا تترك مجالًا لأيّ لبس. لكن لا. سيقولون: رجالك هم من أسقطوا الصاروخ. دوَّامة جديدةٌ من التزييف. هبّت جنين والقدس وكلّ الضفَّة لنصرتك. أُعلن النفير العامّ والإضراب الشامل.

أنا أيضًا أعلنت النفير العامّ. كسرت عصياني عن مواقع التواصل الاجتماعيّ. مش هينة! سأفتح صفحتي للجميع وسأنشر وأدين وأشجب وأستنكر. لا تستهيني بي. سأكتب عنك طوال اليوم وسأمحو بكلّ ما أوتيت من لغاتٍ أيّ بقعةٍ تلوّث طوفانك النقيّ. ورغم جهلي بتقنيّات النشر الرقميّ ورغم افتقادي لعدد المتابعين الضامن لانتشار «واسع النطاق»، كتبت هذه التحفة. هيا اقرئي.

«لماذا نحتاج إلى كلّ هذا الجهد لندين ونستنكر المتآمرين مع الصهاينة على سفك الدم الفلسطينيّ؟

لماذا... والمسألة واضحةٌ منذ 75 سنة. والوقائع موثَّقةٌ في كلِّ تقريرٍ وخبر، في كلِّ دراسةٍ وبحثٍ أكاديميّ، في كلِّ روايةٍ وقصيدة، في كلِّ ذاكرةٍ عربيَّةٍ ووجدانٍ حرّ. لماذا نبذل كلّ هذا الجهد لاستلال موقفٍ مناصرٍ لنا من شخصيَّةٍ غربيَّةٍ شهيرةٍ أو سياسيٍّ غربيّ «متنوِّر»؟ ألأنَّهم أقنعونا أنَّنا ضعفاء؟ تجرَّعنا هذا السمّ نقطةً نقطةً وصدَّقنا أنّ «ثوراتنا الربيعيَّة» ستجعلنا، مثلهم، مسوخ أحرار.

في 7 أكتوبر 2023 جنَّ جنون الصهاينة والغرب الاستعماريّ ومن لفَّ لفَّهم من المنبطحين، لأنَّ مقاومةً باسلةً غافلتهم وغزت عقر «دراهم» التي اغتصبوها، والتي منها يخطِّطون لتغيير خارطة الأرض العربيَّة ومحو هويَّتنا وتاريخنا.

هم الغزاة، فكيف يجرؤ أحدٌ على غزوهم؟ لا بدَّ أنَّه «شيطانٌ مسلمٌ إرهابيّ»؟ كلّ ما يعرفونه عن أنفسهم يبصقونه في وجهنا.

ونحن نحتاج في كلِّ مرَّةٍ إلى الصراخ حتّى السماء لردّ هذا الاتِّهام إليهم. ودوَّامة الدم مستمرَّةٌ من فلسطين إلى العراق وليبيا واليمن وسوريا ولبنان لنحر عنق الكرامة المتمرِّدة. أتظنُّون أنَّهم لا يعلمون ماذا يفعلون؟ أتظنُّون أنَّ «الرأي العامّ الغربيّ» الذي يصدِّر لنا كلَّ يومٍ دروسًا وحكمًا عن «احترام الآخر والحيوانات الأليفة وذوي الجنس الملتبس والنساء العاريات من كلِّ شرف»، لا يعلم أنَّ حكَّامه يريدونه داعمًا وشريكًا لإبادة كلّ شبحٍ عربيٍّ حرٍّ من طغيانهم؟ ماذا نفعل؟ وكيف نمارس حقَّنا في الحياة كما يمارسون «حقَّهم» في قتلنا؟ جوهر صراعنا معهم هو هنا بالتَّحديد: في مفهومي الحياة والموت. أيُّ حياةٍ نريدها نحن؟ وأيُّ حياةٍ يفرضونها هم علينا؟ يريدوننا أن نُستعَمر

وننسى قيمة الحرّيّة، وأن نُستضعف ولا نعي قيمة الكرامة، وأن نُظلم ولا نرفع السلاح.

أجل، نحتاج إلى كلّ هذا الجهد لفضح إجرامهم مهما كانت الدعاية المضادّة طاغية. نحتاج إلى كلّ هذا الجهد كي لا نبكي ونلطم ونستصغر أنفسنا، فالهزيمة من الداخل أفظع من كلّ الخسارات. «المقاومة جدوى مستمرّة» وسنموت كثيرًا قبل أن تحيا فلسطين كما تريد، «راكعةً فقط أمام اللّـه وقبور شهدائها».

ما رأيك؟ قويّة صح؟ احتفظت بالمنشور خصّيصًا لك قبل أن يغيب في العاصفة الرقميّة. وأكملت يومي في نشوةٍ من كلامٍ يُنصفك. لا تتوقّعي منّي أكثر من ذلك. أن أحزم حقيبتي وأعتصم أمام معبر رفح، مثلًا؟ أو أدجّج صدري بالمتفجّرات وأقصد أقرب سفارةٍ صهيونيّة؟ تتفهّمين حتمًا أنّي لست أهلًا لكلّ هذه البطولات القاتلة. ولا أعلم إن كنت قادرةً على ذلك، جينيًّا بالحدّ الأدنى. لم أفكّر. ثمّ إنّي في الحقيقة أثق بك ومتّكلةٌ عليك بالكامل.

أعرف كم يكره الفلسطينيُّون المتّكلين على سواهم لينوبوا عنهم في الجهد. أخبرني آدم كيف يرمى بسهام العار الإنسان الكسول المتّكل على أخٍ وأبٍ وجارٍ وصديقٍ وزوج. لا الأمّيّ ولا حتى المقامر أو الصعلوك أو المعتوه يوصَم بالخزي أكثر من المتّكل على غيره أو على غير الرّفيق الأعلى. ونحن متّكلون عليك يا رفيقة. حدّدت ساعة البهاء. التاسعة بعد مجزرة المعمداني، قصفتِ أسدود وعسقلان وتل أبيب.

كلّ المتّكلين عليك ندّدوا بمجزرة المعمداني وشجبوا واستنكروا وخرجوا في تظاهراتٍ غاضبة. زحف أهل مخيّمات فلسطين في لبنان

واقتربوا من صبرا وشاتيلا، فهنا متحفٌ أقدم للأشلاء.... وخرجت تونس لتطرد السفير الفرنسيّ الدَّاعم لإسرائيل. وخرج الليبيُّون صوب سفارة إيطاليا، وفي مصراتة تجمهر المئات بالقربِ من قاعدة الكلّيَّة الجويَّة مطالبين بطرد القوات الإيطاليَّة من البلاد... وخافت أميركا على دبلوماسيِّيها في لبنان وخافت إسرائيل على رعاياها في تركيا. أمَّا النشامى فاقتحموا سفارة الاحتلال في عمّان وتعلمين من وقف في وجههم! لا قمّة رباعيَّة قال الأردن. لن يستقبلوا بايدن. كوَّع الخرِف إلى «إسرائيل» وعبَّر عن حزنه وغضبه وطمأن ابنه العاقّ: «يبدو أنَّ الجانب الآخر وراء الانفجار وليس أنتم».

وبقيت تلملمين رؤوس أطفالك من أسطح المستشفى فيما يجمع العالم أشلاء الحكاية ويرصفها سطرًا سطرًا وتتداخل السطور وتتشابك على خلفيَّة خمسمئة شهيدٍ تناثروا في باحة المستشفى. وكان الحداد لثلاثة أيَّامٍ في غالبيَّة الدول العربيَّة.... الحداد يكفي الضمائر لتتصالح مع عجزها. الحصار منذ خمسةٍ وسبعين عامًا وعشرة أيّام... لا ممرّ لإدخال الموادّ اللّازمة لبقائك على قيد حياةٍ محسوبةٍ بالسعرات الحراريَّة. اهتراءٌ حتّى النخاع في المواقف. خزيٌ ليس سوى الوجه الآخر للسفاح الأصليّ.

مرّ اليوم الحادي عشر وتلته مجزرةٌ أخرى. وتوسَّمنا خيرًا فيها! تخيَّلي. توسَّمنا خيرًا بقصف إحدى أقدم الكنائس في العالم. قلنا إذا كان العدوان المتكرِّر على «أولى القبلتَيْن وثالث الحرمَيْن» لم يحرِّك رمشًا، فلا بدَّ أن يقرع بابا روما أجراس الفاتيكان الآن، ويطلّ من شرفته ويرفع كفَّه ليقول كفى، كنيسة القديس برفيريوس خطٌّ أحمر!

وقلنا: أوروبا كلُّها ستغرق في حزنٍ وتهرول لنصرة مسيحيِّي فلسطين وحماية الأماكن المقدَّسة! لكنَّ كنيسةً عن كنيسة «بتفرق»! أتذكرين يوم احترقت كنيسة نوتردام في باريس؟ قرأنا في الصحف أنَّ الفاتيكان «مصدوم» وألمانيا حزينةٌ وقلب بريطانيا احترق على تلك «الخسارة التي لا تعوَّض»!

أمَّا الحكومات العربيَّة فلم تقصِّر لا في التضامن ولا في التبرُّعات ولا في الحزن على «إحدى أعرق معالم الحضارة الأوروبيَّة»! كيف لا والكاتدرائيَّة رمز نضال الفرنسيِّين ضدّ الاحتلال النازيّ، فيها تقام القداديس والجنائز لعظماء فرنسا! ومنها استلهم هوغو رائعته «أحدب نوتردام» الشهيرة.

احتراقها كسر خاطر السيَّاح أيضًا، لن يروا بعد الآن جزءًا أصيلًا من هويّة فرنسا التاريخيَّة! لكن الحمد اللّـه، اطمأنَّ الغرب والشرق بأنَّ «إكليل الشوك» الذي وضعه الرومان على رأس السيِّد المسيح نجا، فأبطال الإطفاء أحاطوا خزانة الكاتدرائيَّة التي كان فيها، وحموها بأجسادهم.

ومع ذلك، لفَّ الحزن العالم وتدفَّقت برقيَّات المواساة إلى فرنسا، وجُنِّد خمسون محقِّقًا للبحث في أسباب الحريق! وليت القصَّة انتهت هنا. دعاوى قضائيَّةٌ رُفعت على حكومة فرنسا. «الإهمال كبير» قالوا. ذوبان أربعة آلاف طنٍّ من الرصاص داخل سقف الكاتدرائيَّة، خلَّف سمومًا في الهواء وعرَّض الأطفال لخطر التلوُّث! جمعيَّاتٌ حقوقيَّةٌ قالت إنَّ الحكومة لم تستجب لتحذيراتٍ بشأن المادّة السامَّة وهذا يرقى إلى مستوى جريمة تعريض حياة الآخرين للخطر.

هكذا تكون الحضارة. هواءٌ خالٍ من السموم.

في نيسان 2019 ألهبت كاتدرائيَّة باريس قلب العالم من مشرقه إلى مغربه. لكن ماذا حصل في نيسان 2002؟ هل أطبق «الدرع الواقي» على قلب العالم وقطع عنه الأوكسجين؟ لم يرقّ قلب أحدٍ ولم يحزن أحدٌ عندما حاصرت دبّابات الاحتلال كنيسة المهد في بيت لحم. تسعةٌ وثلاثون يومًا من القصف والقتل والتجويع! تعفَّنت الجثث، ونزف أطفالٌ وشيوخٌ ونساء، وجثم الرهبان والراهبات للصلاة في أقبية القدّيسين! استغرق الأمر شهرًا ليتَّفق المفاوضون على نفي «المخرّبين» إلى أرضك وإلى دولٍ أوروبيَّةٍ وحُرِّمت عليهم العودة إلى ذويهم في الضفَّة! لا إكليل شوكٍ في كنيسة المهد، بل المسيح كلّه بنشأته ولجوئه، ومن المذود إلى الكفن!

الآن، مع مشاهد المجزرة في كنيستك العريقة، تطلع الدَّهشة من أصوات البعض: «لم نعلم أنَّ في غزَّة مسيحيِّين!»

ماذا نقول يا غزَّة. ردِّدي معي: لا إله إلَّا اللّـه!

حصاد مجزرة الكنيسة: ثمانية عشر شهيدًا وخمسة عشر مفقودًا، وعشرات الجرحى. الضحايا من عائلةٍ واحدة، كانوا ينامون بجوار بعضهم البعض، ومسعفٌ يقول: «عندما نجد جثَّة فردٍ واحدٍ نعرف أنَّنا اقتربنا من إيجاد بقيّة أفراد العائلة لأنَّ الناس هنا يحتضنون بعضهم بعضًا أثناء القصف».

نازحون ظنُّوا الكنيسة مكانًا آمنًا. بأمرٍ من الاحتلال نزح كثرٌ من الشمال إلى المناطق الآمنة، فقُصفوا في الطريق. ولا قرار بوقف إطلاق النار. قالوا: «شئتِ غمرنا بطوفانك يا غزَّة؟ فلتغرقي به دوننا»!

قلتِ: «أرضي مقبرة الغزاة». فقالوا: أرضك متحفٌ للنكبة! عواميده من أطراف أهْلِكِ المبتورة، سقفه مرصوفٌ برؤوس أطفالك، وعلى عتباته أشجارك المحترقة.

سيعلو هذا المتحف ويحظى بشهرةٍ عالميَّة. هم لا يعلمون أنَّ شهرته ستفوق شهرة مئتي متحف «قوميّ» بنوه لتخليد إرثهم الاستيطانيّ، وتعزيز الانتماء إلى الذاكرة الجماعيَّة وغرس قيم «الوفاء والتضحية ورفقة السلاح»، والإيمان بأنَّ الحرب «حالةٌ إنسانيَّةٌ دائمةٌ وأخلاقيَّة».

أتعلمين أنَّ هذه المتاحف أغلقت أبوابها منذ السابع من أكتوبر حدادًا على «ضحايا هجمتك البربريَّة»؟ الصحف كشفت انضمام موظَّفي أحد المتاحف للقتال لحماية الإرث من «نازيَّتك». أحد هؤلاء ربّما كبس زرّ ذلك الصاروخ الذي فتّت عائلة نعيم الهسي اليافويّ الأصل المولود في غزَّة. نجا عاشق الناي، فَعَلا نايُ صوته مبحوحًا: «منطلّع لحم مش عارفين مين أصحابه، أنا طول الليل أنادي على ابني: يااا صبح. أرنّ على جواله. ردّ عليّ يا با. روحي راحت. حياتي راحت من بعدو. طول الليل وطول النهار بفتِّش عليه. مسكوني الناس، فكَّروني مجنون. أنا مش مجنون. هذي داري وهان دم ابن ابني وهان دم ابن بنتي. الواحد لما يستشهد ابنه ويدفنه كامل، يعتزّ فيه. لكن لما يلم أشلاء مش عارف لمين، شو بيقول؟! واللّـه دفنت أشلاء، يمكن مش إلي».

ويمدّ نعيمٌ يده إلى الأرض ويغرف قائلًا: «نغسل وجوهنا بالدم. هيدا الدم شرف إلنا. بقول لأبناء حيّ الشاطئ ما تغلطوش الغلطة الثانية تبع أجدادنا. ضلكم صامدين، حتى لو ضل واحد عايش».

ويطلع «أبو هارون» الذي استشهد ولداه في قصف مستشفى المعمداني، كأنَّه يخاطب الهسي وسواه: تعيطش يا زلمه! أنت زلمي. كلُّنا مشاريع شهداء... مالكم يا عمّي؟! شدُّوا حيلكم. أرض جهاد هذه وأرض رباط وكلُّنا في سبيل اللّـه».

ونشدّ نحن حيلنا ونهتف: اصمدي يا غزَّة! ستتوالى المجازر ومعها قصص الصمود فوق أرضك وتحتها. لا نكبة ثانيةً كما يهدّدون. ولا متحف سوى لطوفانك الذي سيهزّ متاحف الهولوكوست في العالم. اصمدي يا غزَّة، أقول بلا خجلٍ من مقعدي الوثير، من بيتي المرفَّه بالكهرباء والماء والطعام على مدار الساعة والأيَّام. من سريري المريح قرب سجائري وقهوتي الساخنة. أتفاخر بصبرك وثباتك وأنا لم أصمد في وطني شهرَيْن بلا وظيفة، سهُلَت عليَّ هجرة ذكرياتي، وعلّقت حنيني على غصن صنوبر كما تعلّق أمّي زينة العيد لزياراتي القصيرة.

اصمدي يا غزَّة كي أعود.

«إيّاكم أن تنظروا إلى مراياكم
لأنَّكم لو فعلتم فسترَون دماءنا على وجوهكم
وأشلاءنا بأيديكم وصراخنا في ملامحكم
وأصواتنا دخانًا ينقش خارطة فلسطين على صدوركم».

أمل أبو عاصي

بين معصمي ومرفقي الأيسر، في تلك المساحة الناعمة من الذراع جرحٌ صغير. أمدُّ أصابعي وأخفيها تحت كمّي وأخدش بظفري القشرة اليابسة لندبةٍ بحجم حبَّة العدس. لا أعلم كيف تشكَّلت. أفرك وأحفر وأسلخ وأضغط وأسمع حفيف ظفري على الجرح وأشعر بلذَّةٍ غريبةٍ في نزع الجلد الميِّت. ينزّ الدم. أغادر الكنبة على مهلٍ بذريعة دخول الحمّام. هناك أخبِّئ قارورة الخلّ العضويّ. أفتحها وأدلق الخلّ على قطعة قطنٍ أمرّرها على الجرح. يشتعل جلدي. أكزّ على أسناني وصوتي يقول: ماذا تفعلين بنفسك؟ وأربّت على القطنة وأمرّرها على الجرح. لماذا لا يزول ذلك السواد المحيط بالندبة؟ أترك القطنة فوق

جلدي ليتشرّب الخلّ جيّدًا وييبس الجرح. أعود إلى الكنبة. ثوانٍ وأمدّ أصابعي من جديدٍ إلى ما تحت كمّي لأفرك الندبة وأخدشها وأنزع الجلد الميّت. ما الذي يثير فيَّ هذا السلوك القهريّ؟ أيُّ لذةٍ تثيرها متوالية الحفر والخدش والنزف؟ والسؤال الأهمّ ما الذي حوَّل نقطةً أصغر من أن ترى بالعين المجرَّدة إلى ندبةٍ بهذا الحجم؟ في الليل يتراكم السواد حولها وفي النهار ينزّ منها دمٌ فتيّ. متى تشكَّلت؟ ولماذا أمعنت في تكبيرها؟ ولماذا كلَّما حاولت تضميدها أعود لأفقأها من جديد؟

قبل سنواتٍ حدث الأمر نفسه في أعلى زندي الأيسر. كان يصعب عليّ فركه وحكّه بظفري. عالجتها بالخلّ وضعت ضمادةً عليها ونسيتها حتّى شُفيت. لماذا لا أضع ضمادةً على هذا الجرح فوق معصمي؟ سيسألني الناس عن سبب وجودها، وسيطول الشرح. الأفضل ارتداء قمصانٍ بأكمامٍ طويلةٍ وستمتدّ أصابعي خلسةً لأفقأ الندبة من جديدٍ على غفلةٍ من عيون الجميع... كلُّ ضمادةٍ وضعتها وأخفيتها بالكُمّ الطويل سرعان ما نزعتها لأنَّ الندبة تزداد سوادًا. أصابعي تغافلني مدفوعةً بشهوة الحفر والخدش، عودٌ على بدءٍ ونزفٌ مستمرّ.

حاولت أن أراقب نفسي. متى أترك العنان لأظافري لتكرِّر عدوانها على جلدي؟ عندما أقرأ؟ أو أشاهد التلفزيون؟ في أكتوبر، توقَّفت عن القراءة وأدمنت مشاهدة الأخبار. أتنقَّل بين الشاشة الكبيرة وشاشة هاتفي وظفري في مكانه يحفر الجرح نفسه. تزداد وتيرة الضغط والحفر والسلخ والتقشير أمام منشوراتٍ تفضح جروح شعوب منسيّةٍ من تاهيتي إلى الكونغو إلى السودان. القتلة أنفسهم. الاستعمار نفسه. متوالية التطهير العرقيّ علامةٌ دامغةٌ سوداءُ على الكفّ الأبيض. تشيلي غواتيمالا السلفادور نيكاراغوا موزامبيق أنغولا باناما يوغوسلافيا

أفغانستان. الندبة نفسها. الإصبع نفسها. تحفر تضغط تخدش، باسم أزمة الديون، أو العولمة، أو الحرب على المخدّرات أو الحرب على الإرهاب. اقتلاع السكّان المحليّين من أرضهم، تحويلهم إلى لاجئين وعمالةٍ رخيصةٍ للسوق العالميَّة، والاستيلاء على مواردهم وأراضيهم ونفطهم ومياههم، إمّا بالدبّابات وإمّا بالاتفاقيّات التجاريَّة وبرامج «التكيُّف الهيكليّ» وتخفيض قيمة العملة، وكلّ وسائل شنّ الحرب على الشعوب الأصليَّة ومصادرة أراضيها، وتوسيع المستوطنات، وسرقة المياه، والتدمير المنهجيّ للبنى التحتيَّة!

كثرٌ كتبوا: ما يحدث في غزَّة سيطولنا جميعًا إن لم نتحرَّك وندين العدوان الهمجيّ الصهيوأميركيّ. كثرٌ قالوا: العالم كلُّه محتلٌّ من إسرائيل وكثرٌ هتفوا: غزَّة وحدها الحرَّة.

أأنت الضمادة يا غزَّة أم الندبة التي يُعاد خدشها وحفرها ولا شفاء لها؟! كلُّ صباحٍ تمدِّين يدك إلى زرّ القلب كأنَّه ساعة يد. تسحبين التاج إلى أقصى حدٍّ لتعبّئي الوقت بك فيدور العقربان وتنشط حركة الدقائق والثواني على تكّات موتك. فنتفرَّج على طفلٍ لك لم يتجاوز العشر سنواتٍ من عمره، يهيم على وجهه حتّى يصل إلى أحد المستشفيات. ويجلس في الباحة محتضنًا حقيبةً مدرسيَّة، يلصقها بصدره كأنَّها أمانةٌ غاليةٌ على قلبه، يخشى أن ينتزعها أحدٌ منه. ماذا تفعل هنا؟ يسأله أحدهم. «انقصف بيتنا واستشهدت أمِّي وأبي وأخي الصغير». لم يغصّ ولم يتلعثم. ركامٌ وموتٌ ونهاية أسرة. ملخَّصٌ واضحٌ في ذهنه وعلى لسانه. وماذا في الحقيبة؟ كتبك؟ تخاف عليها من القصف؟ «الشنطة فيها أشلاء أخوي الصغير...»

كيف جمَّعت أصابع هذا الفتى أشلاء أخيه؟ بماذا فكَّر في تلك اللحظة؟ كيف ارتعش قلبه؟ هل جمَّدت الصدمة حواسّه للحظات؟ أنا لم أجرؤ على إلقاء النظرة الأخيرة على أبي في ثلَّاجة المستشفى وكان كاملًا! وتركت جثَّة أمِّي وحيدةً على السرير بانتظار نقلها إلى برّاد الموتى! لم أنس طعم الصقيع حين قبَّلتها. لم أنس اليباس الأزرق في أطرافها، وكانت كاملة. أيُّ أشلاءٍ جمعها هذا الصبيّ من أخيه؟ يد؟ عين؟ دماغ؟ طحال؟ كلية؟ قلب؟ لم يتعلَّم بعد الفيزياء ولا الكيمياء ولا العلوم الطبيعيَّة... أمسك قطعًا من أخيه ولعلَّ بعضها انزلق من يدَيْه الصغيرتَيْن، فرفعها من جديدٍ ليضعها في الحقيبة. بماذا غسل يدَيْه؟ وكيف ميَّز أشلاء أخيه من أشلاء أبوَيْه؟ وأيُّ رائحةٍ خزّنتها ذاكرته الصغيرة؟ وهل سيقوى على فتح الشنطة أو سيدفنها بما فيها؟ وإن قدِّر له أن يعيش ويكمل تعليمه، أيُّ شنطةٍ مدرسيَّةٍ سيحمل من غير أن يستعيد صورة الأشلاء ورائحتها وملمسها؟

ونتفرَّج على صغيرةٍ جميلةٍ اسمها جنى تزيح خصلة شعرها الأسود عن عينَيْها وتقدِّم نفسها بصورةٍ واضحةٍ كاملة: أنا فلسطينيَّةٌ بريطانيَّةٌ من غزَّة. ويسألونها عن أحوالك فتجيب: «أحوالي ليست بخير». لماذا يا جنى؟ ماذا حدث؟ ترفع عينَيْها كأنَّها تستعيد مشهد الطائرات في الطريق إلى حارتها وتقول: نسمع انفجاراتٍ طوال الليل وطوال النهار، يهتزّ البيت وينهار ببطء... ببطء... ببطء» وتتقلَّص عيناها كأنَّها تمهل المنزل وقتًا قبل أن ينهار أو تمهل قلبها قبل الرجفان. تضيف: «نسمع ضجيجًا وتركض أمِّي لتحضننا...» وبصوتٍ يوبِّخ «الكبار»: «ما يفعلونه بالأطفال سيِّءٌ جدًّا». الطفلة جنى صارت حجَّةً في لحظة، ونصَّبت نفسها المتحدثة الرسميَّة باسم أطفالك يا غزَّة!

ونتفرَّج على فرح في سرير المستشفى، عمرها سبع سنواتٍ تشكو للصحفيّ: «شعري كان ناعم بس إسرائيل خربته». وتضمّ قبضتها وترفعها وتهتف: «تحيَّة كبيرة كبيرة لشعبنا».

وتدفعين إلى شاشاتنا بعضًا من أطفالك ينشدون: «أنا شبل، أنا زهرة، حملنا جمرة الثورة إلى حيفا إلى يافا إلى الأقصى إلى الصخرة!» ثمّ يطلّ طفلك عوني الدوس ليسأل: «لماذا لا يرى الأعداء إلَّا أرضي؟» يحلم عوني أن يصبح مبرمجًا عالميًّا. أكثر من مئة ألف شخصٍ يتابعون قناته على يوتيوب. عوني أراد أن يصل عدد متابعيه إلى نصف مليون شخص. حلمه تحقَّق بعد استشهاده مع خمسة عشر فردًا من عائلته.

كالدمى القديمة التي تعبّأ يدويًّا لتتحرَّك أو ترمش أو تغنّي، يمسك كلّ طفلٍ من أطفالك بذلك الزرّ ويعبّئ بطاريَّات قلوبنا، فنغنّي معه:

غزَّة غزَّة غزَّة غزَّة

احني راسك يا التاريخ

وبغير غزَّة ما ترفعها

جينا أطفال وفيها نشيخ

وفيها جذوري وما تقلعها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

لكنَّ الجذور طريَّةٌ جدًّا يا غزَّة. أترين فَتَاكِ كيف يرتجف؟ لقد أخطأه صاروخ. وصل المستشفى. عيناه ناتئتان. لا يرمش. تتوسَّع حدقتاه علّهما تحويان الفجيعة. يحتضنه مسعفٌ ويضع كفَّه على قلبه. نرى أو نتخيَّل أصابع المسعف ترتعش هي أيضًا على وقع ضربات القلب

الصغير. خبراء قالوا إنَّ هذه الرجفة تحمي الجسم من آثار الصدمة، وتساعده على الاستعداد للتعامل مع الخطر. هل نطمئنّ؟

تكرَّرت مشاهد ارتجاف الأطفال وتزايدت التَّحليلات حول أثرها السلبيّ عليهم. «الأدرينالين الزائد قد يصيب الطفل بسكتةٍ دماغيَّةٍ أو نوبةٍ قلبيَّة». يقول طبيب. ويؤكِّد آخر: لا بدَّ من كرب ما بعد الصدمة ومن الكوابيس المتكرِّرة والسلوكيَّات العدوانيَّة والانسحاب الاجتماعيّ واضطراباتٍ في النوم وفي الأكل، والقلق والاكتئاب وما يصاحبهما من نقص القدرة على التَّركيز والدراسة».

أقرأ لآدم تحليلات الخبراء. يزدرد ريقه ويجيبني: هؤلاء المحلِّلون يريدون أطفالنا ضعفاء مثيرين للشفقة بحاجةٍ إلى لفتةٍ إنسانيَّةٍ فقط، لا إلى التحرُّر من احتلالٍ يسلبهم كرامة الحياة. ألم يكن المقاومون كلُّهم أطفالًا؟ ألم ترتجف أجسادهم من القصف؟ ألم يروا أهلهم أشلاء؟ الرجال والنساء الذين تسمعينهم يقولون: كلّ أولادنا فدا فلسطين، هم أطفال النكبة، ربّوا جيلًا من أطفال الحجارة. لا قلق لدَيْهم سوى بقاء الاحتلال ولا أدرينالين فيهم سوى المقاومة. كوابيس النكبة والحروب أقست عودهم وأخْضَرَت عزيمتهم. أطفال الجيل الجديد ليسوا أضعف من أسلافهم..»

لم أجد تعليقًا مناسبًا على ما قاله سوى أنَّ التَّحليلات كلَّها تركِّز على ما بعد الصدمة وكأنَّ الصدمة انتهت، أو أنَّها جديدةٌ بالكامل ولم يعيشوا مثلها من قبل.

لا أدري متى مرَّ أمامي تصريح معالجٍ نفسيٍّ عمل مع برنامج غزَّة للصحَّة النفسيَّة. لكنِّي حفظته في أحد ملفَّاتي. يقول الدكتور فان

إنويك: حين كان التشخيص باضطراب ما بعد الصدمة لا يزال حديثًا، استعملناه في تقييمنا للأعراض التي كنًا نلاحظها على المرضى. لكنّ استعمال هذا التشخيص في غزّة محفوفٌ بالعيوب. بداية، لا يوجد «ما بعد» للصدمات هناك، كون الصدمات لا تتوقّف. ثانيًا، الأعراض والعلاجات كانت متناسبةً مع الثقافة الغربيّة، وهذا ما جعلها غير متوافقةٍ مع الثقافة والتجربة الفلسطينيَّتَيْن. تدريب فريق العمل في هذا البرنامج كان أمرًا سخيفًا. زملائي في غزّة هم من عليهم تدريبي.

يضيف الدكتور إنويك: «أيُّ زائرٍ لغزّة يعرف كيف تسهم العائلات بفاعليّةٍ في معالجة الناجين من العذابات. المجتمع والعائلة هما خزّان القوّة الذي يسمح للغزّيّين بالنجاة رغم مرور عقودٍ من التعذيب. هذا أهمّ بكثيرٍ من أيّ تقنيّةٍ نفسيّة. لاحظت ذلك أثناء زيارتي الأخيرة لغزّة. ذات يوم، زرت بصحبة ثلاثة طلّابٍ عائلةً فقدت إحدى بناتها على إثر غارةٍ إسرائيليّة. قبل أن ندخل، راجعت مع الطلّاب ما تعلّموه عن التقنيّات النفسيّة. استقبلتنا العائلة، وفيما كنّا نتحدّث مع أفرادها، بدأ الأب بالبكاء حزنًا على ابنته التي شاهد موتها. شجّعه الطلّاب على تنفيس مشاعره ومشاركتهم حزنه. ساعده ذلك بعض الشيء فقط. بعد ذلك، دخل جاره الغرفة، وهو رجل تجمعه صداقةٌ قديمةٌ بوالد الفتاة. وفيما كان الأب يروي قصّة مقتل ابنته من جديدٍ ويبكي، وقف جاره إلى جانبه ووضع يده على كتفه. توقّف الأب عن البكاء، وهدأ بكاؤه شيئًا فشيئًا، ثمّ وضع يده فوق يد جاره.

حين غادرنا، راجعت مع الطلاب ما حدث. لاحظوا أنّ صديق والد الفتاة ساعده أكثر بكثيرٍ ممّا ساعدناه نحن. بكلماتٍ أخرى، المجتمع شافاه أكثر ممّا شافاه العلاج. كان ذلك درسًا فارقًا. الطرق

المحلِّيَّة لعلاج الصدمات أكثر فاعليَّةً من تلك المستوردة من ثقافاتٍ أخرى. الناس في غزَّة لدَيْهم ما يحتاجونه للنجاة والتشافي. لدَيْهم عقودٌ من التجربة. إنَّهم أقوياء، مرنون، وأذكياء، وشجعان».

تعيطش يا زلمي! تختصر كلّ ما قاله الدكتور! بقيت صورة الطفل المرتجف بعينَيْن ناتئتَيْن عالقةً في رأسي. التفتتُ إلى صور آدم وهو طفل. وزَّعتها منذ سنواتٍ في أرجاء البيت. عددها ثلاثةٌ فقط بعدد الحكايات التي رواها لي عن مرحلةٍ رماها بحجرٍ من يده الصغيرة.

«لا أذكر أنِّي كنت طفلًا» قال لي كلَّما حرّضته على نكش ذاكرته. أحدِّق في الصور الثلاث وللمرَّة الأولى أشعر أنَّ ذلك الطفل هو نفسه الرجل الذي أحبُّ هيبته ورقّته المستترة. هذا الرجل هو نفسه الطفل الشقيّ الذي جهدت والدته في تجميده لثوانٍ قليلةٍ قبل أن يدبدب هاربًا من الصورة والإطار.

الشقاوة نفسها ما زالت تلتمع في عينَيْه الخضراوَيْن حين أضبطه متلبِّسًا بالتهام قطعة حلوى. يطبق شفتَيْه فيما خدُّه منتفخ. يسارع إلى ابتلاع ما تبقّى من سكَّرٍ ويهرول إليَّ لرشوتي بقبلةٍ وعناقٍ فأستسلم لنزوته وأؤجّل تأنيبي له على إسرافه في عشق الحلوى.

أ تقاس طفولة الفلسطينيّ بعدد سنواتها وحلاوة أيَّامها وخلوّها من المآسي، أم بما يكتنزه منها وما لا يتخلَّى عنه كي يفعل ما يشاء في عمره الباقي بدهاءٍ وعنادٍ رغم أنف الجميع؟

كثيرًا ما تكلَّمنا آدم وأنا عن الأطفال، كلُّ الأطفال. ليسوا أبرياء قال لي، فهم الأشدّ حساسيَّةً للظلم والقمع والعقاب. وليسوا أبرياء بمعنى جهلهم للصواب والخطأ، بل قادرون على التمييز بينهما بتلك

البراءة نفسها التي يوصمون بها. ليسوا أبرياء لأنَّ قلوبهم دليلهم إلى من يحبّهم ويبغضهم. قادرون على إيذاء من يمسّ ألعابهم. يتقنون فنّ الابتزاز العاطفيّ باصطناع البكاء طمعًا بالاحتضان. ليس في الأطفال براءة. لا يحلمون بسذاجة أن يدوم الفرح ويدوم اللعب طوال العمر، بل يريدون أن يكبروا بسرعةٍ ويختصروا السنوات بقفزةٍ مع الريح. ربَّما هم أبرياء لأنَّهم لا يتوقَّعون استباحة الكبار لهم. سريعو العطب وأبرياء في رقَّة عظامهم أمام توحُّش الكبار لكنَّهم ليسوا أبرياء من نقصٍ في الشجاعة وإحجامٍ عن المغامرة وخوف من التحدّي.

ولماذا لا تحبّ الأطفال الصبيان؟ سألته. «الصبيان لا تليق بهم الطفولة». تخيَّلي صدمتي يا غزَّة. كنَّا نتمشَّى كالعادة حين توقَّف وقال تلك الجملة كأنَّها عنوان خطبةٍ سيلقيها عليّ على الكورنيش. كان حولنا صبيانٌ كثرٌ يصرخون ويعبرون من أمامنا. حتّى أنَّ واحدًا منهم اصطدمت كتفه بكتف آدم أثناء ركضه، ثمَّ التفت إليه واعتذر. كتم آدم شتيمته لأبَوَي الولد وسلالته. بلع ريقه بعد اعتذار الصبيّ. ثمّ أكمل مشيه ببطءٍ وقال لي: اسمعي.. الآباء الفلسطينيُّون يحبُّون الأطفال الإناث أكثر، البنت تولد لتتدلَّل ولكي نرعاها ونهتمّ بها ونحقِّق لها ما تريد وما تحلم به... عندما أنظر إلى طفلٍ ذكرٍ يبكي أو يقوم بأفعالٍ طفوليَّةٍ أو يلعب ويتولدن أشعر بالاستفزاز كأنّي أرى رجلًا يتصابى! الأطفال الذكور يجب أن يكونوا رجالًا من لحظة ولادتهم. أُنظري ماذا يفعل هذا الفتى؟ يركب السكوتر؟ ما هذا الإنجاز العظيم؟ على الذكور مهمَّاتٌ كثيرةٌ غير ذلك. إذا اضطرَّ الفلسطينيّ للاختيار من بين أبنائه لدخول الجامعة، سيختار الفتاة. وإذا جاء أحدهم لخطبتها ينبش الأرض بحثًا عن شائبةٍ في ماضيه وأخلاقه وكرمه. قال أبي مرَّة: «الفتاة ممنوعٌ أن تُكسر. يجب

أن تنشأ عزيزةً وتظلّ عزيزة... لا أعلم ما هو الجذر الثقافيّ لهذا التقديس للأنثى، البنت، الأم، الجدّة، ربّما لأنَّ فلسطين اسمٌ مؤنَّث».

ليس لدَيْنا الآن ترف الجدل. ولا رأسي يحتمل مقارعة آرائه في الطفولة. قناعتي بأنَّ آدم لا يحبّ الضعف بالمطلق. كلَّما شاهد طفلًا من أطفالك يخاطب العدوّ بنبرة تحدٍّ غرغرت عيناه بالدمع واتَّسعت ابتسامته. «أطفال فلسطين غير، وأمَّهات فلسطين غير» يردِّد وأنكمش أنا كدودة.

لا أحبّ ولدي أكثر ممَّا تحبين أطفالك يا غزَّة. غير دقيق. ربّما. لا أدري... لكنّي حتمًا لن أضحّي مثلك. مستحيل. أو قد أفعل إذا عشت حياتك. قطعت له تذكرةً بلا عودةٍ وقلت: «نجَّيتك من فساد الماء والغذاء والدواء ومن صواريخ محتملة. أريدك أن تكبر بأمانٍ وتتعلَّم بأمانٍ وتحبّ وتتزوَّج وتنجب بأمان». وسأحرّضه على اللَّاعودة، «البلد على كفّ عفريتٍ يا أمّي، ما في رجعة» أقول له. لا شكَّ أنَّه يقارن بيني وبينك. أنا أعتنق الخوف وأنت تعتنقين المعجزة. يراك تحملين أشلاء طفلك وتصرخين: كلُّ أطفالي فدا فلسطين. ويراني أسأله إذا كان يأكل الخضار والفاكهة باستمرارٍ ويمارس الرياضة. وأرنّ على هاتفه كلَّما غفل عن تحيّة الصباح المعتادة في وقتٍ محدَّد. يضحك عليّ كلَّما راسلته: وينك؟ في شي؟ ليش ما بتردّ عليّ؟

هل يعي الآن ما تقولين؟ يدرك حتمًا أنّي أفديه بدمي وروحي وكلّ ما لديّ، لكن كيف يدرك أنَّك تفدين فلسطين بكلٍّ أطفالك سواءٌ كانوا واحدًا أم عشرة!؟ لا أعرف. وأخاف أن أعرف. ولن ألومه مهما عرفت. فأنا لم أربّه إلَّا على النجاة بنفسه. واطمأننت أنَّه شابٌّ لم يدمن

أيًّا من الموبقات. ويكفيني أنَّ بوصلته لم تنحرف. يكفيني أنَّه كان في عام 2006 في لبنان وعاد بذكرياتٍ لن تُمحى عن هزيمة الكيان في الجنوب. ثمّ لم أستطع إنجاب سواه. فكيف لا أخاف؟

نحن أيضًا لسنا أبرياء إلَّا في أمنياتنا البسيطة الساذجة أحيانًا، بأنْ تقدّم الحياة لأطفالنا أجمل ما فيها وتحجب عنهم وجهها الظالم المظلم، كما تمنَّت هبة أبو الندى قبل أشهرٍ من استشهادها حين كتبت:

«أتمنَّى أن يكون الصغار قد ماتوا وهم نيامٌ وأتمنَّى أنَّهم كانوا يجدلون شعر العرائس في أحلامهم ويقطفون الحلوى عن الشجر ويلاحقون الأحصنة الملوَّنة في مرج أخضر. أتمنَّى لو أنَّهم لم يسمعوا صوت الصاروخ ولم يروا الدم ولم يشعروا بسقف غرفتهم فوقهم. أتمنَّى فقط أنَّ الموت أخذهم من أياديهم أثناء غفوتهم بلطفٍ ولم ينادوا بابا ماما الحقونا. أتمنَّى أنّ أكثر ما أخافهم في الحياة كان امتحان الرياضيَّات والمزهريَّة التي كسروها أثناء اللعب وليس حجم المتفجّرات التي اندلعت في أجسامهم».

نكمل التفرُّج ويطلع علينا إسماعيل أبو شحادة في مقطع من فيلم فلسطين 1920. يقول: «بتعرفي كيف أبوي مات؟ في العام 1965 لما خلعوا البيارات والأشجار، لما شاف التراكتور بيخلع الشجر قعد يعيِّط متل الطفل ووقع وهو عدَّى التسعين. شجر زارعه من كم سنة. لما أخذوا الأرض ما حسّش... قلت له: أخذوا الأرض. جاوبني: الشجر موجود. لكن لما قلعوا الشجر جنّ، أخذناه عالمستشفى ومات فقع». صدمة الكبار أقسى!

ونكاد نفقع نحن. كلٌّ منَّا يمسك برأس قلبه كأنَّه صاعق قنبلة. من منَّا ستصمد إصبعه على السدّادة كي لا ننفجر معًا؟ تعرفين بالتَّأكيد

الأسرى الذين يصفهم الاحتلال بالقنابل الموقوتة: إذا انفجروا (أيْ اعترفوا) أنقذوا «أرواحًا إسرائيليَّةً كثيرة»! مثلهم أشعر بضرورة إحكام قبضتي على صاعق قلبي، لأحمي آدم من اعترافي بالغيظ والقهر. يغافلني ويسبقني إلى أبعد غرفةٍ في البيت، ليرمي قلبه فيها، سمعت ارتطام دموعه. ما جدوى انفجاراتنا يا غزَّة؟ لن يألم أحدٌ منَّا بأكثر من آخ فائقة الصوت والشظايا، آخ الحرقة وآخ الخيبة وآخ الفقد وآخ التَّحدِّي وآخ اليأس وآخ الأسى وآخ الفجيعة وآخ الصبر! لا آخ منَّا إذا انفجرت ستنقذك يا غزَّة.

عندما سألتك في رسالتي الأولى على من راهنتِ يا غزَّة، لم أكن ألومك وقلت لك لستِ ساذجةً ولم تفقدي ذاكرتك! دعينا من الحروب التي خرجت منها منتصرةً رغم طول قائمة الشهداء. في كلِّ تلك الحروب كنت وحدك ولم تسمعي سوى بيانات الاستنكار والشجب. هل سمعت غيرها في خمسينيَّات القرن الماضي وستينيَّاته، وتسعينيَّاته، والألفيَّة الأولى، والثانية؟ لنتحدَّث فقط عن المجازر المتفرِّقة بعد سلب الأرض في 1948، في عشرة أيَّامٍ فقط استشهد 386 طفلًا وامرأةً في خان يونس عام 1956. الجمعيَّة العامَّة للأمم المتَّحدة سمَّت تقريرها «حادثة خان يونس» وأقرَّت فيه أنَّ 257 شخصًا استشهدوا بالتزامن مع 111 شهيدًا في رفح ولم تفتح تحقيقًا في «الحادثة».

وماذا فعلت تلك الأمم يوم استشهد 48 شخصًا في حيِّ الزيتون عام 2009؟ وماذا عن مجزرة شارع الوحدة عام 2021. 44 شهيدًا و50 جريحًا والادِّعاء نفسه: «نلاحق المخرِّبين ونستهدف الأنفاق تحت المباني». كلُّ الشهداء كانوا مدنيِّين وعلت بيانات الاستنكار والشجب و«أعربت الأمم المتّحدة عن قلقها من ارتفاع وتيرة العنف في المنطقة»!

ما زالت مجزرة الزرارية في لبنان ماثلةً في ذاكرتي كنصب، قالوا إنَّها «عمليَّةٌ استباقيَّةٌ لردع الإرهابيّين». قُصفت طواقم الإسعاف للصليب الأحمر واستُهدف الصحفيُّون لمنعهم من نقل الوقائع. كثرٌ قتلوا دهسًا بالدبّابات بينما كانوا في سيَّاراتهم والحصيلة: 40 شهيدًا في يومٍ واحد، وطلع علينا وزيرٌ صهيونيٌّ يومها ليقول: ما حصل كان فشَّة خلق .emo-tional release

لا أنت ولا نحن نسينا مجزرة قانا في لبنان عام 1996. 106 شهداء في مركز تابع للأمم المتَّحدة. استهدافٌ متعمَّدٌ لكنَّ العدوّ رفض نتائج التحقيق وانحصرت ردود الفعل الدوليَّة على بيانات الاستنكار والشجب من دون أيِّ محاسبةٍ للكيان!

على أيِّ قانونٍ دوليٍّ وأممٍ متَّحدةٍ راهنت؟ على أيِّ عربٍ ومسلمين؟ مليونان ونصف مليون شخصٍ مهدَّدون بالقتل والتهجير والإبادة الكاملة. قبلها بعقود، الطنطورة وكفر قاسم ودير ياسين... كتبٌ ومجلَّداتٌ وثّقت وأرّخت. الندبة نفسها. الإصبع نفسها. استراحةٌ ويعاود الحفر. والعجز تامّ.

ما أعمق هذا القاع الذي ينحدر إلى الأعلى! طوفانك يرفع السخام إلى السطح. أطفالك يصرخون: لسنا أرقامًا ويكتبون أسماءهم على أطرافهم. وتحجب الصور والمشاهد عن الجمهور مبريّ الرأس. عقدان فقط كانا كافيَيْن لقتل الإعلام الحرّ! جوليان أسانج يقبع في سجنه. آخر المحاربين في سبيل الحقيقة، آخر فاضحي همجيَّة أميركا يعاقَب ليتاح الآن لأضخم المؤسَّسات الإعلاميَّة أن تشغّل الأسطوانة: «هل تدين حماس؟».

صحافيّو العالم تعلَّموا الدرس. «احجب الحقيقة كي لا تُحجَب. شوِّه الصورة فتكافأ. لا تكن شاهدًا فتستشهد». أسانج أمامهم يذوي في سجنه في سفارة الإكوادور.

تعسكر الإعلام واستُعمِر.

أتذكرين يوم خرج عن السرب الصهيونيّ صحفيٌّ يهوديٌّ فرنسيٌّ قبل عشرين عامًا؟ وثّق 85 ثانيةً من الرصاص حوَّلت جسم محمّد الدرة إلى منخل! 85 ثانيةً فقط كانت كافيةً لتحطيم شارل أندرلان المندفع إلى فلسطين المحتلَّة بحكم انتمائه اليهوديّ وتعاطفه مع إسرائيل. تهمة «اليهوديّ السيِّئ» لاحقته سنوات. أكمل «إساءته» بكتاب «موت طفل» ثمّ بفيلم وثائقيّ: «باسم المعبد ... الصعود الكاسح للأصوليَّة اليهوديَّة». اليوم، البثّ الحيّ للإبادة مستمرٌّ على مدار الساعة وصحافيُّون يقفون للشهادة والاستشهاد على أرضك وأبعد!

أنت خير العالمين. الكيان لا يحتمل تشويه صورته، فكيف إذا أسقطتِ رَدْعَه كلّه يا غزَّة في أقلّ من يومٍ واحد؟ ما حيلته الآن لترميم الصورة؟ إذا تعذَّر إسكات الشاهد، وجب قتله. هكذا قُتل الصحفيّ عصام عبد اللّه وأصيب مصوِّرا وكالة فرانس برس، ديلان كولنز وكريستينا عاصي، والصحفيَّة كارمن جوخدار والمصوّر إيلي براخيا من قناة الجزيرة، وثائر السوداني ولؤي نازح من رويترز.

عجزٌ تامّ. ظلامٌ تامّ. ووائل الدحدوح من خارج الشاشة يخبرنا بأنَّ «استمرار الغارات الإسرائيليَّة في كلِّ المدن والبلدات من الشمال إلى الوسط والجنوب، ينذر بأنَّ هذه الليلة ستكون كمثيلاتها ليلةً دامية...» حدسٌ أم معلوماتٌ صحفيَّة؟ مش مهمّ. ليلةٌ داميةٌ لكن ليست كمثيلاتها.

سكوتٌ يخترقه قصف. همسٌ ورنين هاتف. وائل خارج الصورة، «ايش صار؟» يسأل، «مش عارفين وينهم كلُّهم؟ مين؟ مين هي يللي عندك؟ ايش اسمها يعني؟» صوت يرتعش: «أنا خلود يا با...» آه... يرّد وائل، استهدفوا المكان يللي عندكو؟ إيش يا با؟ فيكرِّر السؤال...

«ليلةٌ دامية» قال الدحدوح والآن غاب. تنكسر الحروف على لسان زميله عبد السلام فارح، يلملمها صوته من بين الغصّات. الصوماليّ «المهيوب» كما نسمّيه آدم وأنا، دَكُن لونُه. كاد يفقد صوته وهو يتلو خبر استشهاد عائلة وائل: زوجته، وابنته وابنه... البثّ مباشرٌ والكاميرا تلاحق وائلًا إلى المستشفى. جثثٌ على الأرض. يقف وائلٌ غير منحن. ماذا كان يفكِّر في تلك اللحظة؟ أيُّ صورٍ راودته؟ يوم عرسه؟ يوم قبَّل زوجته أوَّل مرَّة؟ يوم وُلدت ابنته؟ الهديّة التي وعدها بها؟ عيد ميلاد ابنه القادم؟

بماذا يفكِّر المكلومون أمام جثث أحبَّائهم؟ ألا يغيِّر القلب موضعه؟ ألا ينزلق إلى المعدة إلى القدَمَيْن، أم يخترق الحنجرة ويتفجَّر في الأذنَيْن؟ أيذوي كبالونٍ مفرغٍ من الهواء أم ينفتخ حتّى التمزُّق؟ «تنتقمون منَّا بأولادنا. معليششش».

تلك الشين الممتدَّة، الشين المشدَّدة، الشين المطوَّلة، الشين المضغوطة بعد معليش تشدّ وتر الألم إلى أقصاه في توعُّدٍ وإرجاء الردّ إلى وقتٍ قادم. إيقاع اللفظة وحِدَّة التحديق والوقوف بلا انحناءٍ حوَّلوا وائلًا جبلًا. وكالصنوج ضربت المعليش في القلوب وتردَّدت كآهات الطرب. وجه الدحدوح صار الوجه، نرى فيه ملامح خالٍ بعيد، أو عمٍّ اشتقنا إليه، أو أبٍ لم نحظَ به، أو أخٍ وحيد. شاهدناه بصدره الفسيح

يحضن أطفالك فيسندون رؤوسهم الصغيرة عليه ويطيلون كأنّهم يصغون إلى موج البحر في صدَفَة. من منّا كان قادرًا طوال الأيّام الماضية على خفض صوت التلفزيون عندما يطلّ وائل؟ أكاد أجزم أنّ لا أحد إلّا وترك كلّ شيءٍ ليشاهد ويصغي منتظرًا التعابير التي يكرّرها في كلّ تغطية: «...شيئًا فشيئًا... بين الفينة والفينة...». وفي تلك الليلة الدامية أكثر من أيِّ ليلةٍ سابقة، صارت المعليش لازمةً ثمّ تحوَّلت إلى أغنية.

لم يَعُد الحمّال الفلسطينيّ في أيقونة جمل المحامل حافي القدمَيْن رثّ الثياب محنيّ الظهر من حمولة القدس وأنين الخسارات ومرارة الغربة. الدحدوح مستقيم الظهر يرفع عينَيْه ليفقأ عين المحتلّ. وسيدفن وائلٌ عائلته ويعود إلى الشاشة في اليوم نفسه. هكذا يخسأ الاحتلال ويخسأ النتن ويخسأ الخرِف ويخسأ العالم المتفرّج! وسنخسأ نحن أيضًا ونحن نتناقل صورة وائلٍ وكلمته.

وأفقأ الندبة وأواصل الحفر والخدش. استراحةٌ قصيرةٌ حين يزورنا زملاء عملٍ سابقون وأصدقاء موسميُّون. لا نطفئ التلفاز. يأتوننا محمَّلين بأسئلةِ التبست أجوبتها. يحاولون الدفاع عنك بكلِّ ما أوتوا من نتف تاريخٍ قرأوها بلغات الغرب. عالقون في فخاخ السرديّات المتضاربة. يريدون أن يشحذوا أصابعهم ليردُّوا على ذبابٍ إلكترونيٍّ يدينك.

جيلٌ وُهبت له كلّ الأدوات ليعيش افتراضيًّا حياةً بلا تجاعيد وعلاقاتٍ بلا أسلاك. جيلٌ لا يصدّق حتّى يشاهد، ولا يشكّ إذا شاهد ما جمع أعلى نسبة مشاهدات. لأجله شيّدت معاقل الخوارزميّات. جيلٌ رشيقٌ خفيفُ الطواف، وافرُ المصادر، سريع التّخزين كغيمة، متقنُ الاختزال، سريع الرضا بالمقولات، وخاتم المعارف بنبوّة الرؤية الحاسوبيّة.

جيل الإعلام الجديد، يرى نفسه منزلقًا إلى فخّ «النقد الذاتيّ» فتتسلَّق الهزائمُ لسانه لتجلد النفس الأمَّارة بالمقاومة. جيلٌ محقٌّ في خريف آماله بعد ربيعٍ مسموم البذور والثمرات. محقٌّ في تصويب رصاصه الافتراضيّ إلى صدر «الأمَّة العربيَّة»، فلولا الوكيل الهجين بقناطره المقنطرة من ذهب الهوان، لما تروست أنياب الوحش الأصيل وقضم ما لذَّ له وطاب من لحمك الطريّ.

ويشتدّ الجدل مع هذا الجيل حول الجدوى من نشر صور أشلاء أطفالك. أَفَضْحٌ للإجرام أم استجداءٌ للفتةٍ إنسانيَّةٍ ما زلت تحصدين ذلّها؟ «بالناي والمزمار لا يحدث انتصار»، فالفرق شاسعٌ بين قضيَّة وجودٍ وقضيَّة حقوق إنسان. ونسأل: أفُتاتٌ من حقوقٍ ما تحتاجين أم كمال وجودٍ وتمام سيادةٍ ودوام حريَّة؟ لا حقّ لك في التمتُّع بحقوق الإنسان طالما حقّك بالوجود أصلًا ممنوع. وينتهي الجدل وتدور عيونهم وتتَّسع باحثةً عن تعليلٍ لموتك الجماعيّ ونزوحك الجماعيّ وصمودك الجماعيّ. لا يسعفهم دليل الخلاص الفرديّ -إنجيل العصر الجديد- في فهم هذا العشق إلى التلاقي والالتصاق تحت النار وتجميع أفراد العائلة الممتدَّة في منزلٍ واحدٍ ليواجهوا معًا الموت في سبيل الحياة.

جيل الفرد الآمن في عزلته، جيل «الإنسان الأعلى» صانع قيمه الخاصّة، يتهجّى الآن صفات الغزَّاويّ العصاميّ، والفلسطينيّ المدفوع بموروثه المقاوم، سلاحُه تضحياتٌ جماعيَّةٌ ما تخلَّى عنها ولا تاب. ليس كلّ أهلك أنقياء يقولون. ويسألوننا عن الأعشاب الضارَّة في أرضك وأثرها على مدد العدوان. هل للعمالة ما يبرِّرها في بؤس الحال والخوف وانسداد أفق الخلاص، وبماذا نبرّر خيانة ميسوري الحال من التجَّار والوكلاء وأبناء الطبقات المخمليَّة؟ إغراء الخلاص الفرديّ مسربٌ

للحياد أحيانًا ومدخلٌ واسع للخيانة غالبًا. للخائن وجهة نظر يقولون، هو في مرآته فدائيٌّ يغامر بكلِّ شيءٍ لسدّ رمق أطفاله فيوهَب تصاريح عبورٍ وعمل. حاجاتٌ آنيةٌ وفرَجٌ مؤقّت، نقول، لحظة ضعفٍ مثاليَّةً للاستلاب. وتصبح حياة الأعشاب الضارَّة مرتبطةً عضويًّا بدوام الاحتلال.

«لا جدوى من المقاطعة» يقولون، لن توقف التسليح ولا الإبادة. كيف يتّسق هذا الكلام مع إيمانهم القاطع بـ «علم الطاقة الإيجابيَّة» وفلسفة الفينغ تشوي لتصميم المنازل وجذب الثروة والاستقرار النفسيّ!؟ يستمرُّون في اعتناقها فلا ضرر من وضع نافورة ماءٍ في زاويةٍ ما من البيت، ومجسّمٍ لضفدعٍ أمام الباب وحوض أسماكٍ في ردهة الاستقبال! كلُّها قد تجذب الخير وقد لا. المهمّ النيَّة.

نكلِّمهم عن خنساوات فلسطين وتضحيَّاتٍ لا منطق فيها إلَّا إلهيًّا. ويكلِّمهم آدم عن عناقك لشجرة زيتونٍ لن تثمر قبل عقود، يرجّ صوته بإيمانٍ لا منطق فيه إلَّا فلسطين. اقرؤوا فلسطين بلغتها يقول. وقاطعوا ما استطعتم. إنَّها أقلّ التضحيات الفرديَّة وأكثرها جدوى جماعيًّا.

لكثرة ما عاشوا في أمانٍ ظاهرُه غير باطنه، ولكثرة ما اعتادوا قياس كلّ جهدٍ بنتائجه الفوريَّة، ولكثرة ما تشرَّبوا ثقافة اللاصبر أمام إغواء الراحة المؤقَّتة أو توهُّمها، تعجز عقول الجيل الجديد عن توصيف الخسارات. ماذا يعني أن يهدم بيتك وتعيدي بناءه عشرين مرَّة؟ ماذا يعني أن تنزحي بثوب الصلاة وحفنة أوراقٍ ثبوتيَّةٍ ومفتاح؟ ماذا يعني أن تتركي رسالةً لمقاوميك بقائمة ما تبقّى من طعامٍ في البراد وأنت جائعة؟ ماذا يعني أن يحمل أطفالك قططهم وعصافيرهم ويركضوا بها تحت القصف ليؤْووا معها متقاسمين فتات خبزٍ ورشفة ماء؟ ماذا يعني

أن تصنعي الصواريخ من بقايا ذخائر المحتلّ؟ ليت أرضك معبَّدةٌ بالمرايا ليروا غزَّة التحتا التي لا تدانيها الأساطير ولا يقاربها خيال! كيف سيفهمون أيَّتها النحيلة الرَّفيعة المنبسطة على البحر، أنَّ في باطنك جبالًا لا يزلزل ثباتها شيءٌ وحصونًا بآيات اللّـه شُيِّدت «وهم لا يبصرون».

يزفرون كأنَّهم يتنفَّسون من رئتَيْك يا غزَّة. خيبتهم من «فزعة» الأقربين، تبدِّدها فزعةٌ منك لأرواحهم. ما يرونه على شاشات هواتفهم يحتاج إلى معجمٍ يسهِّل عليهم هضم المفردات وصورها النموذجيَّة: الإيمان، التلاحم، مكانة العائلة، احترام كبيرها، مسؤوليَّة الجماعة، عشق الأرض والثبات على الحقّ حتّى الشهادة.

يشهقون أمام مشهدٍ لإحدى صغيراتك، ويسألون من رتَّب شعرها وزيَّنه بالبكل؟ من كان لدَيْه الوقت والأناة بين صاروخٍ وتشرّدٍ ونزوحٍ ليرتِّب مظهرها؟ أربع سنواتٍ عمرها؟ خمسٌ كحدٍّ أقصى نقول بحسم. على ظهرها حقيبةٌ ومن كتفها تتدلّى أخرى وتعانق ثالثةً وعيناها مصوَّبتان علينا فيما صوت قدمَيْها على الحصى يدنو منَّا رافعًا الشمس فوق رأسها. ويتمدَّد ظلُّها على الرماد وتمدُّها يدٌ مجهولةٌ بقارورة ماءٍ فتشرب كعصافير الصحراء ويسألونها من أين تأتين وأين أهلك. أنا الناجية الوحيدة تقول. أهلي هناك في مخيَّم جباليا. سبعون فردًا ماتوا... أنقذت كتبي من الركام... وتكمل المسير تاركةً السؤال معلَّقًا ببكلة شعرها.

ونتبادل معهم حكايات الطفل رمضان أبو الجزر المفوَّه الناطق بأجمل الأشعار، «المهفهف» والمتأنِّق كأنَّه في مدينة ملاهٍ أو رحلةٍ صيفيَّة! ونردِّد مع «أقوى صحفيّ في العالم»: الوضع آيس كوفي

عالآخر. مراسلك الشماليّ عبود البطاح الهازئ من حماقات الصهاينة وفوق رأسه تحوم «الزنّانات»، مشرق الطلّة كأنّه يستحمّ خمس مرّاتٍ في اليوم! وذاك الفتى الأسمر عبد اللّـه المجايدة المشّاء الصغير الذي صرنا نكرّر عبارته الاستهلاليّة «يا جماعة»، لم يصوّر مشهدًا واحدًا إلّا وهو «مقطّف منضّف». ما هكذا يكون شكل الأطفال تحت نيران القتل والتجويع والنزوح! كأرغفة الخبز نضجت وجوههم. يعرفون القصّة الكاملة من كبارٍ رووا كلّ شيءٍ قبل أن يموتوا، وأودعوهم مفاتيح العودة في قجة حديديّة الذكريات، حتّى لا ينسوا قبل أن يعودوا أو قبل أن يموتوا.

قولي لي يا غزّة، أيصدّق صغارُك أحلامهم؟ أهذا التصديق يهذّب أوجاعهم؟ كأنّهم بخفّة أجسامهم يحملونك بأزمنتك كلّها وكفراش النوم ينفضونك من عتق الكوابيس ويشمّسونك على الشرفات حتّى يهرهر عنك التعب. وكبساط الريح تحملينهم وتقفزين معهم من فوق الأسوار تتسلّقين معهم الأشجار وتلاعبين بقدمَيْك الماء وترفعين لهم ذراعَيْك حبلًا طويلًا لطيّارةٍ من ورق. لا انقطاع بين ما كان فيك والآن، وما ينبغي أن يكون. على هوامشك قاتلٌ متسلسلٌ لا سبيل له إلى الحياة إلّا واقفًا فوق جبالٍ من الجثث. وفي متنك عاشقٌ متسلسلٌ يتناسل أجيالًا تمدّ أجسامها سبيلًا للحياة.

مباركةٌ ثمرة بطنك يا غزّة! يا أجمل مخرّبةٍ في الكون لنسل الطفولة الهشّة، وجينات الفحولة المنويّة، وهرمونات الجنس اللطيف. يا مَحرقة الحداثة، يا جينة الروح العملاقة، أيّتها العصيّة على التناسخ إلّا في مختبرات النضال.

نغبطك ونمدحك لنستر عجزنا! أنت من يتفرَّج علينا وأنت من يَبكينا بحقّ. أنت من لا حول لها ولا قوّة معنا نحن ذارّفو دموع اللّا جدوى، موزِّعو القلوب المكسورة رسوماتٍ ووسومًا. أنت من يرثي لحالنا ونحن نأكل ونشرب وننام كالمعتاد، لكنَّنا مواظبون على التفرُّج.

لا تستهيني بتفرُّجنا الخلَّاق يا غزَّة. إنَّه فعل صمودٍ ورفضٍ لغضّ النظر. في التفرُّج مقاومةٌ لهشاشة الحواسّ أو تبلُّدها وولاءٌ مطلقٌ بأن نبقى رفاقك الافتراضيّين فلا ننقطع عنك إلَّا مكرهين بنعاسٍ غادرٍ أو دشٍ سريعٍ خفيف! في التفرُّج اعتصامٌ عن كلِّ ما يلهينا وإفراطٌ في إطفاء حرائق القلب برماد السجائر. نتفرَّج عليك ملتزمين بالمقاطعة ومستمرّين في نشر صورك فوق حبلٍ يربط أوَّل «القرية الصغيرة» التي اسمها العالم، بآخرها. ونتساءل بيقينٍ كاملٍ من الجواب: لو كان العالم قريةً صغيرةً في الثلاثينيَّات والأربعينيَّات كما هو الآن، وشاهدنا بالبثّ المباشر آباء مقاوميك وأمَّهاتهم وأطفالهم يبادون ويهجَّرون، هل كانت النكبة لتحصل؟ أمَا كان الضمير أنقى يومها؟ لا شيء في كتب التاريخ عن النكبة يثبت أنَّ العالم كان أقلّ وحشيَّةً آنذاك. بقر البطون وحرق الأطفال هو نفسه. اليوم، وحدها الصواريخ صارت «أذكى» سرعة، وأقوى على إسقاط أحياءٍ بكاملها في أقلّ من دقيقة. لو أنَّ التواصل الرقميّ كان متاحًا، هل كان سيصدِّق الناجون من مجزرة دير ياسين أنَّ سبعة جيوشٍ عربيَّةٍ آتيةٌ لنصرتها، وأنَّ العودة لن تطول إلَّا أسابيع؟

«نحن تيَّسنا لما طلعنا» تقول مسنَّةٌ فلسطينيَّة، ويشرح لي آدم أنَّ «تيَّسنا» تعني قمنا بعملٍ غبيّ. «تيَّسنا لمَّا طلعنا واتَّهمنا من بقي تحت الاحتلال أنَّه خائن».

لكنَّ «الخائن» أنجب وأرضع الأجيال حليب الصمود. ومن هُجِّر بنى المخيَّمات وربَّى حفَّاري الأنفاق.

لا نكبة ثانيةً تقولين ليس لأنَّ البثَّ الحيّ يُحرج القاتل، بل لأنَّ الدم الحيّ يعبر من خرم الذاكرة، ويفتِّق جراحًا ما عاد ينفع رتقها. ونقول: لن تطول، لن تطول... ستجتمع المجالس في الشرق والغرب... سيُشهر حكام العالم القانون الدوليّ ويحصِّنوا به مبانيك، ونساءك، وشبابك، وأطفالك. لكنَّ الفيتو يُشهَر: «أكملوا الإبادة، حقُّكم في الدِّفاع عن أنفسكم من «غزَّة البربريَّة» مصانٌ وهو لنا أعلى المقدَّسات!»

«حسبي اللَّـه ونعم الوكيل» تهتفين. وترفعين سبّابة الشهادة: «لن نطالبكم بالتحرُّك لتدافعوا عن أطفال العروبة والإسلام من خلال تحريك جيوشكم ودبّاباتكم ـ لا سمح اللَّـه ـ ولا أن تدافعوا عن أقدس مقدَّساتكم التي تنتهك فيها الحرمات، من قبل شذَّاذ الآفاق خريجي معازل الغيتو، ولا أن تغضبوا لشتم نبيِّكم صلَّى اللَّـه عليه وسلَّم في قلب مسراه ومعراجه إلى السماء. لا نطالبكم بذلك فنحن أخذنا على عاتقنا كنس هذا الاحتلال وإساءة وجهه والقتال عن شرف أمّتنا وديننا ومقدَّساتنا وأرضنا بما نمتلك من إمكاناتٍ بين أيدينا صنعناها من الصفر وبنيناها من المستحيل. ولكن هل وصل بكم الضعف والعجز أنَّكم لا تستطيعون تحريك سيَّارات الإغاثة والمساعدات الإنسانيَّة إلى جزءٍ من أرضكم العربيَّة والإسلاميَّة الخالصة رغمًا عن هذا العدوّ المأزوم المهزوم، فهذا ما لا نستطيع فهمه وتفسيره».

توقَّفي عن بسط كفَّيْك يا غزَّة ولا تسألي: أين أنتم؟ كتاب السماء أنزل عليك الجواب: «أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوبٌ يعقلون

بها أو آذانٌ يسمعون بها فإنَّها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور».

نحن أمام مسرحٍ للدمى يا غزَّة. لكنَّها دمى ثقيلة الظلّ، ركيكة الأداء، مسطَّحة الدور، رغم ثراء الأثواب وبذخ الألقاب. لا بصمة لصوتها، ونصٌّ واحدٌ مكتوبٌ لها جميعًا بلا استثناء. أتسمعين القعقعة والنقيق؟ تارةً مأمأةٌ وطورًا عرير! لا ارتجال تبدعه لتظفر بلحظة تصفيق. ولا هيبة حضورٍ يفتقدها الضوء إذا غاب. ولا براعة لتمويه اليد الخفيَّة في الكواليس. الجمهور يترقَّب لحظة ذروةٍ بطوليَّةً تقطع مشاهد الهوان. احتشد الجمهور وانتظر، ولما صعقته ذروة الخيبة هجم على المسرح وقذف على الدمى كلّ ما اختزن من بصاق.

«لا سمح اللّـه» يا غزَّة أن تحظي الآن بنخوة أكتافٍ كُلِّلت بالنياشين على قدْرِ خنوعها المديد.

«لا سمح اللّـه» أن يواليك من أولى ظهره مئة عامٍ لفلسطين ووَالَى سلاطين المال حتّى فاقهم مذلَّة.

«لا سمح اللّـه» أن يركب خيله ويشقّ الصحراء لنجدتك من توّج نفسه فارسًا في ميادين البغاء.

«لا سمح اللّـه» يا غزَّة أن ينقلب إلى رجالِ أوطانٍ من تقاسموا فتات الاستعمار عقاراتٍ يديرونها سوقًا للقمار.

«لا سمح اللّـه» يا غزَّة أن يناصرك من حكّ جلده بغير ظفره حتّى هَرَشَ لحمه وامتصَّ دمه ـ على قلّته ـ فأكثرُ دمائه ماء.

«لا سمح اللّـه» يا غزَّة أن يذود عن المقدَّسات من بايع أعداء اللّـه وقتلة الأنبياء على السمع والطاعة ومطلق الولاء!

«لا سمح اللّـه» أن يخنق «رعاعٌ، أتباعُ كلّ ناعق» صوتك الهادر: «فدا القدس والأقصى، نموت ولا نرحل!»

أيَّتها البربريَّة البهيَّة، يا خيمة المنكوبين، يا ملجأ المغدورين، يا قلعة الفدائيِّين، يا أمّ الشهيد، يا أب المقاوم، يا جدَّة الأسير، يا حفيدة اللّاجئ، أتأملين بغير ما أيقنه غسّان: «حين نقف مع الإنسان، فذلك شيءٌ لا علاقة له بالدم واللحم وتذاكر الهويّة وجوازات السفر».

صدِّقي كَهْلَكِ الجريح الواقف أمام ركام بيته، أسمعت ما قاله؟ بل صاح بما بقي من صوته المشروخ: «هذه أمَّةٌ عربيَّةٌ مريضة، ونحن الآن نعالجها». ردَّد من بعده كثر: «غزَّة دواء العرب، غزَّة دواء البشر».

لم تسمعيهم. لم تبالي.. رحت ترسمين رمز الهويَّة في مثلَّثٍ أحمر تتلاقى أضلاعه على سهمٍ مدبَّب. أضلعٌ ثلاثٌ إذا تلاقت صوَّبت سهمها وفجَّرت العدوّ بكلِّ عتاده ودروعه المحصَّنة. المثلَّث الأحمر المقلوب، قلب رأسًا على عقب كلّ توصيفات الفرح وتشبيهاته واستعاراته. ليس كابتهاج طفلٍ برؤية الثلج لأوَّل مرَّة، ولا كتهليل امرأةٍ أنجبت بعد عقمٍ مزمن، ولا كغبطة أسيرٍ فُكَّت قيوده بعد أحكامٍ مؤبَّدة... كأنَّ الكون تدحرج ووصل حافة جرف، بنكزة إصبع قد يهوي أو ينجو، هكذا تقفز الروح ويرتجّ القلب عندما يضيء المثلَّث الأحمر ويتوقَّف الزمن برهة. حرارة الأحمر تؤطّر المسافة والهدف، وتصبح فلسطين أمامنا على مسافة همسة... الدبّابات تحترق والحديد يذوب وأشلاء العدوّ تتطاير وترتفع الأرض وقلوبنا بهتافك للّـه الأكبر. انتشاؤنا بالمثلَّث الأحمر ليس فقط لأنَّه يصيب العدوّ بمقتل، بل أيضًا لأنَّه في كلِّ مرَّةٍ يشعّ ويشتعل ويضرب، يصيب

بالضربة القاضية قهرنا وإحباطنا وأحزاننا وخوفنا من مستحيل أحلامنا برؤية فلسطين محرَّرة.

«وإنما تُنصَرون وتُرزَقون بضعفائكم»، تقولين، وبولّاعةٍ خفيفةٍ سعرها نصف دولارٍ تحرقين جرّافةً تزن أكثر من نصف طنٍّ وسعرها مليون دولار! مع أبطالك نصرخ في وجه العدوّ: «ما جمعك إلَّا بدد وما أيَّامك إلَّا عدد». وغير مكتفيةٍ بأمجاد أبطالك في الأنفاق، تمدِّين السواعد فوق أرضك لترفعي الأنقاض، وتباعدي الحجارة وتقاربي بين الأبدان وتعلي الأصوات: يللا يمّا... ما شاء اللّه عليك... يللا يا حجَّة... وتتَّحد الحناجر وتعلو الزغاريد. المشهد فرجةٌ للجميع! خمس ساعاتٍ ورجال الدفاع المدنيّ يحاولون إنقاذ مسنَّةٍ وقع الردم عليها وكاد الأوكسجين أن ينفد لكنَّها نفذت من بين الركام ورُفعت على الأكتاف وغُنّي لها: ستّ الحبايب يا حبيبة!

من أيِّ طينةٍ أنت يا غزَّة؟ وبأيِّ معدنٍ جبلتِ ناسك؟ كيف تنصبين للمستحيل مستقرًّا وأنت في كربٍ وترحٍ وضيق؟ نحن المحاصرون بالبلايا أيَّتها الحرَّة! لا نكاد نحزن ونبكي ونيأس، حتّى تهدهدي قلوبنا بالمسرَّة: لا قوَّة للصاروخ طالما القوَّة في الروح. وبحلاوة روحك تُسكِرين الموت فينسى عشاءه الكبير ولو إلى حين! وإذا سألنا أصغرك أو أكبرك: ألا تخاف؟ قال: بلى، لكنّ خوف الظالم أعظم!

«المجرم يأخذ كلّ لغات العالم وأنا لغتي كلّ سكوت العالم»

موفق الحجار

• ممّ يخاف الظالمون يا غزَّة؟

• من دعاءٍ للّـه الأكبر

• ... وهم أنداد اللّـه؟!

• من عَلَمٍ على بوّابة مخيّمي

• لكنَّ علَمَهم مغروسٌ في تربة القمر!

• ... من مقلاعٍ في يد طفلي،

من حجرٍ في قبصة عشّاقي،

من قصيدةٍ مفخّخةٍ بالثورة،

من أغنية ترفع الجباه،

من حريَّةٍ مسلوبةٍ يطلقها هتاف... يخافني الظالمون لأنِّي أعصي قانونهم الطبيعيّ، فلا أعجز ولا أشيخ وأحيا لحظةَ أموت.

- تبالغين... وأفهم غرورك... لنكن واقعيِّين... هؤلاء يخترعون أفيون الشيخوخة ومصل الخلود، لهم في المريخ مستوطنات. وَشَموا النجوم بأسمائهم ولهم فيها صكوك مِلْكيَّةٍ حصريَّة...
- أنا العقبة أمام حلمهم بالخلاص من الإنسانيَّة
- عالم ما بعد الإنسان تحقَّق وانتهى
- وما بعد الأوطان خريطة العالم الجديد
- 365 كيلومترًا مربَّعًا ليست عقبة
- أنا الجدار الأخير... إن عبَروني، لا خلاص لأيِّ إنسانٍ في الأرض، ولا أوطان.

لا أعلم تمامًا إذا كنت أنا من استدعاك أم أنت حللت في منامي تاركةً كلّ انشغالاتك لتجادليني هكذا. لم أتبيَّن بالضبط إن كنت جالسةً أم واقفة، ولا ما ترتدين. لم أهتمّ لكلِّ ذلك. كان همِّي رؤية وجهك وجلاء ملامحه أمامي. لكنَّ غشاءً أبيض حال بينه وبين عينيّ. كأنّ هيأتك ورداءَك وملامحَ وجهك صارت كلّها صوتك. صوتٌ لا ملائكيّ، ولا نبويّ، ولا إلهيّ، ولا أرضيّ. يخونني التوصيف ولا أشكّك بالرسالة. صوتك هذا قال لي إنَّ ضعفي وخوفي من صنع الشيطان. قسوتِ عليَّ يا غزَّة. لستُ قرينة الشيطان لأوسوس لك وأغويك بضلالي. رجوتك أن تحفري لي ممرًّا آمنًا لهروب كوابيسي. تحرَّك مقعدك فتهاوت منه ريشة طيرٍ وصارت سهمًا كاد يقترب منِّي. لم يكن ليصيبني كما ظننت. راح يتهادى. لا قانون يردعه عن الطواف طويلًا فيسقط، ولا قانون يردّه إلى مقعدك ريشًا للزينة. سهمٌ متردِّد؟ أم يتحيَّن الفرصة المثلى ليثقب حيثما يؤلم أكثر؟ ألاحق الريشة ـ السهم في طوافها فوق شيءٍ لزجٍ

وعكرٍ وشممت رائحة عفن. خطَّ السهمُ عمود نارٍ فقلت لي: الماء أصلُ النار. ورأيتك وفلسطين على مرايا نهرٍ سيّالٍ تتبدّدان ببطءٍ وهدوءٍ كغيمتَيْن. انطفأت إشارتك يا غزَّة وتبدَّدتِ من منامي قبل أن أسألك: أتريدين حقًّا مقاومة عالمٍ اكتمل فيه نصاب الباطل؟ بأيِّ سذاجةٍ توقَّعتِ أن يلجمه أحد؟! هل يمنع الضيمَ ذليلٌ يا غزَّة؟! فهذا يعزِّي «بضحايا» العدوّ، وذاك يغلق عليك معبر الخبز والماء، وذلك يمدّ الجسور في البرّ والفضاء لتعبر أساطيل الغرب بأمانٍ فتبيدك في أسرع وقت.

سيتوحَّشون أكثر يا غزَّة، سيتوحَّشون بعد للخروج من كمين تِشرينك. أجهزتِ على قطافٍ كادوا ينجون به لولا رصدك الدقيق للحظة نضوج الثمر. غافلتهم من مسافة صفرٍ وأحرقت سلالهم وأنقذت فلسطين من النسيان.

أكمل ما انقطع من جدالنا في المنام، لأقول: «لست أرى في الهتاف لوقف العدوان عليك سوى واجب الضمير لنصرة «الضحايا الضعفاء والمساكين»، وأنت لست ضحيَّةً ولا مسكينةً ولا ضعيفة. تلك الهتافات تبرئةٌ للذمم في العطاءات والإغاثات والهبات. تعاندين حججي وتقولين: «كلّ مناشدةٍ مكسب، ورهاني على النفَس الطويل ولن أعتاد العَوْد الأبديّ إلى حصارٍ وقمعٍ وتنكيل. ها هو طوفاني يتمدَّد صحوةً في الأردن، والمغرب وتونس ومصر والعراق واليمن وتركيا ولبنان، وفي بريطانيا وإسبانيا وبلجيكا وإيرلندا والبرازيل والبرتغال واليونان وقبرص وأميركا وأستراليا وهولندا وكندا وسلوفينيا وماليزيا وموريتانيا وبنغلادش، وسيريلانكا، والهند وأفغانستان.... بكلِّ اللغات يهتفون، من كلِّ الأعمار يتدافعون، من كلِّ الأعراق يتقاطرون. واليهود في الشتات ينضمُّون إلى طوفان الغضب. يدينون إخوانهم في الدين، أعداءهم في النهج».

حسنًا... ولكن ألا تتوجَّسين مثلي من شعار وقف إطلاق النار؟ ألم يكن السابع المجيد طوفانًا على ثبات ما طال من عذاباتٍ وما نُسي من ثوابتَ وما امتدَّ من إغاثات، وما حِيكَ من خططٍ تؤبّد تضحياتٍ لم تعُد تُرى ولا تُحسّ ولا يبالي بها أحد؟

أتريدين فقط وقف إطلاق النار، لتنجي كما في كلِّ حربٍ سابقةٍ وتبني ما هُدم وتصلّي على من استشهد وتعبّدي طرقاتك لهدمٍ جديد؟ أتريدين تعاطفًا إنسانيًا يضمن لك الأيض دون خطّ الجوع، ويقي العالم مرايا الذنوب؟ أوَقفٌ لإطلاق النار أم وقفٌ للبثّ المباشر ما يريده الغاضبون، فيطمئنّ الجميع ويعود الكلّ إلى سابق حياته، ولتبقي أنت تُبادين بالتقسيط، وتعيدين تدوير الحياة من ينابيع ملوَّثةٍ وهواءٍ مسمومٍ وحقولٍ عاقرٍ وحرِّيَّةٍ مرسومةٍ في كرّاسات الأطفال؟

لا تسيئي فهمي، أنتِ تحت النار وليس نحن. ولكن على أيِّ أساسٍ سيتمّ وقف النار؟ وما الذي يضمن ألا تعود الحياة بالقطّارة إلى مدنك وأحيائك وإلى مقايضة أهلك بين الموت البطيء والقتل الصامت أو الحرِّيَّة بشروطهم المذلَّة؟

أراك تتنهَّدين أمام كلماتي وتنظرين لأفقٍ لا يبدو ظاهرًا لغيرك، وتقولين: لقد عبرنا.. ما بعد ذلك اليوم المجيد لن يكون كما قبله. انتشلنا التاريخ من مساره الذليل.. نفضنا غبار عقودٍ عن حكايتنا المنسيّة في الرفّ السفليّ من مكتبة العالم.. «وقف النار» هو لجمٌ للهمجيَّة والعدوان ولن يغيّر شيئًا في حقيقةٍ ساطعةٍ مثل الشمس، شَقَّت صفوف الظلام في ذلك الصباح المجيد، لتغمر العالم وتذيب الصقيع عن ذاكرته وإرادته.

يحقّ لك أن تبتهجي وتتفاءلي بهذه الهبَّة الشعبيَّة العالميَّة... فأنين أوجاعك شقّ الحدود وأشلاء أطفالك جمّعت القلوب على الرحمة. لكنّي أخاف من هبّةٍ مثل كلّ الهبّات، عارضٌ من أعراض اضطراب ما بعد الصدمة، يتبعه انكفاءٌ ويأسٌ وعودةٌ إلى الترفيه المقدّس. هذه الكثافة والهمجيَّة والوحشيَّة معناها أن تسأمي المحاولات، أن تتوبي مرَّةً واحدةً وإلى الأبد، أن تردّي الطوفان إلى منبعه وتطمري ثغره بالتراب وأن تهرولي إلى وقف النار، وأنت تحفرين في ندبة الخيبة من خذلان إخوتك في الدين. هؤلاء الذين لا رجاء منهم. جرَّبتهم ألف مرَّة. توقَّفي عن مناشدتهم. هم اليوم أسوأ من كلِّ مرَّة. يودُّون لو تكفرين بالمقاومة وبالسلاح كما كفروا هم، لو تموتين بصمتٍ كما ماتوا هم من دون تكليف العدوّ رصاصةً واحدة. يَدُهم على السكين منذ ما قبل النكبة يغرزونه أعمق وأعمق، وباليد الأخرى يصافحون ويساومون ويحلّلون المحرَّمات ويقدّسون المدنَّس.

إنَّهم يشاهدونك الآن، في المستشفيات تسعفين، وفي الركام تحفرين، وفي مراكز الإيواء تفترشين الخيام والملاعب، وفي الطرقات ترصفين الأكفان، وفي روزنامة العدوان تحصين سبعة آلاف صاروخٍ سقطت عليك، وأربعة آلاف طنٍّ من القنابل وخمسين طنًّا من المتفجّرات على كلِّ كيلومترٍ مربَّعٍ من أرضك، وفي قوائم الشهداء تسجّلين ثمانية آلافٍ وثلاثمئة وستّة شهداء وما يزيد عن واحدٍ وعشرين ألف جريحٍ في شهرٍ واحد!

ارفعي يدك عن تلك الندبة يا غزَّة، ستختفي من تلقاء نفسها. فطوفانك يتمدَّد وجبهات الإسناد ستحرق خريطة الشرق الأوسط

الجديد منزوع السيادة غزير الهوان. ستكثر المجازر يا غزَّة، وستُهدَمين لتصبحي سجّادة رمادٍ صالحةً للاستثمار الأجنبيّ وممرًّا حيويًّا يثري أفقر الأرواح.

وفِّري طاقتك واستعدّي. فعقابك لن يتوقَّف والذريعة مباركةٌ منهم، لردّ الصاع صاعَيْن «للمخرِّبين الذين قطعوا رؤوس الأطفال في الكيبوتسات، والذين اتَّخذوا من المدنيِّين دروعًا بشريَّةً وحوَّلوا المستشفيات والمدارس والمساجد ومراكز الإيواء إلى مخابئ ومخازن أسلحةٍ ومنصّات صواريخ!»

ستسمعينهم يلومونك أكثر وأكثر على تنامي كراهية العرب والمسلمين في معاقل «الحضارة وحقوق الإنسان»، «فالإرهاب» الذي مارسته على «الدولة الديمقراطيَّة الوحيدة في الشرق الأوسط»، أشعل في قلب «تحرُّريٍّ راديكاليٍّ متديِّنٍ للغاية وخائبٍ من فوضى العالم» بارود الانتقام فأطلق الرصاص على شِباك الصيد وأوراق الزيتون في كوفيَّةٍ تزيِّن أكتاف ثلاثة طلّابٍ فلسطينيِّين في أميركا. نجا بأعجوبةٍ كلّ من هشام عورتاني، وكنان عبد الحميد، وتحسين أحمد. التحقيق في الحادثة استقرَّ على خلاصةٍ واحدة: المهاجم يعاني من اضطراب فرط الحركة ونقص الانتباه! واستقرَّت رصاصةٌ في العمود الفقريّ لأحد الشبّان. قد لا يتمكّن من الوقوف مرَّةً أخرى! ماذا لو انتظر هذا «الخائب من فوضى العالم» حتّى اليوم التالي؟ هل كان سيرتكب فعلته؟ أم سيمنعه نقص الانتباه من قراءة نفي صحيفة هآرتس لحادثة قطع رؤوس الأطفال، وتأكيدها على أنَّ نصف القتلى والمصابين في السابع من أكتوبر هم من الجنود ورجال الشرطة؟

تسقط الذريعة وتنفضح الكذبة، لكنَّ المذبحة تستمرّ ويعلو ضجيج الصمت عليها ويتضخَّم الدَّعم السرِّيّ لها.

لا نعلم متى سيبدأ التوغُّل البرِّيّ. فالنتن يتوعَّد ويؤجِّل. حبس المتفرِّجون أنفاسهم أيَّامًا وليالي. ماذا سيحدث لو دخلوا برًّا؟ قلَّةٌ لم تفقد الذاكرة. في سرِّها تمنَّت تكرار الصهاينة لحماقتهم فيسيروا إلى جحيمهم في دهاليز جباليا وحي الزيتون والشجاعية وكلّ زقاقٍ فيك مفخَّخ بالبواسل.

«أهلًا وسهلًا بكم في رحاب الجحيم» قلتِ لهم. فانطفأت الأضواء عن مسرح الجريمة. انتهى وقت الفرجة على العدوان الجوّيّ. توغَّلوا في الظلام إلى شمالك. مرحبًا بالخيال يسطو علينا، ويجرف البيوت ويهدم طوابق على بعضها بعضًا، ويحرق ويسحل وينثر الأشلاء.

كان علينا انتظار صباحٍ آخر لنلاحق مراسليك من حيٍّ إلى حيّ. لا بدَّ من كبس لايك، على صور الأجساد المحترقة والأطراف المبتورة. الديسلايك محظور، يقطع التواصل، يسبِّب الأذى، يحدّ من الرواج. اضغطوا زرّ «أعجبني» على الجريمة المفضوحة والمشهد المبدع في واقعيَّته. التعليق داعمٌ إضافيّ، فاقذفوا ما طاب لكم من السباب، وأفرغوا ما اعتمل فيكم من غضبٍ ولا تألفوا المشهد.

كيف نألف عمليَّاتٍ قيصريَّةً لحوامل من دون تخدير؟ وعمليَّاتٍ جراحيَّةً في الدماغ وبتر أطراف الأطفال من دون تخدير؟ كيف نألف مشهد الديدان وهي تنغل في الجروح؟ نقصٌ في المياه النظيفة، نقصٌ في اليود، في أمصال الملح وفي المسكّنات. إبادةٌ طبّيَّةٌ كاملة الشروط! طواقم الإسعاف والممرّضون والأطبَّاء والصيدليَّات ومراكز الرعاية

الطبّيّة والمستوصفات تحت النار والحصار والحرمان من المستلزمات الطبّيّة الأساسيّة التي تضمن التعافي أو حتّى البقاء على قيد الحياة. منع دخول الوقود حرم المستشفيات من الكهرباء لتشغيل المكيّفات ممّا فاقم في الجروح وسط الحرارة المرتفعة.

كيف نألف يا غزّة مقامات الوجع في صوتك:

- أنا حاملٌ وأتمنّى أن يبقى طفلي في أحشائي فلا ألد قبل أن تنتهي الحرب.
- أنا مريضٌ بالسكّريّ لم أتناول دوائي منذ بداية المجازر. لم أجد الدواء في أيّ مكان. وكلّ الصيدليّات تحت الركام. أحاول البقاء سليمًا وبصحّةٍ جيّدةٍ لكنّي لا أعرف إلى متى.
- عندي ربوٌ ونجوت من القصف. لكنَّ الغبار الكثيف يقتلني ببطء. لا دواء مهما كان فعّالًا قادرٌ على إنقاذي من الاختناق. أين أجد هواءً ونسمة حياة؟
- أنا طفلٌ أخاف من الليل. صوت الصواريخ يشتدّ لكنّي أطمئنّ فطالما أنّي أسمع الصاروخ، ما زلت حيًّا.
- اسمي زهرة. قتلوا طفلي. أحتضن جسده البارد والميّت ولا أريد إفلاته.
- اسمي سلمى. على يدي دم أطفالي. لن أغسلهما فهذا الدم هو كلّ ما تبقّى لي منهم.
- للأسف أصبحنا نختار بين المرضى. لا يتمّ إنعاش المصابين بالسكتة القلبيَّة من أجل إنقاذ من لدَيْه فرصةٌ أكبر بالحياة

ونحدِّد استخدام التنفُّس الاصطناعيّ بحسب فرصة المريض في النجاة من الموت.

- أعطي الأطفال الشاش المعقّم لكي يعضُّوا عليه أثناء الجراحة، فلا سبيل آخر لتخفيف الألم الذي يشعرون به، والذي يفوق قدرتهم على التحمُّل في هذه السنّ المبكرة.

بصورك وكلماتك حرثت الأراضي الرقميَّة وحصدت الغلال ووزَّعتها على العالم فغرق أمراء الإقطاع الرقميّ في إفلاسٍ فادح! سطوت على الفضاء الافتراضيّ، صانع كائنات ما بعد الإنسان، مموّهِ البشاعات ومُجَمّلِها، مصمّم المنابر لأشهر الأغبياء، مبرمج الإدمان على الجهل، حارس التفاهة، المَدير العامّ للانحراف، والرئيس التنفيذيّ لدعارة الأطفال.

هذا الفضاء تحتلينه الآن ليسمع صراخك من به صمم، ويرى أشلاءك من به عمى إراديٌّ مزمن. بضاعتهم رُدَّت إليهم. بأدواتهم الرقميَّة تكشفين عدوانًا برّيًّا وافتراضيًّا على السَّواء. حاولوا الحجب والتزييف. فانتصر لك رفاقك الافتراضيُّون ولم يكلُّوا المحاولة لاختراق الحجْب والتحايل على الخوارزميّات، وما عاد وضع النقاط على الحروف ضروريًّا. الإبادة تُرى وتُقرأ من دون التباسٍ عاريةً من النقاط.

ونبحث عن نقطةٍ أخيرةٍ لسيلان دمك يا غزَّة. إلى متى ستبقى هذه الفواصل بين سطور عذاباتك الأطول من ملحمة؟ لا حدَّ لطوفاني تقولين، هو بداية الخاتمة للسيرة والنبوَّة.

نحتاج إلى فاصلةٍ بيننا وبين الشاشة. لنخرج يا آدم ونتسكَّع على الكورنيش. نترك التلفاز مضاءً تعويضًا عن ذنب هجرانك. ذنب التوق

إلى هواءٍ نخاله نظيفًا. ذنب دعمك بصمت... الهاتف في الجيب وفي العينَيْن شهوة دمعٍ يغسل دم القهر.

الكورنيش في حيّنا طويل. عائلاتٌ تفترش العشب وتغبّ من سلالها الحلوى والمقرمشات، وتفلت أطفالها على عجلات اللعب مطمئنّةً إلى سلامتهم مهما ابتعدوا. ما عدت أرى الأطفال إلّا أشلاءً حتى وهم كاملون يا غزّة. وأرتعب من حقدي على كلّ طفلٍ يلعب ويضحك فيما أطفالك ممزّقون أو مفقودون. أهذا فعلُ الظالمين بي؟ أم فعلُ عجزي وإسقاطٌ لغضبي على غير المذنبين؟ أم أنَّ روحي ما زالت أمام التلفاز وما أنا التي تمشي سوى فيزياء تتفاعل ميكانيكيًّا بلا تمييز؟

أحملق في وجوه الأمّهات والآباء، أعبس فيهم، أتضحكون وتتسامرون وغزّة تُباد؟ آدم يتفرّس في الأصوات: هؤلاء فلسطينيُّون، وهذه العائلة سوريّة... وهؤلاء من الأردن. تلك عادته كلّما مشينا وصادفنا أشخاصًا جالسين على حافة الكورنيش أو يعبرون وهم يتحادثون. تكفيه كلمةٌ أو نبرة صوتٍ ليطبع الختم على مكان الولادة. لم أجد داعيًا لسؤاله إذا كان يَستاء مثلي لرؤيتهم يمارسون حياتهم كالمعتاد. أعرف الجواب سلفًا. لن يحرّر فلسطين إلّا أهلها في الداخل. لا رهان على شخوصٍ ومجتمعاتٍ تشكّلت بمحض الصدفة أو لملء فراغٍ فوق التراب.

نمشي بصمت. تتلاقى أصابعنا كأنّنا نخشى الضياع. نستريح على البلاط البارد. ندخّن ونتفقّد هواتفنا. مجزرةٌ جديدةٌ أم مثلّثٌ أحمر؟ ننتصب لنكمل المشي ونحدّد مسارنا الأقرب إلى البيت. لن نحتمل الابتعاد عنك أكثر. الشاشة بانتظارنا. أحملق في فضلاتٍ متناثرةٍ على الرصيف وحول كعوب النخيل... لا يسعفني نظري لقراءة الماركات

لكنّي أعرف لون البيبسي من سواد لياليك، ورائحة المقرمشات من رائحة لحمك المحروق، وأعرف قشور ألواح الشوكولا من جلود أطفالك المسلوخة. يقال إنَّ كره الذات دافعٌ خفيٌّ لكره الآخرين. ألهذا ألعن الآباء والأمّهات المتحلّقين حول طاولةٍ يفوح منها بذخُ جائعٍ استجدَّت عليه النعم فلا قَنَعَ ولا شكَر؟ ألهذا ألعن الهجرة والمهاجرين، المؤقّتين منهم والدَّائمين، الطوعيِّين والقسريِّين؟ كأنَّ الخسارات التي كابدوها في أوطانهم لم تترك متَّسعًا لألمِ سواهم! ملقَّحون بأمانِ الهجرة: سرّ السعادة في فنّ اللّامبالاة، ومن بعدنا الطوفان!

أكره أنّي قادرةٌ على المشي والأكل والنوم وشراء حاجيَّاتي. هكذا بكلّ بساطةٍ تستمرّ حياتي؟

«من ليس لدَيْه ما يقدّمه للحياة يأخذ منها» يتمتم آدم ويحثّ خطاي لنبتعد ونتخفَّف من نفاياتٍ علقت على أحذيتنا وفي أذهاننا. الشمس انقذفت إلى القسم الآخر من الكوكب. ندخل البيت وصوت التلفاز يلعلع بالانفجارات. الشاشة رماديَّة. في خلفيَّة المشهد حريقٌ وأربعة مسعفين ينزلون منحدرًا قبضاتهم تمسك بحمّالةٍ تترنَّح بطفلَيْن متعانقَيْن وبصوتٍ واحدٍ يهتفان: شكرًا عمُّو إسعاف، منحبكم... منحبكم كثير!

ليسا في رحلةٍ إلى حديقة. ليسا موعودَيْن بالتزحلق على الثلج أو بركوب طيّارة. هما فقط خارجان للتوّ من بيتٍ كاد، لولا الإسعاف، أن يقبرهما أحياء.

نرتمي على الكنبة. بيننا مسافةٌ آمنة. لا أعرف متى أصابتنا معضلة القنافذ يا غزَّة. لم نَعُد نجلس متقاربَيْن كي ندفأ من صقيع الخوف.

أشواك الألم فينا ستغرز في الآخر ونحن نتفرَّج على أجسامٍ تتلاصق لترتقي أرواحها دفعةً واحدة. لا أحد يموت وحيدًا في غزَّة يقولون. حتّى فاقدو البصر والسمع يعرفون من أنفاس أحبَّائهم متى يصفّر الصاروخ ويتناثر الفوسفور الأبيض. يتلاصقون لينجوا معًا أو يموتوا.

هل نتعشَّى؟ في الصالون أو في المطبخ؟ زيتٌ ولبنةٌ وزيتونٌ أطيب ما يكون ونحن نشاهدك تمتشقين الياسين 105 وتسندينه على حبل الغسيل لتشعلي دبّابة. تختفي أشواكنا ونتبادل قبلةً سريعة.. نتجادل حول قذائف الهاون. لا تبرّد قلبي. نراها تنقذف ولا نرى أين تسقط. أدمنت احتراق الدبّابات بمن فيها. هيّا يا غزَّة، يا باذخة العطش، يا جوعنا المزمن، أكرمينا من نارك التي لا تنطفئ.

التوغل البرّيّ يتقدَّم. والآليَّات تجرف المدن، وإشعاراتٌ بالنزوح والإخلاء تتهاوى على رأسك، والصواريخ تدكّ المستوطنات والدبّابات تقصف أحياءك، ومبانيك تهوي كأنَّها من كرتون.

كاد تشرينك الأوَّل أن ينقضي وتنقضي معه آمالنا بحربٍ قصيرة. توقّعناه كالبوفيه المفتوح، له ساعاتٌ وأيَّامٌ محدّدةٌ تُشبع أكثر النهمين شراهةً على اللحم النيِّئ أو الفخذ المحروق! يبدو هذه المرَّة أكثر لذاذة. لاقى إعجابًا عالميًّا من كبار الكروش، فلننقله إلى الضفَّة إذن! مستوطنون يتوعَّدون إخوتك في الدم بنكبةٍ جديدة. «إنَّها فرصتكم الأخيرة للفرار من الضفَّة الغربيَّة. بعدها سنقتل أعداءنا ونطردهم من الأرض المقدَّسة التي وعدها اللّـه لنا».

التهجير مطلبٌ أوَّل. شبح النكبة يعود. لن نرحل تصرخين وتجرّين أطفالك في عربة بعجلتَيْن. تعبرين الممرّ الآمن. فيسقط

الصاروخ ويُذرّ الرماد في العيون: «عمليّاتنا دقيقةٌ ومحدَّدةٌ وتستهدف الإرهابيّين»، «المخرّبون يتَّخذون من النساء والأطفال دروعًا بشريَّة»!

نفهم رفضك للتهجير خارج حدودك، لكن أن ترفضي النزوح فهذا كثير علينا هضمه يا غزَّة! تعصين أوامر الاحتلال. باقيةٌ في جباليا والشجاعية وحيّ الزيتون وبيت لاهيا. لو تفتَّتت البيوت وهدّت السقوف تظلّين برأسك: نصرٌ أو استشهاد! من يوم يومك تكبّرين الحجر. العالم لا يحتمل كلّ هذا يا غزَّة. تفضَّلي. النتن بلسانه يقول: «قادة العالم يتفهَّمون ما تقوم به تل أبيب، وحربنا امتحانٌ للإنسانيَّة جميعًا، سنحقّق نبوءة إشعياء، فنحن أولاد النور وهم أولاد الظلام وسوف ننتصر».

نعم قادة العالم يتفهَّمون، لا خيار آخر لهم إلّا بإصدار صكّ براءةٍ للقاتل المأجور الذي أقسم بالولاء للكوجيتو العريق: «أنا أبيدُ إذًا أنا موجود». نعم، قادة العالم يتفهَّمون أن تبييض السجون الصهيونيَّة من الأسرى الفلسطينيّين مطلب «وقح» من «مخرّبي السلام ومنتهكي سيادة الكيان!» ويحك يا غزَّة! كيف تجرئين؟ هذا ردُّهم على فجاجة مطالبك: 7028 شهيدًا بينهم 2913 طفلًا و1709 نساء. إصابة 18 ألف و500 شخصٍ إضافةً إلى 1500 مفقودٍ في أقلّ من شهر!

تحت الردم جثثٌ لا يستطيع أحدٌ انتشالها. سيّارات الإسعاف والدفاع المدنيّ تُلاحَق وتُقصَف. انقطعت السُّبل بين مدنك وأحيائك. غبارٌ يسدّ الرؤية والصدور. اقتحاماتٌ لمخيّمات الضفَّة. قصف لحيفا وإيلات وعسقلان. القبَّة الحديديَّة مربكةٌ أمام دفق الصواريخ. وجنوب لبنان يُعمي العدوّ ويشعل الحرائق في أعمدة الرصد والتجسُّس.

بأفواهٍ فاغرةٍ نلاحق «مقلوبة الدبّابات» تحت نار المثلَّث الأحمر. عيوننا لا تكفي لاحتواء كلّ هذا الذهول! قلوبنا شوارعُ بلا إشارات مرور، يرتطم الفرح بالأسى، والقهر يصدم الغبطة، والأمل يمعس اليأس، والهلع يقذفنا إلى رصيفٍ لا يتَّسع لانتظار ما سيحدث بعد!

قصيرةٌ أنفاسنا يا غزَّة. اعتدنا اللهاث إلى خواتيم سريعة. لماذا تمطِّين شرايين القلب إلى أبعد من احتمالنا؟ نريد أن يتوقَّف كلّ هذا الجنون! لن نفتح هواتفنا ولا التلفزيون. خلص. هكذا يختفي كلّ شيء. المشكلة هي في التفرُّج. لنتوقَّف إذًا. لكن قبل ذلك سأترك كلمةً للعالم المتفرِّج وفاقد الصبر مثلي. سأرجوه أن يعود إلى تفاهاته، إلى تعليمنا أصول أكل موزة، وإتيكيت الردّ على الهاتف، والخطوات الخمس لننعم بوهم السعادة، والحيل الثلاث لطرد الناس التوكسيك. سأتوسَّل إليه ليعود بنا إلى الوجوه المفلترة، وإلى فوتوشوب البشاعات، وإلى أسرار الشباب الدائم زيفًا، وإلى دفاعه المستميت عن حقّ الأطفال في التحوُّل الجنسيّ!

أرجوك أيُّها العالم... عُدْ إلى تفاهاتك كلّها، إلى خدائعك الناعمة، إلى انحطاطك البطيء. على الأقلّ كان لدَيْنا الخيار في رمي هواتفنا الذكيَّة لنقرأ كتابًا أو نسمع أغنيةً أو نقول صباح الخير مبتسمين! على الأقلّ كان لدَيْنا بعض الإيمان بأنَّ فطرة الإنسان أذكى من «ريتينغ المؤثِّرين» ونردِّد واثقين: لا يصحّ إلَّا الصحيح ولو بعد حين.

ألا ترى ما حصل لك، وكيف انقلب عليك ذكاؤك الاصطناعيّ، وكيف سقط «جدارك الآمن» أمام شبح؟! اخترعت التزييف العميق فكشف هشاشتك، صوَّرت الأرنب نمرًا فنهشك حيًّا، ونحن على

المقلب الآخر من الصورة نتفرَّج على وهمك يتبدَّد أمام عينَيْك، ونسمع ارتعاش عملائك ليس لصحوة ضميرٍ أو مروءة «لا سمح اللّـه»، بل لأنَّ ما بِعتَه لهم بأعلى الأثمان تطاير أشلاءً بفعل مظلَّةٍ تصلح للنزهات! أيُّها العالم، عُد إلى تفاهاتك أرجوك، لعلَّك تحفظ ما تبقَّى لك من وجود».

ما أغباني! أليس الأجدى أن أخاطبكِ أنتِ فأقول عودي إلى رشدك واسمعي كلمة الاحتلال؟! لكنَّ حظوظي بأن تطيعيني أقلّ بكثيرٍ من أن يطيعني العالم! التفاهة مغرية. أقرّ. كنت أتصبَّب خوفًا عند كتابة هذا النصّ. خوفًا منهم وخوفًا عليك. الخوف وحده دفع بي إلى استجداء العالم ليضعنا مجدَّدًا في ذلك الصندوق الكبير، الزاخر بالأبواب، حيث نمارس ملء حرّيَّتنا في فتح أيِّ بابٍ نريد، واختيار المعركة التي نريدها شرط ألّا نخرج من الصندوق.

نعلم أنَّنا محشورون جميعًا في الصندوق، بل دخلنا إليه بكامل إرادتنا موعودين بعوالم موازيةٍ نختار منها ما يحاكي أمانينا أو رجاءنا للخلاص من وعيٍ أعياه التيقّظ. مكتبة سُر مَن قرأ

لا أحد تخيَّل أنَّك، من بعيد، كنت ترقبيننا هائمين على وجوهنا في متاهة الأبواب وعالم المرايا الذكيَّة التي تشفط الزمن أسرع من مكنسة دايسون. صلَّيتِ الفجر وعبرت عمق الصندوق كما تعبر خاطرةٌ في البال. لم ينتبه أحد، ولم يسمع خطوك أحدٌ وحين مسَّت يدك ذلك الباب وفتحته لم يُسمع له صرير. أطاح به دفق الطوفان وانجرف كلّ من في الصندوق إليك. وتعطَّلت آلة العوالم الواهية فجأةً ومن دون إنذار.

لا. لن يعود العالم إلى تفاهاته يا غزَّة. من بنوا الصندوق وشغَّلوه وأداروه لن يتفرَّجوا على صنيعهم يتبدَّد. الوحوش الجدد واسعو الحيلة

وأمكر من أسلافهم، حليقو الذقن حريريّو الملبس أنيقو الطلّة، عطرهم فوّاحٌ ولسانهم يلعق الدم عسلًا. اغرفي من شطّتك اللّاذعة يا غزَّة ومرّغي شفاههم كما يؤدَّب الأشقياء إذا نطقوا بالمحرَّمات. وليسحق طوفانك الصندوق كخردة، فلا يعود ما كان قبله: الجحيم بهيئة جنّة، والشيطان بهيئة ملاك، والوحش بهيئة إنسان.

سأقفل هاتفي الآن. وسأغمض عينيّ على آخر صورةٍ لك وأنت تدفنين شهداءك وتوفيق زيّاد ينشد لك:

«طويلٌ كالمدى نَفَسي
وأتقنُ حرفة النمل.
على مهلي!
لأنَّ وظيفة التاريخ...
أن يمشي كما نُملي!!
طغاة الأرض حضرنا نهايتهم
سنجزيهم بما أبقوا
نطيل حبالهم، لا كي نطيل حياتهم
لكن..
لتكفيهم
ليَنْشَنِقوا...!!»

في الجنَّة توجد غزَّة جديدةٌ بلا حصارٍ تتشكَّل الآن

هبة أبو الندى

صحوت اليوم وسردت في هذه العبارة. رأيت أطفالك يتسلَّقون أطرافهم المبتورة ليبلغوا الجنَّة، يجذبون إلى أطيافهم الشفيفة نجماتٍ ومجرَّاتٍ ليبنوا غزَّة جديدةً فتكتمل الجنَّة وتستحقّ اسمها. سرعان ما غاب هذا المشهد من خاطري. لست أدري إن كان خيالي قد أصيب بتشوُّهٍ أو بواقعيَّةٍ صادمة. عجزت عن رؤية الجنَّة مرتعًا للأطفال أو خلاصًا من الجحيم الأرضي أو بديلًا عن غزَّة التي يحبُّونها! رأيتني أسأل الإله العليم القابض الباسط الخافض الرافع، كم طفلًا تسع جنَّتك؟ أتوقَّعت كلّ هذه الأعداد؟ ألهذا تركت نصفهم تحت الركام إلى حين اكتمال بنيان غزَّة الجديدة في جنَّتك؟ ورأيتك توبّخينني وإلى ربّك تقولين: «خذ حتّى ترضى».

ويرتقون. ويطوفون. وأسمع أصواتهم وهم يقتربون من كهلٍ جالسٍ في سكون. أحد أطفالك يقول لآخر: إذا كان اللّـه في غزَّة، فمن هذا وماذا يفعل هنا؟

• اللّـه هنا وهناك وفي كلِّ مكانٍ يناجيه مؤمن. أجابه رفيقه.

• تعال نتأكَّد... نشدّ لحيته، قد تكون اصطناعيَّة. من صوته سنعرف إذا كان هو نفسه الذي يقبض على يد أبي حين يقذف الصاروخ...

• لا، لن نزعجه... لا بدَّ يخطِّط لأمرٍ كبير...

• لكنِّي أريد سؤاله إن كان أبي بخير.

راودت الفتى الأكبر رغبةَ الاقتراب من الكهل وسؤاله عن أمورٍ كثيرة. لكنَّه تهيَّب الموقف. لن ينطق السيِّد بكلمة، فقد ختم كلَّ الكلام منذ آلاف السنين. لن يجدي نفعًا سؤاله لماذا يحدث كلّ هذا بعدما اصطفاهم وأسلافهم، ليكونوا للحقّ جنودًا وللعدالة شهداء. شيءٌ كنسمةٍ لفح بشرودِ الفتى الأكبر. طيف فتاةٍ مَرّ. لم يستطع الإمساك بها متَّجهةً كالسَّهم إلى حيث يجلس الكهل سائلةً إيَّاه: أختي الصغيرة أضاعت رأسها، هل رأيتها؟ لحقها آخر ليسأله: أين قاعات أهلنا وكبار السنّ؟

لا شيء ممَّا قالوه جعل الكهل يرفع عينَيْه. كأنَّ تلك المخلوقات هي آخر من توقَّع رؤيتها هنا. حين انشقَّت شفتاه، جفل الصغار وتراجعوا خطواتٍ إلى الخلف. فاحت رائحةٌ نتنةٌ من أنفاس الكهل الغامض، وراح يتكلّم كأنَّه يحدِّث غريمًا غائبًا: «أبهذه الكائنات تتحدَّاني؟ إنَّها أجرأ المخلوقات على طرح الأسئلة الشائكة! ماذا أقول لهم الآن؟ إنِّي لست ربّ العالمين وهذا المكان المضجر يهين جبروتي؟! حاصرتَني هنا كما يوضع مجرمٌ في ساحة الجريمة. أنت تعلم كم أكره الأطفال وأكره تخيُّلاتي عنهم وهم يكبرون مؤمنين أنَّك أنفذ إرادة، وأحكم تدبيرًا،

وأوقع عقوبةً من الماكرين. صحيحٌ أنَّ ضعف جنودي خذلني لكنّي لن أستسلم لهذا العقاب، وسأبقى أنتظر رجالك لأسحقهم لحظة وصولهم هنا!»

كيف وصل خيالي إلى هذا البؤس في تصوُّر الشيطان حبيسًا في الجنَّة وأطفالك حوله يعذّبونه بوجودهم أحياءً عند ربّهم! أهرب من الشيطان الفالت فوق أرضك فيلاحقني في تخيُّلاتي عن الجنَّة. لا. أطفالك الأشقياء يرفضون غزَّة جديدةً في الجنَّة. أرواحهم تشي لهم بألف حيلةٍ للتسلُّل إلى ساحةٍ يطيب لهم فيها استكمال لعبة عربٍ ويهود. خفيفون بلا أقدامٍ ولا أيدٍ. بلا ملامح تدلّ عليهم. وغير مرئيِّين. بإمكانهم الوصول إلى أينما يريدون. فتوقَّعي منهم البدع. اصبري.

إنَّه اليوم الثالث من الشهر الثاني للعدوان. حصار مستشفى الشفاء بمن يأوي من مرضى وأطبّاء وممرّضين وأربعين ألف نازحٍ وأطفالٍ خدّج. قلنا: الآن «انْشَنَقوا»! سيُحكَم الحبل حول عنق الصهاينة، سيثور العالم بالتأكيد، وهو يتابع على الهواء مباشرة قصف سيّارات الإسعاف المتَّجهة إلى معبر رفح لإنقاذ المرضى والجرحى! سيسمع الجميع مزاعم الصهاينة عن استخدام المقاومة لسيّارات الإسعاف. وسيسخط قادة الشرق والغرب عندما تعلن وزيرة الصحّة الفلسطينيَّة مي الكيلة دفن أكثر من مئة جثَّةٍ داخل المجمَّع الطبّيّ لتعذّر إقامة مقبرةٍ جماعيَّةٍ في فنائه المحاصَر بالدبّابات.

ستجتمع مجالسٌ عربيَّةٌ عند مشاهدتهم مدير وزارة الصحّة في غزَّة منير البرش ينهار على الهواء، وهو يقول: «عندما أطلق الاحتلال صواريخه على الأماكن المحيطة بالمستشفى هرعت الكلاب المسعورة

إلى داخل المستشفى، فوجدت الجثث وراحت تنهش منها ونحن ننظر إليها، لا نستطيع ردعها. هل ترضى الأمَّة العربيَّة والإسلاميَّة ذلك؟»

سنقول «انشنقوا» عندما فقدت منظَّمة الصحّة العالميَّة الاتّصال بالمستشفى وأعلنت أنَّ تسعةً وثلاثين رضيعًا على وشك الموت في الحاضنات!

لكنَّك قلتها يا غزَّة: لا سمح اللَّـه. وقالها بعدك من أسعفك على استدامة نفوضك، صاحب مستشفى المهدي للولادة الدكتور باسل المهدي. قرأنا جميعًا ما كتبه قبل أيَّامٍ من استشهاده: «ما في حدا رح يموت ناقص عمر، بس في ناس رح تموت ناقصة كرامة ناقصة إنسانيَّة ناقصة مبدأ. خبتم وخابت عروبتكم ولا حياكم اللَّـه ولا سامحكم اللَّـه».

ناقصو الكرامة وناقصو الإنسانيَّة يترقَّبون صحَّة المعلومات التي كشفها الجربوع طويل الأذنين حين قدّم قبل أسبوعَيْن صورة مجسَّمٍ ثلاثيّ الأبعاد لمجمَّع الشفاء مؤكِّدًا (لهم) أنَّ قيادة حماس تختبئ فيه. الأولويَّة الآن للمهمَّة الأسمى! لا وقت ليضيّعوه في مشاهدة ذلك الرجل الذي تنتفخ عروق الدم في عنقه ويتصبَّب عرقًا، عيناه في الكاميرا، ويده المرفوعة ترافق صوته المجروح: «أطنانٌ من الباطون واقعةٌ على الأطفال وعم نسمع أصواتهم وهو يصرخوا: منشان اللَّـه طلعونا. كلُّهم أطفال. حسبي اللَّـه على كلِّ واحدٍ قاعد يشوفنا ومش بيعمل اشي. كبيركم يكتب كلمة على الفيس وكبيركم بيعمل مظاهرات. يا عمي نحن بدناش أكل بدناش شرب. وقفوا العدوان منشان الأطفال بس».

الأطفال العالقون تحت الأنقاض أدركوا أنَّهم ممنوعون حتّى من بلوغ الجنَّة!

كلّ القنوات والمواقع ستخبر ناقصي الكرامة عن استشهاد خمسة عشر شخصًا وإصابة ستّين آخرين بقصف محيط المستشفى. سيشاهدون تدمير أجزاءٍ منه وإصابة قسم الولادة، واستهداف لوحات الطاقة الشمسيَّة على أسطح المستشفى للقضاء على آخر موارد الطاقة بعد الحصار وانقطاع الوقود.

سيردِّدون مع الصهاينة «لقد أعذر من أنذر». فهم واثقون من أخلاقيَّات العدوّ التي دفعته دائمًا إلى إنذار الناس بالإخلاء. «دبري راسك يا غزَّة» من دون سيَّارات إسعافٍ أو أيّ وسيلة نقل، أَخلي المستشفى من المصابين والجرحى وانفذي بجلدك! جرّي حاضنات الأطفال الخدّج واحملي على أكتافك المرضى بأجهزة التنفُّس الاصطناعيّ وفرّي من المكان وأريحي «ضمير» العدوّ لينجز مهمَّته الأسمى. لن نستغلّ هذا الوقت الحرج ونسألك لماذا تستمرّين في إنجاب الأطفال وأنت تعرفين أنَّهم سيقتلون في الحرب! لن نناقش الآن هذا السلوك. قلنا لك مرارًا ارحمي الطفولة ووفّري نسلك لما بعد السلام ونحن نضمن لك أفضل الممارسات السلميَّة وفق أعلى المعايير الدوليَّة!

عنيدة!

خمسون ألف امرأةٍ حامل، خمسة آلافٍ منهنَّ في الشهر الأخير من الحمل. الحمل المنتظر عشر سنواتٍ وأكثر، الحمل بالإخصاب الصناعيّ، حملٌ أوَّل أو حملٌ أخير، لا فرق، فالعنف الإنجابيّ واحدٌ لتتوبي عن خصبك يا غزَّة، يا أرض مئة نوعٍ من الورود. الفوسفور الأبيض سيتكفَّل بخنق كلّ جنين، وحرق كلّ البذار كي لا تنبت أزهار، وليكن تاريخ الميلاد تاريخ الممات، لا غذاء ولا إيواء ولا مسكّنات

ولا أوكسجين، إجهادٌ من النزوح ونزيفٌ ثمّ إجهاضٌ أو ولادةٌ عسيرةٌ فاستشهاد!

في المستشفيات، في المدارس، في المساجد، في مراكز الإيواء، في الأرحام أو في الأحلام، أينما وُجد طفلٌ وجب قتله. خمسة وعشرون طفلًا في العناية المركّزة بمستشفى الرنتيسي مهدَّدون بالموت. صواريخ مركَّزةٌ وجِّهت إلى هذا المستشفى الخاصّ بالأطفال وفيه ستّة آلاف نازح. مدير المستشفى مصطفى الكحلوت يناشد العالم التدخُّل لمنع استهداف المستشفياتِ ويحذّر من كارثةٍ صحِّيَّةٍ وشيكة. العالم يقوم بواجبه، لا تخافي يا غزَّة. إنَّه يراك. ويعرب عن قلقه. ويتساءل ماذا ستفعلين بثمانية عشر ألف طفلٍ يتيم.

مع اشتداد القصف والغزو البرّيّ والنزوح فُقد أكثر من ستّة آلاف طفل. كتبتِ أسماءهم على الحجارة وعلى أعلى الركام كوعدٍ لهم بأن تعودي لتبحثي عنهم. تحمدلين وأنت ترفعين رضيعةً ولدت مع طوفانك المجيد، طمرها الردم سبعةً وثلاثين يومًا. كيف يعيش كائنٌ بكلّ هذه الهشاشة من دون طعامٍ ولا هواءٍ لأكثر من شهر؟ العالم المؤمن بموت الإله وبالفردوس الأرضيّ يتفرّج ويصيبه صداعٌ فلسفيّ: هل من «إنسانٍ خارق» بلا عنايةٍ إلهيّة؟ لا العقل الأجنبيّ ولا حتميّات علومه تستوعب معجزة الحياة في أصغر كائناتك، وأثر دعائك على ردّ البلاء وحكمة صبرك في احتمال المنايا.

«أطفالٌ كثرٌ يأتوننا وهم الناجون الوحيدون من عائلاتهم، أربعة أطفالٍ ولدوا بعمليّاتٍ قيصريَّةٍ من دون أمَّهاتهم» تقول ممرّضةٌ في مجمّع الشفاء المحاصر. عنيدةٌ زهورك يا غزَّة. سنرى الرضيع حسن مشمش

يُنتشَل من حضن أمّه الشهيدة تحت الركام. وسنعرف أنَّ أباه أيضًا استشهد. ها هو في قسم الحضانة، يتولّى الطاقم التمريضيّ رعايته مداورة. وأخوه المصاب ترعاه جدَّته في قسم الأطفال، وتعرف أنَّ نسلها مثل القرنفل يصبر على العطش ويقاوم الآفات وسيقانه تحتمل الرياح العاتية.

ويطلع علينا أبٌ مكلوم ليُخبرنا: «دفنت ابني رامي مرَّتَيْن، الأولى عام 2014 عندما قصفت إسرائيل بيتي. بعد ثلاث سنواتٍ أنجبت زوجتي صبيًّا آخر أسميناه أيضًا «رامي». استشهد في هذه الحرب مع زوجتي وبقيت وحدي أبحث عن قصفٍ يرسلني إليهما».

محظوظٌ أبو رامي بإيجاد جثث أحبَّائه. كم من كفنٍ ستكتبين عليه «مجهول». وكم من جثامين ممزَّقةٍ ستحفظينها في الثلّاجات بانتظار أن يأتي أحدٌ ويتعرَّف عليها من سوارٍ ما زال معلَّقًا في معصمٍ متفحّمٍ أو من وحمةٍ بارزةٍ أو من بقايا اسم لاعب كرة قدمٍ على قميصٍ محترق. «هيدي أمّي هيدي أمّي. بعرفها من شعرها!» ستصرخ تالين. وستقرئين لنا رسالةً عثرت عليها في جيب شهيد: «عندما تنتهي الحرب سنتزوَّج وستنبت الأرض زهورًا ورحمك سيحمل أجمل فتاةٍ في الكون ستشبهك وستحبّني».

ستروي لنا الشابّة ملاك الدبش عن ابن عمّها عُمر: «عمره 31 سنة، مهندس... تمنَّيت أن أتزوَّجه من اللحظة التي عرفت فيها معنى الزواج. في بداية الأحداث كتب لي في رسالة: يؤذيني سماع صراخك كلَّما علت أصوات القصف. اصبري واحتسبي واستعدّي لإتمام خطبتنا فور انتهاء الحرب. يومها ختمت القرآن كلّه في ليلةٍ واحدةٍ حتّى أتقرَّب

من ربِّنا وحتّى تنتهي الحرب وأتزوَّج عمر. اليوم مات عمر. طلبت أن أراه للمرَّة الأخيرة. عندما اقتربت منه لم أجد عمر، بل كومة لحم. قالوا لي هذا عمر».

وسيصلنا صوت الصحفيَّة آيات خضورة كسبحةٍ انفرطت خرزاتها، تتناثر بين رشقات الرصاص وتنزلق على سيل دموعها. آيات ختمت إطلالاتها اليوميَّة: «هذا آخر فيديو لي ربما» قالت، فنالت من حدسها ما صدق ونالت من كيد العدوّ ما خشيت حين كتبت: «لدينا أحلامٌ كبيرة.. لكنَّ أحلامنا الآن أن نستشهد جسدًا واحدًا، وليس أشلاء».

تقطيع الأجساد، بتر الأطراف، حرق الجلد وتحلُّل العظام، إنجازات الترسانة الحربيَّة الجديدة! «الجثامين غريبة» يقول المكفّنون، تأتينا جماجم مُفرغةٌ من الداخل. وعلى تخومك، جماجم كثيرةٌ تتحدَّث عن هدنة، وعن قمَّةٍ طارئةٍ موعدها بعد أسبوع! أرأيتهم كيف يدخلون القصر باسمين. التكنولوجيا الحديثة خصَّتهم بكماماتٍ لا تُرى بالعين المجرَّدة. ها هم يرتدونها حفاظًا على صحَّتهم من رواسب البارود والكبريت والغازات السامّة المنبعثة من شهدائك. الصحراء حمّالة سموم!

يتحدَّثون عن هدنة. عن فاصلٍ نستريح فيه من التفرُّج، وتتهيَّئين فيها لإبادةٍ أكثر تشويقًا! لكن لا هدنة قبل القضاء على الشفاء. فهناك معقل المقاومة تحت حاضنات الأطفال الخدّج. وهناك أطبّاء لم يغادروا المجمَّع كما نصحهم الاحتلال. الدكتور همام اللوح، طبيب الكُلى الوحيد لدَيْك، قال للسي إن إن، «ما يحصل هو حكمٌ بالإعدام»! سألته المذيعة لماذا لا تغادر قال: «إذا غادرت من سيعالج المرضى؟

إنَّهم ليسوا حيوانات، لدَيْهم الحقّ في الحصول على الرعاية الصحّيَّة المناسبة. هل تعتقدين أنّني درست الطبّ أكثر من 14 عامًا لأفكّر في حياتي وأترك المرضى؟ لا. لن أغادر».

لم يرق لهم همام. طاردوه إلى منزل أهل زوجته بجوار مستشفى الشفاء وقتلوه مع والده. هكذا غادرك من وصفتِه بمنارة النور...

صلَّيتِ عليه، وواصلتِ رصف الأكفان في الشوارع والباحات فيما ترتصف أصواتٌ وأجسامٌ في مدن العالم هاتفةً باسمك. كوفيَّةٌ وعلمٌ وحزّ بطيخ، تجوب المدن. فضائح تنشر على كلّ المواقع: 250 دولارًا تدفعها «إسرائيل» لكلّ طالبٍ في واشنطن كي يتظاهر ويدعم الإبادة. مبالغ طائلةٌ تدفع لمرتزقةٍ أجانب للمشاركة في العدوان، ولصنّاع محتوى يهاجمون افتراضيًّا مقاومتك.

ممنوعٌ أن تحتكري العناد يا غزَّة. عدوُّك أيضًا مصرٌّ على تحرير أسراه! ويجب الاعتراف بشيمه فهو يمهل وينذر. ها هو يتَّصل بالدكتور منير البرش ليطمئنّ على وضع مجمّع الشفاء قبل اقتحامه.

«دير بالك» قال له المدير العامّ لوزارة الصحَّة. كلّ المباني قصفت ولا أحد فيها. لا أحد في مبنى الأشعّة وقسم القلب في المبنى التخصُّصيّ.. لا أحد فيه. دير بالك.. مبنى الكلى مليءٌ بالمرضى، حوالي ستّين مريضًا يمكثون فيه مع الكوادر الطبّيَّة ونازحين. سترى مشهدًا لم تره في حياتك. ستتعثَّر بأناسٍ في باحة الاستقبال والممرَّات. هؤلاء مدنيّون نزحوا إلى المستشفى على أساس أنَّه آمن. دير بالك... بمجرَّد أنَّهم علموا بمجيئكم ارتعبوا من أن يتعرَّضوا لمجزرةٍ كالآخرين. عندما تأتي انظر إلى يسارك هناك حفرةٌ لثمانين شهيدًا. أقول لك ذلك

لتكون في الصورة... هؤلاء مصابون ماتوا. أطفالٌ ماتوا. نازحون ماتوا وكنَّا نناشد الأمم المتّحدة والصليبِ الأحمر على مدى عشرين يومًا، لكنَّهم جميعهم قالوا لنا إنَّكم ترفضون مساعدتنا. على يمينك أيضًا مئة جثَّةٍ متحلِّلةٍ والرائحة كريهةٌ جدًّا. حفرنا حفرةً عميقةً لدفن الضحايا. تقول لي أن أدير بالي؟ أنا قاعدٌ هنا مع الناس وجاهزٌ لكلِّ شيءٍ المهمّ ألا يتأذّى المرضى... المستشفى مفتوحٌ لكم، افعلوا به ما تريدون لكن قبل دخولكم اعلموا أنَّ الناس من نازحين ومصابين يملؤون كلَّ شبرٍ فيه. لا. لا أحد في قسم الولادة.. وعلى يمينك قسم معالجة الحروق. هناك مرضى محروقون».

ستترجم كلمات البرش إلى لغات العالم، لكنَّها لن تزلزل الأرض ولن تبتلع من فيها من قادة. من سيردع جيشًا صار قاب قوسَيْن أو أدنى من عدوِّه؟! الفرصة الذهبيَّة ماثلةٌ أمامهم! مقرّ قيادة المقاومة تحت مجمَّع الشفاء! هيّا لنقتحم وننهي المسألة. فنحن لا نهوى إراقة الدماء سدًى! سنقطع الكهرباء والإنترنت حفاظًا على قلوب المشاهدين، وسنحرص على التخفيف من الأضرار الجانبيَّة مع وجود ألفٍ وخمسمئة شخصٍ من الطاقم الطبيّ داخل المجمَّع الطبّيّ وسبعمئة مريضٍ ومصاب، وسبعة آلاف نازحٍ وتسعةٍ وثلاثين من الأطفال الخُدَّج!

لا أحد سيصدِّق شهود العيان داخل المستشفى. لقد انقطعت المشاهد عن البثّ الحيّ. لا مصداقيَّة لأيِّ كلامٍ عبر الهاتف (قد يكون لا يدين حماس) طالما لا دليل للتفرُّج على اقتحام الاحتلال لمبنى الأمراض الباطنيَّة والكلى، وطلبه من المصابين والمرضى الخروج، وإطلاقه النار داخل المستشفى، وتفجيره مستودعًا للأدوية!

الجيش صاحب أرفع تكنولوجيا في عالم الاستخبارات يعرف كيف يهيّئ «عمليّةً دقيقةً ومركّزةً ومحدَّدة الأهداف». هل لمشرف الطوارئ في المجمَّع، عمر زقوت، أيّ موقعٍ من الإعراب في نادي الكبار ليصدِّقه العالم حين يصف عبر الهاتف كيف تمَّ استدعاء النازحين إلى باحة المجمَّع وأُجبروا على خلع ملابسهم وقُيِّدت أيديهم وعُصّبت عيونهم؟ قد يكون زقوت من حماس!

حسنًا. لنجرّب وائل الدحدوح فهو على الأقلّ أصبح ترندًا عالميًّا بعد اغتيال عائلته! من خان يونس سيطلّ علينا ليقول إنَّ الاحتلال قصف مبنى الجراحات التخصُّصيَّة وهناك أعمال تفجيرٍ في القبو لأجهزة التصوير الرنين والطبقيّ والأشعة التحويليَّة. كما اقتادت قوّة جيش الاحتلال نحو ثلاثين مواطنًا فلسطينيًّا من القبو إلى قسم الكلى المجاور لقسم الجراحات واعتقلت ثلاثةً من موظَّفي الصيانة للأجهزة ولا أحد يعلم إلى أين أخذوهم.

منه سنعرف أنَّ هناك نحو 15 دبّابةً وغيرها الكثير في محيط المجمَّع لردع أيِّ أحدٍ من الخروج أو حتّى الاقتراب من النوافذ. إنَّها حربٌ على المستشفيات منذ عدَّة أيَّام، يقول: «منذ وصول الدبّابات إلى مشارف المستشفيات في غرب غزَّة بدأت بتجفيف المنابع كالوقود والمستلزمات الطبّيّة، فأصبح كلّ من مستشفى القدس ومركز الإسعافات التابع للهلال الأحمر ومستشفى الرنتيسي للأطفال ومستشفى العيون ومركز الصحّة النفسيَّة في حصارٍ كامل، وهي جميعها على خطٍّ واحد، خطّ النصر وخطّ الشفاء».

الاحتلال في المرصاد للدحدوح. فكلامه ينمّ عن معاداة الساميّة! ها هو فيديو الاقتحام ينشر وينتشر. ها هي أسلحتك بالقرب من جهاز

الرَّنين المغناطيسيّ، وهنا كمبيوتر ولباسٌ عسكريٌّ وخوذةٌ لمقاوم. أيَّة هفوةٍ هذه يا غزَّة!؟ لا شكَّ أنَّك ارتبكت ونسيت محو أثرك في المستشفى.

شكرًا لهذا الفاصل الترفيهيّ! أرأيت؟ أطفالك ليسوا في الجنَّة. ذهبوا في مهمَّةٍ تخريبيَّة. زرعوا عبواتٍ ناسفةً للمنطق. حفروا حفرةً واسعةً فسقط العالم فيها. ها هي ضحكاتهم تدوي في حناجرنا. حتّى أنت نسيت جراحك ورحت تقهقهين.

قناة فوكس نيوز الأميركيَّة، جالت في المجمَّع فحظينا بفاصلٍ ترفيهيٍّ جديد. المفارقات الواضحة بين الشريطَيْن المصوَّرَيْن فضحت التلاعب بالمكان وزرع «الأدلّة» الكاذبة. لم يشغلني شيءٌ آخر سوى تخيُّل وجوه من يصدِّق أنَّ «إسرائيل» من أقوى «الدول» ومن تدهشه عظمة تقنيّاتها وذكائها الاستخباريّ! أيُّ ورطةٍ هم فيها الآن أمام هذه المهزلة؟ وماذا سيفعلون مع حليفٍ يطلّ على الشاشة ليقول: «اعتقدنا بوجود أسرى في مستشفى الشفاء، لكنَّنا لم نعثر على أحد»!

الجربوع طويل الأذنَيْن يطلّ علينا مزهوًّا بكنزٍ اكتشفه في مستشفى الرنتيسي. قبوٌ آخر يشكِّل دليلًا على استخدام المقاومة للمستشفيات «ها هي قائمةٌ بتفاصيل عمليَّة طوفان الأقصى»! كلّ الكون وبكلّ اللُّغات تابع ذاك المشهد السورياليّ للجربوع أمام القائمة المكتوبة باللغة العربيَّة. كل من لديْه صفحةٌ على مواقع التواصل الاجتماعيّ عرض القائمة وترجمها وفضح حماقته! كدنا ننسى المجازر والشهداء الذين فاق عددهم عشرة آلاف، كدنا نغفل عن شبح الجوع الذي يطاردك ونحن نتتبّع بشراهة الجائعين إلى عدالة الأرض، كلّ صورةٍ وتعليقٍ ومشهدٍ يتندَّر على مشهد قائمة هاغاري!

المجد لغبائهم! تباركت حماقاتهم. دعواتنا الصادقة أن يُربّى الغباء في كنفهم عزيزًا مكرّمًا، فينمو ويكبر ويتناسل إلى ما لا نهاية. ما أجمله من غباء! لا قرين له. جبّارٌ بملمسٍ حريريٍّ يدغدغ قلوبنا. أجمل ما فيه عدم انحيازه لجمهورٍ واحد، يجذب كلّ الأعمار والجنسيّات. لا غموض في لغته ولا لبس ولا مواربة. غباءٌ شفّافٌ كامل النقاء!

ارقصي أيّتها الجريحة! اقرعي الطبول لاستعراضاتٍ مشوّقةٍ ستتوالى تارةً من حفرةٍ لمحرّكات مصعد، وطورًا من لوحةٍ لشبكة كهرباء واتّصالات، ولخزّان مياه... «لكنّ الملك عارٍ» ستردّد جماهير الكون مع أطفالك الصاعدين إلى الجنّة بعد نجاح المهمّة. لا أنفاق تحت مستشفياتك ولا أسلحة ولا من يحزنون!

ليس حياؤهم ما سيُميتهم، بل ذلك العري الخالص لغبائهم. لم يَعُد يكفي القول «إن لم تستح فافعل ما شئت»، فهؤلاء لا يقيمون أيّ اعتبارٍ لمن يضبطهم متلبّسين بإجرامهم وحماقاتهم. بالنّسبة لهم الجحيم ليس الآخرين، وبالتالي لا يشعرون بأيّ حياءٍ أو إحراجٍ أو عار. لقد «ولدوا قبل العار» ليكونوا أباه وأمّه، أنجبوه وصقلوه ونحتوه بكلّ دقّة، مستعينين بحرفيّة المستعمر الأبيض، مستلهمين أدواته وحلوله الحاسمة كما عبّر وزير «التراث» في حكومتهم حين اقترح ضربك بقنبلة نوويّة، وأيّده حاخام صفد مناشدًا جنود الاحتلال: «ضعوا الأخلاق جانبًا ودمّروا غزّة».

أنت الآن كما في كلّ عدوان، الشاهد والمشهود على متوالية عاره. تدمير المستشفيات واعتقال الجرحى والأطبّاء، سلخ جلود الجثامين لاستخدامها في ترميم جلود مرضاهم، سرقة أعضاء الشهداء

لزرعها في أجسادهم، حرق الأطفال بالأسلحة المحرَّمة، اغتصابهم وأسرهم... ليس في أفعالهم تلك أيّ إبداع، بل استنساخٌ لما في كتبهم من تعاليم سطّرت في التاريخ ملاحم العار المطلق!

ليست أرضك مقبرةً للغزاة فقط يا غزَّة، فأياديك العارية التي تحفر عميقًا في الردم لتُمسك بإصبعٍ صغير مرفوعٍ للشهادة أو بقدمٍ لم تتعلَّم المشي بعد، تزيل التراب عن شاهدةٍ كتب عليها: هنا مقبرةٌ جماعيَّةٌ لكلّ القِيَم والأخلاق والقوانين والمواثيق والدساتير العالميَّة.

لا أعلم إذا كنت رأيت قبل سنواتٍ كيف أخفى ساحرٌ معبودٌ من الجماهير تمثال الحرِّيَّة الأميركيّ. تذكَّرت المشهد اليوم وأنا أراك بلا حيلةٍ سحريَّةٍ تمحين كلّ صروح «الحضارة» الغربيَّة. حقوق الطفل؟ في مستشفى الشفاء مئةٌ وعشرون طفلًا مصابًا، كلٌّ منهم هو الناجي الوحيد لعائلته. ليس لدَيْهم أحدٌ من الأقرباء على قيد الحياة. الأطفال الخدّج مات منهم ثلاثة، وسبعةٌ وثلاثون ممَّن بقوا على قيد الحياة ملفوفون بالمناشف والحرامات، متلاصقون ليدفؤوا، فالحاضنات - ككلّ مرافق المستشفى- محرومةٌ من الوقود والكهرباء وأجهزة الأوكسجين. حقوق المرأة؟ الحوامل يشربن الماء الملوّث، ويأكلن المعلَّبات ويستخدمن الحمّام المشترك مع آلاف النازحين وينجبن قبل موعدهنّ بسبب الصدمات! حقوق الإنسان؟ ملاجئ الأونروا تضمّ ستمئة ألف نازحٍ ما يفوق قدرتها الاستيعابيَّة بتسع مرَّات. وهناك مرحاضٌ واحدٌ لكلِّ مئةٍ وستِّين نازحًا، ووحدة استحمامٍ واحدةٌ لكلِّ سبعمئة نازح.

الكذب ملح الغرب. زبدٌ يرغي في أفواههم. رئيس وزراء السويد قال على الهواء مباشرة: يحقّ لإسرائيل الإبادة. علتْ صيحات الجمهور.

تنَّبه إلى زلَّة لسانه، فقال مستدركًا: ...الدفاع عن نفسها! محامو «إسرائيل» فقدوا السيطرة على ألسنتهم. باتت تنطق بما يضمرون على غفلةٍ منهم. دهشة السويديّ من انزلاق لسانه ذكّرتنا بصدمة جيم كاري حين قال الحقيقة لأوَّل مرَّةٍ في حياته رغمًا عنه، محقِّقًا أمنية ابنه من دون قصد. مشهدٌ من فيلمٍ طريفٍ غنيٍّ بالمعاني عن محامٍ يكسب كلّ قضاياه عن طريق الكذب ويعاني من لحظة صدقٍ تداهمه على غفلة.

ملح الغرب يذوب. وجمهوره الذي تدرَّب طويلًا على تقديس رفاهية الجسد يبحث الآن مع الطفل أحمد شعفاط عن قدمَيْه المبتورتَيْن، ويراهما تهرولان إلى مبنى الأمم المتَّحدة ومجلس الأمن ومجلس حقوق الإنسان، تخلعان الباب وترفسان الكراسيّ وتخبطان المايكروفونات، فيصدح صوت الدكتور غسّان أبو ستة: «لا كيتامين ولا مورفين ولا ترامادول ولا حتّى خلّ لتطهير الجروح». جيل الصورة يرفع أطراف أطفالك المبتورة ويلوّح بها للضمائر أن اصحي من الغيبوبة. هل رأيت كيف عُلِّقت القلوب كالمصل فوق سرير الرضيع يحيى؟ كيف يحيا من ارتعب في الرَّحم وخرج منه مكرهًا وبنصف قلب؟

من غضبَ وتظاهرَ وهتفَ باسمك، كان ربَّما على يقينٍ أنَّ العالم أعور، والحرِّيَّة تُتأتِئ، والعدالة مصابةٌ بصممٍ جزئيّ. فقبل أشهرٍ تظاهروا ضدّ قتل جورج فلويد، وضدّ قمم المناخ، وضدّ الكمامات وضدّ اللقاحات. الآن مصدومون، لا لرؤية أشلائك فهذا العدوان ليس الأوَّل، لكنَّه الأطول. للمدَّة الزمنيَّة تأثير! مصدومون بعدما رأوا في عيني ميلر وكيربي التحلُّل الذاتيّ للإنسان. ورأوا على وجوه النتن وسموتريتش وبن غفير وقطعان المستوطنين، يرقات الحقد تشقّ الجلد لتأكلهم أحياء. مصدومون من رؤية حكّامهم «يجادلونك في الحقّ بعدما تبيّن»

ويشكّكون بموتك وينكرون سرقة جثمانك. هالهم مشهد تفحّم الإنسان الأبيض حارس الحرّيّات وهّاب الفرص وعرّاب «المتفوّقين»!

ارتعبوا من عدد العائلات التي شطبت من سجلّك المدنيّ. طبعوا الأسماء وفرشوا القائمة سجّادةً طويلةً على الأرض واعتصموا حولها في ساحات مدنهم. تناقلوا مشهد طفلتك ماريا الخارجة من بين الأنقاض، وهي تحفر بيدَيْها وتساعد المسعفين على إزالة الركام. ماريا «الجدعة» عمرها سبع سنواتٍ يُحتفى بشجاعتها قبل نجاتها، تطمئننا أنّها بخير وتسأل: هل أخرجتم أخي؟ وأين أمّي؟

سيترجمون ما قاله ذاك الطفل في طولكرم متَحدّيًا الاحتلال: «إنت بدّك تطلعنا من دارنا. فش. شو ما تجيب جرافات وجيبات وآليّات ربّنا حامينا. هيدي أرضنا وعرضنا ودارنا». سيُقال له: قد يدخل العدوّ إلى المخيّم. يهزّ كتفَيْه ويقول: «ليدخلوا. عادي. نصبح شهداء؟ يجي بعدنا ناس يقاوموا ويكسروا خشمهم!»

إلى أيّ عالم نفسٍ سيلجؤون ليفكّكوا هذه الأقوال؟ سمعوا الدكتور عدنان البرش يقول «أدّيْنا الرسالة وأجرنا على اللّـه». وشاهدوا ابنةً لك تصف قتلة الأطفال بالفئران، «جبناء، إرادتهم ضعيفةٌ وأسلحتهم نزلت علينا كالماء لأنّها نزلت من أيدٍ خائفةٍ أيدٍ فاشلةٍ أيدٍ مرخية!»

يشاهدونك محترقةً مدمَّرةً مبتورةً مفجوعةً بموت أهلك، ويتوقّعون منك السقوط والانهيار والاستسلام، فتباغتيهم بمناجاتك: «الحمداللّـه»، «رضينا بمشيئة اللّـه، يا ربّ ارضَ عنّا»، «حسبي اللّـه ونعم الوكيل».

يشاهدون ابنةً لك لا يتجاوز عمرها العشر سنواتٍ تمدّ ذراعها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة لتواسي أختها الصغرى الجاثية أمامها مفجوعةً

بفقدانها، فيتذكَّرون أنفسهم كيف يكتئبون لخسارة وظيفةٍ أو حبّ، وكيف يلتهمون الحبوب المهدِّئة كالسكاكر ليناموا من دون كوابيس الماضي.

سيترجمون ما تقولينه لابنتك الصغرى: «جدّك يبلغ من العمر ثمانين عامًا، وقد نزح مرَّتَيْن، وأنت تبلغين من العمر ثمانية أعوام، وقد نزحت مرَّةً واحدة.. اللّـه معنا، ونحن أقوياء، وسننتصر ونعود إلى ديارنا، إن شاء اللّـه. ورغم كلّ الشُّهداء والأسرى والجرحى والصعاب، لن نستسلم أبدًا». سينشرون هذا المشهد على منصّاتهم، ويتذكَّرون كيف فكَّروا بالانتحار بعد فقدان أمٍّ أو زوجٍ أو طفل. ما هذه العبارة التي تردِّدينها وأنت أرملة شهيدٍ وابنة شهيدٍ وزوجة شهيد، وقيد الشهادة!؟ شهقوا وبكوا على شاشاتنا. قرؤوا لنا بلغتهم آياتٍ قرآنيَّة. لبسوا الحجاب وأشهروا إسلامهم. قلنا: إنَّها تداعيات الصدمة، ضجَّة وتزول، ترند وتتلاشى، موضة وتنسى... لكنَّهم استمرُّوا وازداد عددهم.

اللّـه الذي طردوه من دساتيرهم، وجدوه في حضنك لاجئًا.

كانوا ينتظرون «المخلّص» كلَّما أصابتهم نكسةٌ عاطفيَّة، والآن يسألونك أيّ إلهٍ تعبدين لتكوني بهذه «النفسيَّة»؟ وما هذا الكتاب الواحد الذي تقرئين كي لا تكتئبي مثلهم؟

«لا إله إلَّا اللّـه» ردَّدوا معك واعتذروا منك: لا إرهاب في إسلامٍ يقول كتابه: «وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ.» أسلمت الأميركيَّة ميجان رايس، صانعة محتوى على تيك توك، وأنشأت نادي الكتاب العالميّ لقراءة القرآن الكريم. أخرى من سلالة البيض صرّحت: «تفاجأت وأنا أقرأ القرآن أنَّ الغرب كذبوا علينا، وأنَّ الفلسطينيِّين شعبٌ مؤمنٌ لذلك قرَّرت اعتناق الإسلام لأنَّه دين سلام».

طوفانك جرف أكاذيب الغرب وأغرق سرديَّته الرهابيَّة عن العرب، وبدَّد مليارات الدولارات لنشر فوبيا الإسلام. وبدأ يقال: متلازمة غزَّة أصابت العالم ولا لقاح يجدي ولا علاج يشفي. فكان لا بدَّ من هدنة! لا بدَّ من تأجيلٍ قسريٍّ للمجازر. لا بدَّ من وقتٍ مستقطعٍ لإعادة ضبط سلوكيَّاتٍ فقدت تبريراتها. ولا بدَّ من هدنةٍ علّ اليمن يرتدع بعد دخوله المعركة نصرةً لك واختطافه سفينة شحنٍ في البحر الأحمر لارتباطها بمصالح تجاريَّةٍ صهيونيَّة. لا بدَّ من هدنةٍ بعدما امتدَّ قتل الشهود إلى لبنان واستشهدت الصحفيَّة فرح عمر والمصوّر ربيع معماري والمواطن حسين عقيل، وجرح آخرون في قصف على الجنوب.

أتخشين مثلنا تلك الهدنة يا غزَّة؟

إذا قيل لأيِّ إنسانٍ ماذا تودُّ أن تفعل قبل موتك المحتوم بعد يومَيْن، بماذا يجيب؟

- سأركب أوَّل طائرةٍ لأجوب العالم.
- سأعانق من أحبّ للمرَّة الأخيرة.
- سأعتذر لمن أسأت إليه.
- سأتبرَّع بممتلكاتي لجهةٍ خيريَّة.
- سأتناول طعامًا حرمت نفسي منه لسنوات.
- سأجرِّب الحشيشة.
- سأفرغ قارورة خمرٍ في رأسي.
- سأمارس كلّ الرياضات الخطرة التي تجنَّبتها خوفًا على حياتي.
- سأتزوَّج من أحببت لليلةٍ واحدة.
- سأطلب لقاء فنّاني المفضّل.

• سأستحمّ وأرتدي أجمل ثيابي وسأطلب من أمّي أن يكون وجهها آخر ما أغمض عيني عليه.

لا شيء من كلّ هذه الأمنيات متاحُ لك يا غزّة. فماذا ستفعلين خلال هذه الفسحة المؤقّتة بين هدنةٍ واستشهاد؟ ترمّمين نفقًا؟ تشبعين بطون أطفالك قبل المجزرة الآتية؟ تزيلين الدود عن جرح؟ تدفنين أشلاءً مرميّةً على الأرصفة؟ ترتقين ثوب الصلاة لموت يليق بك؟

ثقيلٌ عبء البقاء على قيد مجزرة. ثقيلٌ هذا الخوف ممّا بعد الهدنة. تكثرين من توقّعاتك وأسئلتك. تأملين تمديد الهدنة أسابيع حتّى يتوقّف العدوان. الصحفيُّون على أرضك ينقلون أمنيّاتك بفرصةٍ للعودة إلى بيتك المهدّم والاطمئنان على الأهل والجيران الذين لم ينزحوا. سنسمعك تعترفين بالذنب لتركك ابنةً لك تئنّ تحت الركام في جباليا، كان الرصاص ينهمر عليك ويجبرك على النزوح. قلت لأحدهم ستبحثين عن قبر حفيداتك المدفونات في مجمّع الشفاء، ستعرفينهن لأنّك كتبت أسماءهنّ على أيديهنّ كي لا يدفنّ مع المجهولين.. سنراك تصلّين كي يأتيك المخاض خلال أيّام الهدنة الأربعة لتضمني خروجك بأمانٍ وتوفير كلّ الحاجيّات اللّازمة لمولودك الجديد. سنسمعك تتمنّين بأن يكون صوتك أوّل صوتٍ تسمعه ابنتك وليس صوت الصاروخ.

غمرنا بعض العزاء. ستحضّرين ملابس الشتاء لصغارك المرتجفين بردًا وخوفًا في حضنك، وستقصدين بحرك. افركي جسمك بالرمل وجدّدي خلايا غضبك، كما سنفعل نحن في هذا الوقت المستقطع من مسلسل إبادتك.

نتوجّس من الهدنة، ممّا يسبقها وممّا سيليها. سيفرغ العدوّ كلّ أحقاده بقصفٍ جنونيٍّ قبل موعد سريانها. كجمرتَيْن نجلس آدم وأنا أمام الشاشة. جمرتان لا تجرؤان على التقارب حتّى لا تحتكّ شعلة الأمل بفتيل الخوف. نتباعد ليتمرَّغ كلٌّ منّا برمادك ونخفي نارنا الكامنة. نكاد نرى قلبك يتلوّى أمامنا، هنا كدماتٌ وهنا حروقٌ وهنا تورّمٌ وهنا جرحٌ يكاد يصرخ وهنا خفقانٌ مثابرٌ شقيٌّ يلاعب الموت ويقذف الكرات في الهواء ويلتقطها ساعة يشاء.

سلامٌ عليك يا غزَّة. لا تبكي كثيرًا حتّى لا تخفّ أحزانك. ولا تدعي البحر يذيب ملح دموعك... إنَّها هدنةٌ مؤقّتة!

«الويل للإنسان الذي لا يرى إلَّا القناع،
الويل للإنسان الذي لا يرى إلَّا الشيء المخفيَّ تحته،
فالإنسان الذي يمتلك الرؤية الحقيقيَّة هو الوحيد
الذي يرى في اللحظة نفسها وفي ومضةٍ واحدةٍ القناع
الجميل والوجه المخيف القابع وراءه».

نيكوس كازانتزاكيس

لأوَّل مرَّةٍ منذ بدء العدوان عليك، أكلنا من دون أن نغصّ الذنوب، ونمنا مطمئنّين على ساعاتٍ مقبلةٍ عليك بأمانٍ مؤقّت. وكنَّا نستعدّ للتفرُّج على انفراجٍ يأتيك بالطحين والماء ومسكّن أوجاع، تمامًا كما نستعدّ لنتفرَّج على المطر هنا، من خلف الزجاج، مطرٍ بخيلٍ كسولٍ هزيلٍ رتيبٍ طويلٍ كالسأم، مطرٍ محرّضٍ على كراهية الشتاء، مطرٍ متآمرٍ مع الصحراء على استباحة البيوت وتعويم الطرقات وإغراق السيَّارات واحتجاز آلاف البشر.

«بين تشرين وتشرين صيفُ ثان» نردِّد ونتمنَّى إن توقَّفت الصواريخ ألَّا ينزل المطر ويغمرك أنت التي بلا سقف، المرتجفة من

جليد الخيانات. هل سيرحمك الشتاء فيتأخَّر؟ الموسم الثاني من مسلسل إبادتك مؤجَّلٌ لأربعة أيَّام.

كالأخطبوط تنبت لنا أطرافٌ جديدةٌ لتحمل الهاتف، فأيدينا لم تَعُد تكفي لنقوم بمهمَّاتنا اليوميَّة في الحمّام والمطبخ وغرف النوم والشوارع والسوبرماركت. نحتاج إلى التفرُّج وتقليب صفحات مواقع التواصل لنفهم مضامين الاتِّفاق وشروطه ونتابع تحليلات الخبراء وتوقُّعاتهم.

كثيرًا ما كنَّا آدم وأنا نتبارز في التوقُّعات عند مشاهدتنا لأيِّ فيلم: كيف ستؤول أحداثه، ولمن ستكون الغلبة؟ والآن، يأتي اتِّفاق الهدنة ليكسر صمتنا الفاجع وتباعدنا الرَّحيم، ويعيدنا إلى حميميَّات الجدل ورسم التوقُّعات. أنا متوجِّسةٌ من رعونة العدوّ: «لن يحترم أيّ اتِّفاقٍ وسيخدع الجميع كالعادة». أمَّا هو فيتوقَّع تحرير أسرى من قادة الفصائل وأصحاب المؤبّدات العالية، فالثمن الذي دفعته من دمك ولحمك يستحقّ إنجازًا بهذا الحجم. وأقارع أمنيَّاتي بأمنيّاته ونشهر الأسماء كسيوفٍ تتضارب: مروان البرغوثي، أو نائل البرغوثي أو عبداللَّه البرغوثي أو ناصر أبو سرور، أو أحمد مناصرة، أو إسراء جعابيص أو أحمد سعدات؟ أو كلّ هؤلاء الأبطال وغيرهم أكثر.

لكنَّ أخبارك العاجلة تلاحقنا بغير المتوقَّع. تخرجين علينا كما يخرج عمّال المناجم متفحّمي الوجوه وفي أيديهم يلمع الماس. هنا تطبخين للنازحين وهناك تقفين، كفّك على خدِّك وتنادين «محمود، برَّاء، تيسير، آية»، صوتك غريقٌ في الركام: «راحوا الأولاد»...

إنَّها فجيعة الهدنة. انكفأت الصواريخ الآن عن الرؤوس لكنَّ القلوب تُقذف إلى قارعة الفقد والخسارات المهولة! راحوا الأولاد! وراحت البيوت وراحوا الجيران وراح العمر كلّه!

نلاحق مؤمن الشرافي وأنس الشريف وإسماعيل الغول ويوسف فارس. لا نفوّت مشهدًا ولا خبرًا ولا صورة، ونبحث معك عن بقايا حياةٍ وعن أثر الجريمة. ويصيبنا ذلك الرهاب من تفويت شيء. الرهاب الذي كان غاية كلّ من صمَّموا مواقع التواصل الاجتماعيّ، والذي حرصنا على الاحتماء منه ومقاومته تارةً بقراءة الكتب الورقيّة وطورًا بلقاء أصدقاء من لحمٍ ودم. رهاب أن يفوتنا شيءٌ يمسك بأعناقنا الآن ويقبض على أصابعنا كي لا نفلت الهاتف.

فوق ركام بيته يمدِّد جسمه الخمسينيّ على مرتبةٍ ممزَّقة، بسيجارةٍ معلّقةٍ بين أصابعه يرفع ذراعه ويقول: «لو جابوا أساطيل وألغام وصواريخ، كلّه على الفاضي، نحن قاعدين ولن نتزحزح». أيشعر هذا الغزَّاويّ بما تحته من حجارةٍ وحديدٍ وبما حوله من خراب؟ ماذا يريد القتلة عندما يمسحون كلَّ شيءٍ فوق أرضك من جمادٍ وحيّ؟ أيّ وجودٍ يريدون اقتلاعه؟

نتفرَّج على ما كان عاليًا وانبسط، مبانٍ مدارس مساجد أشجارٍ وهامات... ونتأمَّل ما يحيطنا كيف تحوَّل فجأةً إلى جمادٍ ثقيل. أثاث البيت والجدران ومقتنياتنا وأجسامنا في قعودها البائس ووجودها الماديّ الصلب والهشّ في آن. نتأمَّل ما قد نخسره فجأة. أيُّ حزنٍ سيقيم فينا بعدها؟ أيُّ وجعٍ يسبِّبه فقدان ما كان موجودًا بثقله كلّه وبذكرياته كلّها؟ وكيف لا تنسحق الروح تحت رحى الخسارات المتتالية لكلِّ ما راكمته

البشريَّة من قيمٍ وجمال؟ بل كيف تنبثق من حطامها وتجلس فوقه، كروح ذاك الغزَّاويّ؟

قبل أيَّامٍ من الهدنة كانت ريم نائمةً قرب أخيها طارق. «روح الروح هذي» همس أبو ضياء وكالطلقة استقرَّت عبارته في القلوب. احتضن حفيدته. آخرون يكفّنون طارق. راح يتفرَّس في ملامحها التي لم تتشوَّه. ضمّها إلى قلبه ثمّ عاد ليتأمَّل وجهها. فتح عينَيْها المغمَّضتَيْن وقبَّلهما. ونظر إلينا كأنَّه تنبّه لوجود الكاميرا، فقال عبارته التي صارت ختمًا لكلّ وداعٍ مؤلم.

قيل إنَّه غسل وجهها وجدل شعرها وراح يلاعبها ويرميها في الجوّ ويتلقَّفها ثانيةً ويقبّل خدّها. كان مدركًا أنَّها استشهدت لكنَّ روحها ما زالت أمام عينَيْه ولن تبارحهما. من يقوى على قتل «روح الروح»؟ كيف نترجم لمن يتفرَّج عليك، في المقلب الآخر من العالم، هذا الوداع؟ قبل «أبو ضياء»، كانت صورة الجدّ المحبّ كبير العائلة وحكيمها قد مسخت بالكامل في الغرب وفي بلداننا أيضًا. صار الجدّ متحرّشًا وقاتلًا ومتواطئًا مع مغتصب أحفاده! «روح الروح» من «أبو ضياء» أعادت للجدّ جلالَه، ولصلة الدم قدسيَّتها، ولروابط الأسرة حرمتها.

من أيِّ قاعٍ انتشلتنا يا غزَّة!؟ وفي أيِّ بؤسٍ كنَّا فيه لتفدينا بروح روحك؟

لست في نكبةٍ ثانيةٍ يا غزَّة، وليست النكبة مستمرَّة! أستهجن كلَّما سمعت هذا المصطلح. لا إنكارًا منّي لما حلَّ بفلسطين من خرابٍ وتهجير، بل لأنَّ أوَّل من استخدم هذه الكلمة كان الجنود الصهاينة في العام 1948. آنذاك كانوا يتحدَّثون العربيَّة بطلاقةٍ فكتبوا في المنشورات

التي وزَّعوها على أهل البلد الأصليِّين: «إن كنتم تريدون الإفلات من النكبة، وتجنُّب كارثة، والنجاة من إبادةٍ لا مفرّ منها، سلِّموا أنفسكم»[1].

منذ ذلك التاريخ ونحن نستهلك هذا المصطلح من غير أن نعي كيف يستدعي في نفوسنا مشاعر الهزيمة واليأس وجلد الذات. تمامًا كما فعلت على مدى عقودٍ نظريَّات فرويد: نحن لسنا سوى ضحايا طفولتنا ومكبوتاتنا الجنسيَّة! نظريَّةٌ طمرت نظريَّاتٍ أخرى في علم النفس ليتربَّع فرويد على عرش التَّحليل النفسيّ، ولنبقى في دائرة الضحيَّة السلبيَّة غير المسؤولة عن أفعالها. بينما أطبَّاء آخرون لم يقدِّموا فقط رؤى أوسع للاضطرابات النفسيَّة، بل بحثوا عن منابع القوَّة التي تحمي النفوس من أيِّ شعورٍ بالنقص والحرمان... ركّزوا على أهمِّيَّة الوعي بالإنسان ككلّ، بمعنى حياته، واختياراته، وتأثير المجتمع عليه، وتأثيره في المجتمع... وركّزوا على دور الدين في إعطاء معنًى لحياة الإنسان، فيما اعتبر فرويد الأديان «حالة عصابٍ جماعيّ».

وساد فكر فرويد. وغاب الفكر الآخر الذي يصفنا بضحايا إيجابيِّين ويضعنا أمام مسؤوليَّة القرار لنواجه إحساسنا بالنقص، فإمَّا أن نسعى إلى تعويض هذا النقص من خلال تطوير قدراتنا ومهاراتنا، وإمّا أن نرزح تحت ثقل هذا النقص ونتركه يتحكَّم بتصرُّفاتنا. القرار لنا!

ساد الفكر الفرويديّ وانسحب على كلِّ تحليلاتنا. وجاءت عمليَّة «النقد الذاتيّ» التي تلت اغتصاب فلسطين لتحصر إخفاق العرب

---

1 ـ ورد ذلك في حوار آن برناس مع إيتان برونشتاين في «راديو فرانس أنترناسيونال»، 15 أيار 2023. نشرت المقابلة على موقع مؤسَّسة الدراسات الفلسطينيَّة بتاريخ 22 أيار 2023. برونشتاين مؤرِّخٌ يهوديٌّ أصدر كتاب «النكبة بالعبريَّة: عن النضال اليهوديّ ضدّ الصهيونيَّة في إسرائيل».

وهزائمهم في الدفاع عن القضيّة، إلى خللٍ في تركيبة «العقل العربيّ» وفي رومنسيَّته العقيمة وفي خياله «المخدَّر والمخدِّر» في آن. مثقَّفون ومفكِّرون من جلدنا، حشوا رؤوس الأجيال بأنَّ الهزيمة راجعةٌ إلى تخلُّف العقل العربيّ وضعف جيوش العرب وانغماس الشعوب العربيَّة في الصراعات والفتن الطائفيَّة والمذهبيَّة، وكأنَّ الغرب بريءٌ تمامًا من أيِّ مسؤوليَّةٍ عن هذه النكبات، وكأنَّ لا منابع قوَّةٍ لدَيْنا يمكن تطويرها لمواجهة ما حصل والتعويض عن كلِّ هذه النواقص! في عُرف هؤلاء المنظِّرين، الدواء الشافي موجودٌ بوفرة، ويكفي استيراده من مختبرات الغرب ومصانعه «المتقدِّمة».

قالوا نحتاج إلى «نفضة» فكريَّةٍ لنستحقّ دورنا ومكانتنا على خارطة العالم «المتحضِّر»، فلنخلع لباسنا ونسلخ جلدنا القديم وها هو النموذج البديل جاهزٌ لنرتديه ونختال به على سجّادة الساحة العالميَّة. يكفي أن نثور «عقليًّا» وننخرط «في العالم ونجاريه في نظم العيش والفكر». من هو هذا العالم؟ إنَّه العالم «الديمقراطيّ العلمانيّ المدنيّ» الذي تحبل جواريره بخطط الاستعمار وما بعده، بالحداثة وما بعدها، وبما بعد الإنسانيَّة وما بعد الأرض، والذي لم يقدِّم دليلًا واحدًا على حالة شفاءٍ لمريضٍ من مرضى فرويد!

من يعيش النكبة الحقيقيَّة الآن؟ هل صمودك نكبة؟ أم النكبة في التوقُّف عن النضال؟ وهل يحتاج نضالك إلى ديمقراطيَّةٍ وعلمانيَّةٍ وحداثةٍ لتتحقّق أهدافه أو تتبلور أدواته؟ أم أنَّ الهزيمة والنكبة ليستا إلَّا فشلًا في إرادة التخطيط والتنظيم والمثابرة وضعفًا في الإيمان والصبر؟ النكبة هي نكبة أنظمةٍ وليست نكبة عقلٍ رجعيّ! فكلُّ طفلٍ وامرأةٍ وشابٍّ وكهلٍ

على أرضك شهادةٌ حيَّةٌ على أنَّ العقل العربيّ سليمٌ وحيٌّ ولا حاجة إلى تذويبه وإعادة صهره على صورة النموذج الغربيّ كي لا ينساه التاريخ.

العقل العربيّ حتمًا منقرضٌ وخارج التاريخ الجديد إذا ذاب أو تماهى أو خان أو استهان بقدراته أو يئس من المحاولة أو استهاب التفوُّق الغربيّ فخضع له. يكفي أن نسأل: ماذا يفعل العقل الغربيّ الآن على الهواء مباشرة!؟ وهل للغرب «الحديث والحضاريّ والمتقدِّم» جَدٌّ بنقاء «أبو ضياء» وسموّه وحكمته؟

كتبٌ كثيرةٌ رميتها في القمامة يا غزَّة بعد شهر من طوفانك. كنت أعي أنَّ كتَّابًا كثرًا اختاروا العيش في الغرب، وكتبوا بلغاته ودافعوا عن حرّيَّاتٍ صغيرةٍ وتمرُّدٍ هامشيٍّ وثوراتٍ خبيثة. وكثرٌ بقوا في البلاد لكنَّهم اغتربوا وتغرّبوا. من يقرؤهم، يقتنع أنَّهم يحملون هواجس الظلم الإنسانيّ ويفكّكون «التشظّي الإنسانيّ» ويرسمون الطريق إلى عالمٍ تزقزق فيه العصافير! ها هم يظهرون على الشاشات الآن ويدينون طوفانك قائلين إنَّه «عنفٌ بربريٌّ لا طائل منه سوى خلخلة العالم».

العالم الذي خلخلتِه بعنفك البربريّ يا غزَّة، هو العالم الذي «وهبهم» التقدير والمكانة لقاء طاعتهم «لحضارة السلام».

وتعرفين أنَّ «من اختار الطاعة تنازل عن العدل»، وهؤلاء لا يرون في تضحياتك إلَّا خساراتٍ بشريَّةً ولا يرون في إيمانك إلَّا إدمانًا على الخرافات، ولا يرون في نخوة شرفائك إلَّا همجيَّةً تخرمش نعومة عالمهم.

هؤلاء من جماعة «بما أنَّه» على رأي ناجي العلي. مثقَّفون وأدباء يمقتون الالتزام ويؤثرون «الإمتاع». لم يَعُد الحياد لزوم الرواج والشهرة والجوائز، سقا اللّه أيَّام الحياد! الآن الهويَّة (العربيَّة) قاتلة، والانتماء

(العربيّ) تقوقع، والتراث (العربيّ) تخلّف، والسلاح (العربيّ) عنفٌ وإقصاء.

أديري ظهرك لهم يا غزَّة، كما فعل حنظلة، فأنت الملحمة المستمرَّة، ولست نكبةً إلَّا عند العربيّ الهجين.

«أوجاعي مرئيَّة»

إسراء جعابيص

فجيعة الهدنة مستمرَّة.

معك حقٌّ حين تقولين لسنا أرقامًا! لنا أسماءٌ وسيرةٌ وأحلامٌ وذكرياتٌ تحرق في ثانيةٍ واحدة. لكنَّ الأرقام مفجعةٌ يا غزَّة. كيف نستهين بـ 46 يومًا من المجازر، وأكثر من 13600 شهيد ـ بينهم أكثر من 5600 طفلٍ و3550 امرأة ـ وأكثر من 31 ألف مصاب، 75% منهم أطفالٌ ونساء.

فكّري معي. لماذا يخفي العدوّ أعداد جنوده القتلى والمصابين؟ ولماذا تتضخَّم الأرقام بالخطّ العريض في العناوين الرئيسيَّة لتبرز نجاح مهرجانٍ أو رواج سلعةٍ أو تفوُّق مرشّحٍ رئاسيٍّ أو مصداقية نظريَّةٍ علميَّة؟ الأرقام ضروريَّةٌ أيضًا لتسجيل هول الكوارث الطبيعيَّة، فكيف في إبادةٍ عن سبق الإصرار وبالبثّ الحيّ؟ الأرقام أيضًا سلاحٌ للتدمير النفسيّ ولإحباط الصامدين ولإشاعة الخوف. الأرقام تؤثّر وتصدم وتحبط.

ولكن ماذا نفعل عندما يُقتل طفلٌ لك كلّ عشر دقائق؟ طفلٌ لم يفقه بعد أنّ له حياةً ومحبِّين وأحلامًا وأرضًا مسلوبة. روحٌ فوق روحٍ فوق روح. نعدّ الأرواح. نحفظ وجوهها وحكاياتها وأحلامها وآخر ما اشتهت أكله. بعضنا أصابه عسر القراءة أو عسر الحساب أو رهاب الرياضيَّات. في أيِّ جزءٍ من المخّ نخزِّن هذه الأرقام؟ العلم يقول إنَّ ذاكرتنا قصيرة المدى قادرةٌ على حفظ المعلومات لثلاثين ثانية، ولدقيقةٍ كحدٍّ أقصى. ما العمل كي لا تهرّ تلك الأرقام والأرواح كأوراق الخريف عن غصون الذاكرة؟

نسأل الحجَّة إنعام: يا أقدم النازحات إلى غزَّة، ما سرّ ذاكرتك النشطة؟ بلغتِ التسعين، واحدودب ظهرك، وها أنت تمشين مسافاتٍ طويلةً نحو مكانٍ آمنٍ لتروي لنا قرنًا من الطرد والتهجير، وتشبكين أسماء الشهداء بخيط الدم المسال كخيوط شجرة السرو في ثوبك المطرَّز. ونذهل من قدرتها على سرد تفاصيل كأنَّها تقطف أقراص تينٍ من أغصانٍ عالية.

يقال إنَّ النشاط البدنيّ يحفظ فتوَّة الذاكرة. هل بالنزوح المستدام سلمت ذاكرتك يا حجَّة؟ ونحن المتفرّجون عليك نترهَّل ونكاد نخرّ بقلوبنا التي تنزح من شارعٍ إلى مدينة. نلملم الأسماء والأرقام، نلاحق الناجين والمفقودين، ويُقال لنا هذا نزرٌ يسيرٌ ممَّا لا تعلمون.

وتطالعنا حجَّة أخرى في بيت ابنها الشهيد. بيتٌ بنصف سقفٍ وبلا جدران. تلمّ بطاطس من بين الركام تجهّزها لإطعام حفيدها، الناجي الوحيد في أسرته. الحجَّة «أمّ شرف» تجدِّد ذاكرتها بدمٍ طازجٍ لزوجها وابنها وأولى حفيداتها. وتحدِّق بنا وتقول: «في وجه اللّـه العوض».

العوض بسلامتك يا غزَّة. والعوض بذاكرتك التي لو نسيت أرقام الشهداء وأعداد المجازر وتواريخ الاعتداءات لما كان الطوفان.

***

على موعد الهدنة ضبطنا ساعة قلوبنا. شحنَّاها بالطاقة اللّازمة كي لا يخطئ العقربان مسار الدوران في قراك ومدنك. صورٌ لك قبل الطوفان وبعده، تقسم الشاشات. ما أسهل الخراب! لكلِّ شيءٍ لونٌ واحدٌ وشكلٌ واحد. رماد. وحدك تقتفين الأثر. يضيع منك بعضه وتتلقّفين منه فُتات حجرٍ أو خرقة قميصٍ أو عنق مزهريَّةٍ لتروي لنا متى وكيف عمّرت بيتك وكم مرَّةً رأيته حطامًا. ولأنَّ الشيء بنقيضه يذكر، أعادني خراب مدنك إلى أمتع لحظات عمري وأنا طفلة: أن أشاهد بيوت الناس الغرباء في ذلك العبور الأسبوعيّ بين البلدات والقرى ونحن في طريقنا من قريتنا وإليها.

بين سخط أبي من الازدحام وزفير أمّي لأنفاس سجائرها ورائحة الفرامل الحامية، كنت في مقعدي الخلفيّ أتلذَّذ في التقاط شذراتٍ من حياة الناس داخل بيوتهم كلَّما تباطأت السيَّارة أو تركت مسافة أمانٍ واسعةً تستفزّ سائقي السيَّارات في الخلف لإطلاق الأبواق. ويعلو سباب أبي فوقها، وهو يكرّ السيَّارة كرًّا مع تمرير قدمه على الفرامل فتنطح رؤوسنا المقاعد الأماميَّة وأعود إلى لعبتي في مرجحة عيني على شرفات المنازل. نوافذها المفتوحة، ستائرها ولمعان زجاجها وزهو دهانها تشي بملامح ساكنيها. وكمن يحاول فكّ رموزٍ فوق ألواحٍ أثريَّة، علّمني ما يخفى من هذه البيوت وقليل ما يكشف منها، التأويل والتخيّل وسرّ الجمال في المستور.

لمحة بصرٍ على طيف شخصٍ يجول في أرجاء بيته، تفتح شبابيك خيالي على حكايات موتٍ في العائلة أو فضيحة هروبٍ في ليلةٍ غير مقمرةٍ أو جثَّةٍ مدفونةٍ في الحديقة الخلفيَّة، أو جدالٍ يحتدم قبل قهوة الصباح فتقرقع كؤوسٌ وتتهشَّم صحون... يقال إنَّنا نتخيَّل ما نفتقده أو ما نتمنَّى عيشه، لكنَّنا أيضًا نتخيَّل ما يخيفنا. لم أهتمّ بدوافع خيالي لتصوّر حيواتٍ مأساويَّةٍ في باطن تلك البيوت رغم ظاهرها الأنيق الجذَّاب. أعرف أنّي تراجيديَّةٌ بالمطلق! مستمتعةً بتلك اللعبة، أنزّه عينيّ لألتقط سمات بيتٍ كما ترفع الأدلَّة الجنائيَّة عن موقع جريمةٍ وأبدأ بتركيب سيناريوهاتٍ وبناء شخصيَّات: هنا تسكن فتاةٌ مدلّلةٌ رفعت طرف ستارتها بشريط دانتيل إشارةً لحبيب سرّيّ. تأجَّل موعد الحبّ تقول الستارة. وهنا حبال الغسيل المرتخية تشي بأنَّ ساكني البيت شاخوا. تقوَّس الحبل كما تقوَّست ظهورهم. وتلك الأحواض الصغيرة التي يزدان بها شبّاكٌ بأحجامٍ متساويةٍ وزهورٍ متنوّعةِ الألوان تدلّ على سيّدةٍ مهووسةٍ بالزينة لإبهار المارّة. وهنا بيت عازبٍ يعتدّ بلياليٍ مجونه راصفًا قوارير الخمر على حافة الشرفة. وهنا بيوتٌ ظمأى وجائعةٌ وضجرة، لا تمارس الحبّ ولا تغتسل إلَّا للزوّار...

كم افتقدت هذه المشاوير وسط الازدحام، بعد عيشي في مدينة ترفع الأسوار بين بيتٍ وبيتٍ وتوسّع الطرقات بين شارعٍ وشارع، فلا تجد العيون العابرة مفرًّا من التحديق إلَّا في سراب الفراغ الذي يعطِّل المخيِّلة.

وجاءت السنوات الماضية لتخدِّرَ كلّ شرايين الخيال مع اندلاق أسرار البشر وحرمات البيوت على الشاشات في عرضٍ قهريٍّ للذات على مدار الساعة واستعراضٍ باذخٍ لما في البيوت من ثرواتٍ مشبوهةٍ وعلاقاتٍ موازيةٍ ويوميَّات زوجةٍ دلوع!

في اليوم الأوّل للهدنة اندلقت أحشاء بيوتك فوق شاشاتنا، ورحنا نلتقط شذراتٍ من حياة ساكنيها. هنا حرامٌ صوفيّ. دميةٌ ممزَّقة. كنزةٌ حمراء. وهنا بالونٌ وهنا كنبةٌ وهنا منشر غسيلٍ وهناك مرتبة سريرٍ و«نموسيَّة» ودرّاجةٌ صغيرة. موت بيوتك قذف في وجوهنا كلّ حياتها. علاماتٌ ودلائل لا على الجريمة فقط، بل على ما كان من حياةٍ يمكن ترميم أجزائها بالمخيَّلة وحدها.

هنا قضى خمسون نفرًا حتفهم... أطفالٌ مع أعمامهم وجدّاتهم وأمَّهاتهم وإخوتهم... مبنى من خمس طبقاتٍ هوى بالكامل على رؤوس خمس عشرة عائلة. من بقاياهم سنحزر أو نتخيَّل ماذا أكلوا وماذا لبسوا وفي حضن من كانوا قبل أن يمزِّقهم الصاروخ. كأنَّ المخيَّلة استرجاعيَّةٌ واستباقيَّةٌ في آن، كأنَّ ما كان وما سيكون يتشكَّل أمامنا في اللحظة نفسها.

مشاهد كثيرةٌ لك قبل الطوفان لم تكشف تفاصيل دقيقةً عن حياتك بقدر ما كشفتها بيوتك المهدَّمة. كأنَّ الأنقاض تعلِّمنا أن نبني. كأنَّ بقايا البيوت والحرقة عليها توقد ما في الخيال من قدرةٍ إعجازيَّةٍ على اجتراح جمالٍ جديد. أليس هذا ما احترفته على مدى نصف قرنٍ وأكثر من التهديم والبناء، من الاحتراق والبعث؟ ألهذا تتجوَّلين الآن وتجمعين نصف عمودٍ إلى ساق طاولةٍ إلى زجاجٍ متكسّرٍ إلى إطار باب، إلى جوربٍ ومرطبان سكّرٍ وحفنة عدس؟

ولكن ماذا يعني أن نفقد بيتًا بكلّ ما فيه؟ ماذا يعني أن نؤثِّث بيتًا مرَّةً بعد مرَّةٍ ليتفحّم من جديدٍ بلحظة؟ وماذا يعني أن نتشرَّد بما تبقَّى لنا من ملابس وأوراقٍ تثبت ملكيَّتنا لأرضٍ أو مسكن؟

في المدينة التي استقررنا فيها، انتقلنا خمس مرَّاتٍ إلى بيتٍ جديد. ليس لسببٍ قاهر. فقط لنكون أكثر راحةً في مبنى أقلّ اكتظاظًا وأكثر عزلة. رأينا توضيب أثاثنا وكلّ أغراضنا الشخصيَّة في صناديق كرتونيَّة، حُملت بعنايةٍ إلى شاحناتٍ ونُقلت وأُفرغت في بيتٍ جديد. لنا في كلِّ بيتٍ ذكرياتٌ يسهل علينا تركها. فالأرض ليست أرضنا ولا البلاد بلادنا فعلام الشوق والحنين؟ بخفَّة العناكب ودهائها نعلِّق خيوطنا في بيتٍ جديد. لا ندقّ المسامير أبدًا، كلّ صورةٍ نثبِّتها على جدارٍ بلاصقٍ سحريٍّ لا يترك أثرًا إذا انتزع. مع كلِّ انتقالٍ إلى مؤقّتٍ جديدٍ نتنبه كم من أغراضٍ كدَّسناها ولم ننتفع منها. وكم من أغراضٍ نسينا وجودها وسبب احتفاظنا بها. هي دائمًا تلك الأغراض الصغيرة التي نخبِّئها في جارورٍ أو في درفةٍ من الخزانة. بطاقات معايدة، فواتير لأثاثٍ قديم، لمبات، نسخٌ عن مفاتيح الأبواب الداخليَّة، أقلامٌ جفّ حبرها، أسلاكٌ وهواتف قديمة، ملابس بطُلت موضتها. نحتفظ ببعضها ونرمي بعضها وننتقل إلى الجديد والمؤقّت. ويبقى حلمنا بالعودة إلى منبت الروح هو نفسه، موضّبًا في صندوق القلب كحقيبة ملابسنا الشتويَّة التي لا نرتديها أبدًا ولا نستغني عنها في آن.

وأنت؟ لا المؤقّت متاحٌ لك، ولا لجوؤك آمن. أمَّا العودة فمحرَّمةٌ عليك. قسريًّا ومستدامًا يُراد لك المنفى. لكنَّك تعودين إلى ركامك ومنه تبنين بيتًا جديدًا لا هو دائمٌ ولا هو نهائيٌّ ولا هو مؤقّت!

والآن قولي لي لماذا دخلك مئةٌ وأربعون فلسطينيًّا في اليوم الأوَّل للهدنة؟ بعد أسابيع من الانتظار على بوّابة رفح، إلى من يعودون؟ وإلى أين؟ هل تبقّى لهم أحد؟ سقف بيت؟ أم أتوا ليبادوا مع من تبقّى؟ أم عادوا لأنَّ لا مكان سواك يحتملهم أحياءً وأمواتًا؟

أسراك الطوعيُّون هم. فحبُّك آسرٌ يا غزَّة، ومحالٌ الفكاكُ منه. هكذا يقولون. لا سقف له ولا جدران ولا نوافذ! حبٌّ حزين، حبٌّ قاتل، حبٌّ شهيد، حبٌّ يتحدَّى، حبٌّ لا يسأم، حبٌّ لا يُباع، حبٌّ لا يَنسى. حبٌّ يرفع الأرض إلى السماء.

من بعيدٍ وفي ظلمات السجون عرف الأسرى الفلسطينيُّون ماذا فعل الحبّ فيك في السابع المجيد. من وجوه سجّانيهم الملبَّدة بالحقد والانهزام أدركوا تماديك في اجتراح بطولات الحبّ والشهادة. اكتظَّت السجون بعد العبور العظيم. تضاعف العدد ليبلغ عشرة آلاف أسيرٍ وأسيرة. هل نستهين بعدّ بالأرقام؟ أم نعدّد أساليب التنكيل؟

ما عاد الشبْح على الكرسيّ الصغير، ولا وضع الكيس على الرأس، ولا الموسيقى الصاخبة، ولا نتف شعر اللحية والرأس، ولا قلع الأظافر، ولا العزل، أساليب تشفي غلّ العدوّ المنكوب في نرجسيَّته المريضة. للأسيرات حصَّةٌ أخرى من الكيد والحقد. القمامة تملأ مراكز التحقيق. التفتيش العاري، والشتائم، والتَّهديدات بالاغتصاب، والقتل. في سجن الدامون تنام الأسيرات على الأرض بعدما اكتظَّت الغرف، ويتشاركن غيارًا واحدًا من قدامى الأسيرات. يشربن الماء مع الكلور وترشّ الغرف بالمياه العادمة وتحرم الجريحات والمريضات من تلقّي العلاج ومن الأدوية. أكثر من ستّين أسيرةً تمّ اعتقالهن، منهنَّ محرّراتٌ سابقات، وأمَّهات أسرى، وصحفيَّات، وناشطات، وحوامل.

نترقَّب بقلقٍ الجزء الأوَّل من حلم تبييض سجون الاحتلال، أحد أهداف طوفانك. لم نتوقَّع أنَّك تخبّئين لنا مفاجآتٍ أخرى. سيراك العالم بوجهك الملثّم ترافقين طفلًا من الكيان يبتسم كأنَّه عائدٌ من رحلة

استجمام، تسعفين نساءً لركوب سيّارات الصليب الأحمر، فيلوّحن لك أمام الكاميرات كأنّهنّ نجومٌ على سجّادتك الحمراء.

تسعةٌ وثلاثون أسيرًا بينهم أربعٌ وعشرون امرأةً وخمسة عشر طفلًا تنتظرهم فلسطين في اليوم الأوّل للهدنة. لم ينتظر العدوّ الإفراج عنهم كي يفسدوا عليهم الفرحة. قبل الإفراج، داهموا بيوت عائلاتهم، هدَّدوا ذويهم إن هم احتفلوا أو استقبلوا مهنّئين أو تواصلوا مع وسائل إعلام، عقابهم جاهز. سلفًا أطلقوا الرصاص وقنابل الغاز السامّ المُسيل للدموع في محيط تلك البيوت، واقتادوا عوائل المعتقلات المقدسيَّات إلى التحقيق وصادروا هواتفهم.

أرأيت كيف امتلأت شوارع القدس بالمهنِّئين وصدحت الأصوات باسمك في كلِّ الأرجاء؟ المتفرّجون بالمرصاد. سريعًا صمَّموا ملصقاتٍ تجمع صور المحرّرين من معتقلات الصهاينة بصور أسراك الذين ودَّعوك بالقبلات والتحايا. كلُّ شيءٍ في سحنة المقدسيَّات المحرّرات يشي بضرورة الفحص الطبّي. شحوبٌ وإرهاقٌ وملابس السجون الرثَّة، فيما أسراك يخرجون من مخابئك «مهفهفين»، بثيابٍ لائقةٍ وملامح تنضح بالصحّة.

أتصدّقين أنَّ ثمة من اكتشف للمرّة الأولى اعتقال الصهاينة لأطفالٍ قصّر؟ حين رأوهم يحمَلون على الأكتاف، سألوا ماذا فعلوا ليستحقُّوا الأسر؟ قلنا: رموا حجرًا على دبَّابة، أو صلّوا في مسجد، أو رسموا حنظلة على جدار مخيَّم. سمعوهم يتحدَّثون عن التعذيب المتصاعد بعد السابع من أكتوبر، عن بيضةٍ واحدةٍ يأكلونها طوال اليوم، وعن ضربٍ مُبرحٍ قبل الإفراج عنهم بساعات. العالم مفجوع. شابّاتٌ

أجنبيَّاتٌ يشهقن بالبكاء وهنَّ في بثٍّ حيٍّ على صفحاتهنّ ويعترفن «لم نكن نعلم». ونحار بين الشفقة عليهنّ أو التشفّي. فليس أقسى من الحقيقة إلَّا أن يفجع الإنسان بجهله.

وكما توقَّعتُ يا غزَّة، خرق العدوّ الاتِّفاق فقلّص عدد شاحنات المساعدات وأطلق النار فاستشهد اثنان من أبنائك وأصيب كثرٌ ممَّن حاولوا العودة لتفقُّد بيوتهم في الشمال.

عاقبتِه بتأخير إطلاق الأسرى. رضخ لك والتزم بكلِّ البنود في اليوم التالي. ساعات انتظارٍ طويلةٌ تحمَّلناها ونحن عالمون بخطَّتك لتلقين الاحتلال درسًا عبر تأخير الإفراج عن أسراهم. عيوننا معلَّقةٌ على الشاشة الفاصلة بيننا وبين بوّابات السجن. شغلنا أنفسنا بمنشوراتٍ عن الأسيرة إسراء جعابيص، كانت تصلنا ردود فعل المتابعين مرفقةً بوسوم الصدمة والبكاء والغضب. كثرٌ وجدوها فرصةً أخرى لمهاجمة حاملات راية النسويَّة وحقوق المرأة. الفلسطينيّات، لا يُحسبن من النساء. سمراوات، محجَّبات! تقوم الدنيا وتقعد دفاعًا عن البكيني وحقّ التعرّي. كم احتاجت هذه «المعركة» إلى «مغفّلات مفيدات» لترتفع هذه الحقوق فوق حقّ التحرُّر الوطنيّ.

عندما قالت إسراء: «جروحي مرئيَّة»، احتجبتْ عن الظهور وعن الكلام النساء الأماليس صاحبات البشرة «الطفوليَّة» والملامح المنسوخة بورق الكربون، كأنَّ أصابع خفيَّةً أمسكت برقابهنَّ وضغطت على الشريان السباتيّ فأصبن بالغيبوبة. أن تُترك إسراء جعابيص محترقةً وتُساق إلى الاعتقال وتُحرم من العلاج ومن أيِّ مسكّن أوجاع، قصّةٌ لا تعني أحدًا كما قصص شروق دويّات وعائشة الأفغاني وفدوى حمادة

ونورهان عواد، المحرَّرات في اليوم الثاني مع إسراء. كلُّهن تحدَّثن عن أسيراتٍ قاصراتٍ يتعرَّضن للضرب والعزل وأشياء أخرى لا تخطر في بال الأسوياء.

أغرقنا مواقع التواصل بقصص كلّ أسيرة. شهاداتٌ واضحةٌ وكاملةٌ تكشف مدى تعنيفهنّ والانتقام منهنَّ. طافت القصص وتُرجمت وتسرّبت إلى كلّ الشاشات رغم الحجب. بقي التفاعل خجولًا والاستهجان قنوعًا بوسم القلب الأحمر. العالم كلُّه يترقَّب خروج الأسيرات «الاسرائيليَّات». فهنا الحكاية الأكثر إثارةً ومصداقيّةً لأنَّها ستأتي من سلالة الشقراوات المتحضّرات المنتميات إلى «أكثر الدول ديمقراطيَّة في المنطقة». كيف عشن في قبضة رجالك «الدمويّين ذابحي الأطفال والنساء»!؟

قالوا عن الأسيرة المسنَّة يوخباد ليفشتس إنَّها مصابةٌ بخرفٍ جزئيٍّ أو بمتلازمة ستوكهولم حين كشفت في مؤتمرٍ صحفيٍّ مباشرٍ أنَّ الأسيرات تلقّين معاملةً جيّدةً وتوفَّرت لهنَّ الأدوية التي يحتجن إليها. قالوا إنَّ التحايا والابتسامات وتلويحات الوداع بين الأسرى ومقاتليك مسرحيَّة. لم تتجلَّ حماقة عدوّك في تكرار العدوان عليك فقط، بل حين ظنَّ أنَّ مؤتمرًا صحفيًا لمستوطنةٍ من نسل صهيون ستجعلك تندمين على اليوم الذي عبرت فيه سجنك! جهّزوا الميكروفونات ودعوا وسائل الإعلام ونصبوا المنبر وانتظروا اشتعال ثقاب الكلام لتحترقي أكثر. فقالت: «لقد تعاملوا معنا بودٍّ وعناية، ووفَّروا لنا الطعام والدواء، وأحضروا لنا طبيبًا لفحصنا، وكذلك ممرّضًا لمتابعة وضعنا الصحّيّ ومعالجة من أصيب منّا بجراح».

ما أجملها من قنبلة انفجرت في وجه العالم! كم من حرائق انطفأت في قلبك وأنت تشاهدين أهل الباطل ينطقون بالحقّ؟ لا أعلم ماذا سيكون شعوري لو أنَّ أحدًا أكرهه بشدَّة مدح ابني. لكنِّي على يقينٍ قاطعٍ بأنَّ ما سيساورني من اعتزازٍ أو فرحٍ خفيٍّ لن يجد له متَّسعٌ في قلبي المغموم بالأسى والعتاب والخيبة من قريب ذم به وازدراه.

ستتسرَّب شهاداتٌ كثيرةٌ من وسائل إعلام العدوّ لتترك أفواهًا كثيرةً فاغرة: «السنوار زارنا وتحدَّث معنا بالعبريَّة وطمأننا أنَّنا في المكان الأكثر أمانًا ولن يصيبنا مكروه». وستنشرين أنت رسالةً تركتها إحدى الأسيرات تشكر مقاوميك على حسن معاملتهم لابنتها ذات السنوات الستّ. كارهوك جاهزون للطعن: من يأسر طفلةً وأمّها المدنيَّة سوى الإرهابيّين المسلمين؟ لكنَّ عشّاقك سيكرّون الرسالة سطرًا سطرًا وينشرونها على صفحاتهم مرَّةً بعد أخرى.

«أشكركم على إنسانيَّتكم غير الطبيعيَّة تجاه ابنتي إيميليا».

«كنتم لها مثل الأبوَيْن وهي تعترف أنَّكم أحبابٌ حقيقيُّون لها».

«شكرًا على كلِّ تلك الساعات التي كنتم فيها كالمربّية».

قريبة إحدى الأسرى في الإعلام العبريّ قالت إنَّ جدَّتها خرجت من الأسر مشرقةً وبصحةٍ جيِّدة. أفراد عائلة أسرى آخرين قالوا إنَّ أقرباءهم عوملوا بإنسانيَّةٍ عالية «خلافًا لمخاوفنا، لم يواجهوا القصص المروِّعة التي تخيَّلناها».

أين أعداؤك الآن أمام هذا السقوط المدوّي لقلاع أكاذيبهم. شهران من «البخّ» المباشر للأكاذيب وحملات التشويه. جلدوك وصلبوك وأحرقوك وطمروك فوق أكوامٍ من الافتراءات. طاف وجهك

ببياضه البهيّ. لا غبار. نقاءٌ كامل. شعاعه حارقٌ لعيون العدوّ المغتاظ من حقيقةٍ لا بدَّ من حجبها وطمسها من جديد: فليسكت الأسرى، فليؤسَروا في بيوتهم ولا يبارحونها حتّى إشعارٍ آخر.

وسيأتي الشهر الثالث بسلسبيل. كالماء العذب ستسيل روايتها وستغرف منها القبائل الرقميَّة. ظمأٌ مزمنٌ إلى قدسيَّةٍ إلى أسطورةٍ إلى حقيقةٍ أسطع من الشمس. أجام تقول: «هناك في غزَّة المرأة مقدَّسة... المرأة كالملكة». أجام التي سمّيتِها سلسبيلًا عاشت في أسرك خمسة أسابيع، مارست رياضاتها المفضَّلة، أكلت طعامًا صحّيًّا، وحين أراد شبابك مبارزتها بالأيدي غطَّوا أيديهم بمنشفةٍ كي لا يدنِّسوا الملكة.

تفرّجنا وتابعنا اللقاء مع أجام وأمّها، وفي بالنا تلوح وجوه النتن والخَرِف والجربوع ووراءهم أسطول «التائهين والخائنين والمشاركين في قتلك» يخرّ من حرجه كمن أصيب أمام الملأ بتبوُّلٍ لا إراديّ. هذا الأسطول لا يفوّت صلاةً ولا حجًّا ولا عمرة، له إسلامه ولك إسلامك، بماذا سينطقون بعدما قالت إحدى الأسيرات المحرّرات عن مقاوميك: «كانوا مستعدِّين للتضحية بحياتهم من أجل حمايتي وأبنائي الثلاثة من القصف. وعندما كنَّا نسألهم عمَّا إذا كانوا سيقتلوننا، كان ردُّهم: نموت نحن قبل أن تموتوا».

***

كأيَّام الآحاد وقداديسه في قريتي البعيدة، كانت أيَّام الهدنة. على باب الكنيسة كنَّا نقف، نغمس إصبعين بماءٍ مقدَّسٍ محفوظٍ في جرنٍ حجريٍّ لصيقٍ بالجدار، نرفع الإصبعَيْن ونرسم علامة الصليب لنستحقّ

عبور العتبة والدخول خشوعًا إلى الكنيسة. هكذا وقفنا كلَّ صباحٍ وطوال الهدنة نتبارك بماء أخبارك المقدَّسة قبل الدخول في أيَّامنا المملوءة بالبخور والدُّعاء أمام صليبك وكأس دمك.

والآن ماذا؟ ماذا بعد تلك الورشة التي جمعتنا بأصدقاء افتراضيِّين كما «عونة» أهل القرى؟ كلٌّ منَّا راح يغبّ من خيرات بطولاتك. كالمربَّيات والمخلّلات تقاسمنا ما أكرمته علينا من نكهات الفخر والعزَّة، أسرفنا في تشميسها وفي تركها طوال الليل تحت الندى لنضمن استدامة طعمها الشهيّ ومكوّناتها الغنيَّة، فالشتاء مقبلٌ بكلّ ترسانة رعوده وبأمطارٍ من الصواريخ.

أين تلجئين بعد الهدنة، وأحشاء بيوتك مندلقة، ومراكز الإيواء مكتظَّة، وأطفالك موزَّعين كالتمائم على بيوتٍ وأقارب؟ هل نكسر صحوننا لينكسر الشرّ؟ أم ندلق ركوة القهوة على الأرض ليطوف الخير؟ هل نأكل بيضةً مسلوقةً مع زيت الزيتون ليأتينا خبرٌ سعيد؟

لا أصدِّق الخرافات، بل أصدِّق حقد العدوّ. لا وقف لإطلاق النار، بل تمديدٌ للهدنة.

صبيحة اليوم الأوَّل الإضافيّ فوجئتُ بأطياف العمَّال تتهادى خلف الواجهة الزجاجيَّة للبرج. توزَّعوا على رافعاتٍ بين طوابق المبنى. لباسهم موحَّد. خوذاتهم صفراء، وجوههم سوداء، أجسامهم نحيلة، عيونهم مقعّرة. على خواصرهم حزامٌ يضبط حركة الحبال التي رفعتهم في الفضاء وأطلقت سيقانهم للريح فيما يحكمون قبضاتهم على أدوات شفط الغبار وغسل الزجاج وقشط الأوساخ عن واجهات المباني الزجاجيَّة.

فوجئت لأنّي لم أنتبه إلى الإشعار المسبق بموعد هذه المهمّة لا في المصعد ولا في هاتفي. سحبت الستائر الشفّافة والسميكة كما أوصتنا الإدارة «حفاظًا على خصوصيّتنا». اعتدنا هذا الروتين الموسميّ الذي تلتزم به إدارات المباني في المدينة «للحفاظ على مظهرها الجماليّ وتعزيز كفاءة العزل الحراريّ».

غالبًا ما كان المطر ينزل بعد فترةٍ وجيزةٍ من تلك الورشة الموسميّة حتّى صرنا نربط بين تنظيف الواجهات والمطر متأسّفين على العمّال الذين ضاعت جهودهم سدًى بعدما أمضوا أسبوعًا في الشطف والغسل والتلميع. هذه المرّة لم تمطر واستمتعنا برؤية المدى عبر زجاجٍ برّاقٍ لا غبار عليه. بعد يومَيْن أو أكثر اتّجهت إلى غرفة المكتب الغارقة بضوء صباحيّ حادّ. وقفت أمام طاولة المكتب فرأيت بقعةً سوداء سائحةً على الزجاج. خراء حمام. النافذة لا تفتح لدواعي السلامة، وإلّا سارعت إلى تنظيفها وانتهى الأمر. نظرت إلى ذلك الأثر وأنا واقفةٌ فشعرت كأنَّ الطائر المجهول بصق في عيني. ولمّا جلست في كرسيّ مكتبي صار الأثر فوق رأسي تمامًا. يقال إنَّ في ذلك فألًا حسنًا. كيف لخراء حمامٍ على الرأس أن يجلب الخير، لا أعرف. ولكنّ ما يشغلني هو كيف خطر لطائرِ الحمام التغوّط على زجاجٍ ملمّعٍ مغسول؟ أين وقف ليفعل فعلته؟ لا حافة فوق النافذة، فواجهة المبنى منبسطةٌ زلقة. والتغوّط، حتّى بالنسبة إلى الحمام، يحتاج إلى وضعيّةٍ مريحةٍ لتتمّ المهمّة بسلاسة.

لا منطق يدفع بي إلى إبلاغ إدارة المبنى عن هذا الحادث الطارئ. فكلفة إزالة الأثر أكبر من هذا التشوّه البصريّ والإزعاج الذي يسبّبه لي. لكن ماذا لو حصل الأمر نفسه مع الجيران؟ خطر لي قرع أبوابهم، ولكن كيف أصوغ سؤالي: هل بصق الحمام في وجوهكم

اليوم؟ هل تغوّطت حمامةٌ على رؤوسكم؟ هل زجاجكم خالٍ من الخراء؟ قد أجد صيغةً مناسبةً وأنا أتنقّل بين طبقات المبنى، المهمّ ألّا أكون وحدي من قصد الحمام تكديرها. قد نتّحد لنطالب الإدارة بإعادة تنظيف واجهاتنا المشوّهة ببراز الحمام. هل تنتظرين بقيّة القصّة يا غزّة؟ ها هي باختصار: لم أقرع باب أحدٍ من جيراني. ولم أبلّغ الإدارة. فكّرت بإسدال الستارة لكنّي سأحجب عنّي الفضاء. فكّرت أن أغطّي اللطخة الكريهة برسمةٍ من رسوماتي الخنفشاريّة، لكنّها لن تلغي وجودها في الخلفيّة ولا في رأسي.

أعترف أنّي تشاءمت. كلّ الخراب الذي شاهدته على أرضك لم ينل من تفاؤلي بقدر ما فعلته بقعة خراءٍ على سطح زجاجي اللماع! رأيتها تكبر وتنفلش وتسيح وتتمدّد وتشتدّ سوادًا وتحتلّ كلّ الواجهة. قولي لي لماذا يا غزّة؟!

مكتبة
t.me/soramnqraa

أسماءُ الشهداءِ كلُّها مَصحوبةٌ بواو عطف،
استُشِهد فلان وأمُّه وأبوه وأبناؤه ومربّعُه السكنيّ وذاكرتُه
وأحلامُه وأيّامُ كانت تنتظرُه..
وهكذا والعطفُ يطول

مريم قوش

لم أفطن إلى تاريخ اليوم. كانون الثاني بدأ. آخر شهور العام، وأكثرها ضجيجًا في العالم. كثرٌ يتشاركون العادات نفسها الخاصّة بهذا الشهر. فالاستعداد له يبدأ في منتصف تشرين الثاني. طقوسٌ توارثناها عن أهلنا وبقينا أوفياء لها. نصب شجرة الميلاد في ركنٍ محوريٍّ من البيت. قضاء يومٍ كاملٍ في تزيينها. إعداد قائمةٍ بالهدايا. وقائمةٌ أخرى لعشاء أمسيَّة الميلاد وغداء اليوم التالي. وقضاء ساعاتٍ في التسوُّق إمّا عبر الهاتف وإمّا بالتجوُّل في المزاكز الكبرى.

لا داعي لإصدار تعميمٍ عائليّ: لا عشاء ولا شجرة ولا هدايا هذا العام. «نور العالم» احتجب، ومريم لن تلد يسوع.

ومع ذلك قلت إنَّ أميركا لن تغامر بسمعتها في هذه المناسبة المقدَّسة! الهتافات في مدنها المزيَّنة تدينها على استباحتها لإبادتك، وقد يدفعها بعض الوجل إلى وقفٍ مؤقّتٍ للإبادة ريثما تحتفل بميلاد طفلٍ مقمَّطٍ مضطجعٍ في مزودٍ فيما أطفالك ذبائح على صليب العار.

سذاجةٌ منّي هذا التوقُّع. لا أكتفي بالتفكير به لوحدي، بل أشاركه وأعمّمه على جميع من أتواصل معه لأصبح كهؤلاء «الخبراء الاستراتيجيّين» الذي يتكاثرون كالضفادع ويتعالى نقيقهم حول برك دمائك. أتوقَّع موقفًا «أخلاقيًّا» من الخَرِف الصهيونيّ الذي لا يدرك في أيِّ شهرٍ نحن ولا في أيِّ عام وماذا يحدث أصلًا. وأتوقَّع من الغرب كلّه أن يهبّ فيه الخشوع وهو من صبغ شعر المسيح ولوَّن عينَيْه وجعله أيقونةً للرّجل الأبيض.

سأبقى أجترّ سذاجتي لأطفئ نيران خوفي من انتقامٍ أكبر بعدما مسحتْ روايةُ الأسيرات الصهيونيَّات تلك اللَّطخة التي شوَّهت نقاءك. وأطلَّت علينا «ألما». وألما بالإسبانيَّة تعني الروح. ها هي روحُ أخرى نسمع صوتها يشقّ الأنقاض: «أمانة طلعوني آخر واحدة، أنقذوا عائلتي». يسألها المسعف «مع من أنت يا ألما؟» بصوتها النحيل تجمع كلّ العائلة: «أنا وأخوتي وأمّي وأبويا وجدَّتي».

من تحت خمس طبقاتٍ من المبنى المدمَّر يأتينا صوت «ألما»، وهي تعطي إرشاداتٍ للمسعفين عن أماكن وجود عائلتها وأخيها الرضيع طرزان. ثمّ تصمت. ثمّ تهتف: «طلعوني وأنا بساعدكم تلاقوهم». وهذا ما كان. خرجت «ألما» من بين الركام. الغبار يغطِّيها كندفٍ من ثلج. أنفها كحبَّة كرز. عيناها نجمتان، وعلى شعرها شريطُ أحمر. لا ترتجف،

ولا تبكي ولا تطلب ماءً ولا تنتظر أن يتفحَّصها المسعفون ليتأكَّدوا من سلامتها. خرجت كمَن يهرع إلى مهمَّةٍ طال انتظارها ولا أحد سواها يُتقن إنجازها. أشارت بيدٍ إلى مكان أمِّها، وبالأخرى إلى مكان أبيها وطرزان وباقي أفراد العائلة.

كم صغرتُ أمام روح «ألما» يا غزَّة. هجمت عليّ ذكرى تلك الأيَّام الشتويَّة في بيتنا القرويّ. مكمورةً تحت لحافي الدافئ أترك فسحةً لعينيّ كي ترقبا لحظة شروق طيف أمِّي ليبدِّد كلّ هذا البرد... حبيبتي أمِّي، لا تخلّ بمواعيدها. بجسمها الصغير تتقدَّم إلى الموقد. البخار المتسرِّب من فمها يزيدني التحامًا بلحافي. بيدَيْها الصغيرتَيْن تسحب جارور الرماد. تفرغه في حاوية النفايات وتعيده إلى مكانه. تفتح الباب الحديديّ الصغير للموقد. الصرير أجمل من تغريدة سنونوة هاربة. اليدان المجعَّدتان تلقمان الموقد بالحطب. ترصفانها بشكلٍ متصالبٍ لتسند بعضها بعضًا، تضيفان إليها أغصانًا رفيعةً يابسة. مقرفصةً أمام الموقد، تشعل أمِّي عود ثقابٍ وترميه في حضن الحطب. العود ينطفئ. تعيد الكرّة. عيناها متسمِّرتان بالأعواد اليابسة كأنَّما: هيّا اشتعلي. فتذعن النار. الإصبعان تغلقان الفتحة الصغيرة للموقد. قبضتان على الركبتَيْن وتنتصب أمِّي بلا ترنُّح. تهمهم وتزفر كسفينةٍ بخاريَّةٍ وصلت ميناءها ومستعدَّةٌ لاستقبالٍ حارّ. لهبٌ وحسيسٌ ثمّ أجيج. تشعل أمِّي سيجارتها الأولى وتشتعل الشمس في النافذة، وينسلّ البرد منكّس الرأس كثعلبٍ قُطع ذيله. أنزع اللحاف عنِّي وأنهض وإلى الموقد أمدّ راحتيّ.

تلك اللحظات من الصباحات الشتويَّة في قريتي، وتلك اليدان، وذلك الطيف الشفيف الكثيف الحارّ لأمِّي أمام الموقد، أشعلتها «ألما»

حرائق من ندمٍ وخجلٍ في دمي. أن أنتظر أمّي كي تصحو من دفء سريرها إلى بردٍ يحتلّ كلّ مساحات البيت وأكاد أسمع صكّ أسنانها وهي تتكوّر على نفسها وتكمش طرفي ياقتها لتمنع أيّ مسربٍ لقرصة برد. أن أتظاهر بالنوم وأتركها تتعامل وحدها مع الرماد والحطب وأعواد الثقاب الرطبة. أن أبقى دافئةً في سريري حتّى يلتهب الجمر فأطمئنّ أنّ البرد لن يلفح جلدي إذا نهضت...

لماذا لم أفكّر أو أشعر مثل «ألما»؟

لم أكن وحدي من صَغُرَ في تلك اللحظة. كثرٌ قالوا «علينا أن نرسل أطفالنا إلى غزَّة كي تربّيهم كما تُربّي أطفالها».

كلُّنا بلا «مربى» يا غزَّة.

وكلُّنا ننتظرك في أسرّتنا الدافئة، لتوقدي حطب عمرك فتدفأ أرواحنا. ونتحلَّق حول أبنائك المستريحين في خيمة السهر بعد أيَّامٍ طويلةٍ من التغطية المباشرة. نعرف أين كانت بيوتهم وإلى أين نزحت عائلاتهم ومن فقدوا وإلى من يشتاقون وعلى من يخافون. يعرفون أنَّ ليلتهم هذه قد تكون الأخيرة فيشبكون أصواتهم كوعود البحّارة للموانئ وينشدون: سوف نبقى هنا كي يزول الألم... موطني موطني... ذا الفدا يا أنا... سوف نحيا هنا... رغم كيد العدا.

ولكيد العدا الذي تفاقم بعد نكبة الهدنة، كمنتِ جمرك تحت رماد خان يونس. سمعناك تردّدين «فأغشيناهم فهم لا يبصرون» وأطلّ عاشقك من نفقٍ مخترقًا قلب الخيام التي تأوي جنود العدوّ. بكلّ هدوءٍ راح يصوّرهم من زوايا مختلفةٍ لينسحب بسلامٍ عائدًا إلى النفق. ورأينا كيف انفجر حقلان من الألغام فاحترقت 25 آليّةً عسكريَّةً وكيف

انفجرت فخاخ النار بمنزلٍ تحصَّن فيه جنود العدوّ وكيف قنصتِ ستّةً منهم من خلف نوافذ محطَّمةٍ لتختمي ملحمتك الصغيرة هذه، بصواريخ رجومٍ قصيرة المدى التي انهالت على من تبقّى منهم.

جمهور الغرب الذي أصبح يهتف باسمك، أدرك أنّك لا تحرقين الأطفال ولا تقتلين النساء ولا تقصفين المدنيّين. من ميادين خان يونس وجباليا والشجاعية بثّتْ شرائط كمائنك فكانت مفرطةً في واقعيَّتها لا تلاعب فيها ولا محاكاة ولا تزييف، تمامًا كما لا محاكاة ولا تزييف لرؤوس أطفالك المقطوعة وأشلائهم المتناثرة في باحات مراكز الإيواء والمستشفيات والمدارس.

وليس من تزييفٍ قادرٍ على مسح سواد الحزن والأسى عن وجه مؤمن الشرافي الواقف أمام الشاشة في الصباح. شاحبًا مثل ناسك، يقول: «فقدت 22 شخصًا من عائلتي بمن فيهم والديّ وإخوتي، وإخواني، وأزواجهم، وأطفالهم. لم تتمكَّن فرق الدفاع المدنيّ ولا المتطوّعون من انتشال جثثهم... نحن نُحرم من النظرة الأخيرة لمن يستشهد من أقاربنا ونحرم من دفنهم. بعد أكثر من خمسةٍ وأربعين يومًا لم أسمع فيها صوت أمّي، تلقّيت منها بالأمس رسالةً صوتيَّةً تدعو لي فيها وتقول إنَّها مشتاقةٌ لي... رسالةٌ كلّها رضا. هذه جرائم الاحتلال... ولا أحد يحرِّك ساكنًا».

تحرَّك أنطونيو غوتيريش، وأعلن: لا مكان آمنٌ في غزَّة، وثمَّة خطرٌ كبيرٌ لانتشار المجاعة والمنظومة الصحّيَّة والطبّيَّة تنهار. ظنَّ أنَّ أحدًا في مجلس الأمن قد «يقلق». أكثر من مئةٍ وثلاثين من زملاء الأمين العامّ للأمم المتَّحدة قتلوا مع عائلاتهم. «هذه أكبر خسارةٍ بشريَّة – منفردة – في تاريخ منظَّمتنا» قال خاتمًا مناشدته، فختم مجلس الأمن

التصويت بالفيتو الأميركيّ: لا وقف لإطلاق النار لأسبابٍ إنسانيَّةٍ ولا إغاثة عاجلة!

«لا جدوى يا يسوع، لا جدوى. مضى على صلبك ألفا عامٍ وما زال الناس يصلبونك من جديد». لا مفردات لوصف هذا الغرب ووكلائه وداعميه وتابعيه إلّا ما خطَّه ذاك اليونانيّ الغاضب نيكوس كزانتزاكيس: «لو تنزّل المسيح اليوم إلى أرضٍ كهذه الأرض التي نعيش فوقها، فماذا تظنّ أنَّه سيحمل فوق كتفه؟ صليبًا؟ لا، بل صفيحة بترول».

أمنيات! بطولات يصنعها أدب الغاضبين. ونحن الذين بلا أدبٍ وبلا «مربى» كيف لا نحرق العالم لأجلك يا غزَّة؟! كلُّنا شهداء زورٍ على ميلاد يسوع. نبكيه على درب الجلجلة وتحت صليبه نرتمي: يا مخلِّص العالم خلِّصنا. مثقلون بصليب خطايانا، لا نغفر لأنفسنا ضلالنا بعدما غسلنا أيدينا من تهويد القدس وتدنيس أرض المقدَّسات حتّى بتر أطفالك. لكنَّنا على الأقلّ غاضبون. نشهر عجزنا كنصلٍ صدئ، وجلُّ ما نقوى عليه هو تعطيل حياتنا ليومٍ واحدٍ احتجاجًا على صلبك!

بعضنا أوفى بوعده والتزم بالإضراب. في اليوم نفسه وقف منير أبو سالم بوجهٍ شاحبٍ وأتربةٍ تغطِّي ملابسه. خرج للتوّ من بين أنقاض منزله: «الأولاد مدفونين تحت الردم.. حوالي 40 أو 50 شهيدًا هنا... تقطّعوا يا اللّه... ربّنا يمدّ في عمرنا ونخلِّف بدل الولد عشرين». من جوازات سفرهم التي يحملها في يده نتعرَّف على أطفاله. من خزانةٍ مخلّعةٍ يخرج ثياب ابنته نضال. يشمّها. «ريحتك يا غالية... ريحتك». يبكي بحرقةٍ ابنتَه شهد: «تغرَّبت عن بنتي عشر سنين، وزوجتي كانت زغيرة وانحرمت منها عشر سنين وهلق انحرمت منها للأبد... واللّه مش ضعف.. فدا غزَّة وفدا

فلسطين. بدنا نصبر. كلُّهم راحوا... كلُّهم واللّـه... على عزَّة فارقونا بس. أولادنا وبناتنا فدا المقاومة... خلِّي العرب يشوفوا ويخجلوا».

لا تسيئي فهمي يا غزَّة، لكن أكثر ما يستفزّني هو تكرار سؤالٍ عليك: ما هي رسالتك إلى العالم!؟ السائل يبحث عن كلمةٍ تهزّ العالم ليقينه أنَّ كلّ صور المجازر وكلّ البثّ الحيّ لتفجّر الصواريخ في أجسادٍ طريَّةٍ وكلّ المشاهد المتوالية للدِّماء والأشلاء المحترقة على مدى أربعٍ وعشرين ساعة ليست بقوَّة الكلمة! سؤال اليائس الذي ينكر يأسه. سؤال المؤمن بضميرٍ مستترٍ قد يستجيب لضمير المتكلِّم.

«رسالتك إلى العالم» يصوغها أحد صغارك: «كان حلمي صير مصوِّر بس هلق صار حلمي طرف صناعي».

رسالتك إلى العالم تصوغها ألف قدمٍ مبتورةٍ بلا تخديرٍ بشهادة منظَّمة الصحَّة العالميَّة. ألف طفلٍ لن تركل أقدامهم كرة القدم، ولن يقفزوا بين خطوط الحجلة، ولن يتسلَّقوا الشجر لالتقاط غيمة. جَدُّ روح الروح يواسيهم: «رِجلك سبقتك إلى الجنَّة».

احتكرَ قادة العالم أدوية التخدير وبتروا قلوبهم. لن يركض ألف طفلٍ ليرموا حجرًا على دبّابة. «ستنمو لي قدم جديدة» يقول أحد أطفالك. «اقتلوه» يأمرون.

«رسالتك إلى العالم» يصوغها فتًى من الضفَّة. خرج من البيت المحاصر ليسحب أخاه المصاب برصاص الاحتلال، فأردته رصاصةٌ وسقط شهيدًا فوق أخيه الشهيد.

رسالتك إلى العالم صاغها قبل عقودٍ غسّان، في ردِّه على صديقٍ يدعوه إلى ساكرامنتو: «لقد خرجت إلى شوارع غزَّة، شوارع يملؤها

ضوء الشمس، لقد قالوا لي إنَّ نادية فقدت ساقها عندما ألقت بنفسها فوق إخوتها الصغار تحميهم من القنابل واللهب... كانت نادية تستطيع أن تنجو بنفسها، أن تهرب... أن تنقذ ساقها، لكنَّها لم تفعل. لماذا؟ غزَّة هذه، التي عشنا فيها ومع رجالها الطيّبين سبع سنوات في النكبة كانت شيئًا جديدًا، كانت تلوح لي أنَّها بداية فقط... كنت أتخيَّل أنَّ الشارع الرَّئيسي، وأنا أسير فيه عائدًا إلى داري، لم يكن إلَّا بدايةً صغيرةً لشارع طويلٍ طويلٍ يصل إلى صفد... كلُّ شيءٍ كان في غزَّة هذه ينتفض حزنًا على ساق نادية المبتورة من أعلى الفخذ، حزنًا لا يقف على حدود البكاء، إنَّه التَّحدِّي، بل أكثر من ذلك، إنَّه شيءٌ يشبه استرداد الساق المبتورة!

لا يا صديقي! لن آتي إليك... بل عد أنت لنا... عُد... لتتعلَّم من ساق نادية المبتورة من أعلى الفخذ، ما هي الحياة... وما قيمة الوجود...»

* * *

ولأجل كلِّ قدمٍ مبتورةٍ لأطفالك قفز عاليًا بعدما أحرق دبّابةً صهيونيَّة. لم نعرف اسمه حين جمَّدت ساقاه قانونَ الجاذبيَّة وهو يصرخ «ولّعت»! سنكتشف اسمه وتاريخه حين يستشهد!

واشتدَّ وقع الأقدام الزاحفة إلى ساحات المدن الغربيَّة كأنَّها تحاول أن تستردّ ما بتر من إيمانها وقيمها ومعاني وجودها الإنسانيّ. قلوبٌ صحت من تخديرٍ طويل، سمعت نبضها يخفق في الأقدام حين شقَّ الطبيب هاني بسيسو ساق ابنة أخيه عهد، بسكّين مطبخٍ وبلا تخدير.

«ولعت» الساحات بالغضب. لكنَّك تعلمين أكثر من سواك، أنَّ هذه الهبَّات قد تتلاشى بإغاثةٍ عاجلةٍ وخطّة طوارئ ليبقى حالك على حاله بين حربٍ وعدوان. بطوفانك أعلنت رفضك هذا التقزيم لقضيَّةٍ عادلةٍ إلى حالةٍ إنسانيَّةٍ تعالج بشاحناتٍ من العطاءات المصوَّرة تلفزيونيًّا. ما يجب نشره وفضحه الآن هو ظلم الغرب لناسه وجمهوره وناخبيه. قمعه لأصواتهم وحراكهم السلميّ. أكاذيبه عن حرِّيَّة التعبير وحرِّيَّة المعتقد. خوفه من هتافٍ أو لافتةٍ تطالب بحقٍّ تاريخيٍّ من النهر إلى البحر لفلسطين وحدها.

البتر انتقل إلى الغرب مع فقدان الناس لوظائفهم بسبب التضامن معك. أسماءٌ سمعنا بها وأخرى لا، نرصفها كالبيادق في لعبة الشطرنج ونلاحق آخر تحرُّكاتها على ساحة التَّحدِّي أمام شخوصٍ تفوقها قوَّةً في مملكة الديمقراطيَّة والحرِّيَّات!

هذا رسّام الكاريكاتير البريطاني ستيف بل، يُطرد بعد عمله لأربعة عقودٍ في صحيفة ذي غارديان. ذنبه أنَّه رسم النتن وهو يجري عمليَّةً جراحيَّةً لنفسه على بطنه تشبه خريطة غزَّة وكتب على الرَّسم: سكَّان غزَّة غادِروا حالًا.

وهذه الكاتبة الفلسطينيَّة عدنية شبلي يُلغى حفل تكريمها في معرض فرانكفورت للكتاب.

وهذا المذيع الأميركيّ البريطانيّ مهدي حسن يخسر برنامجه الحواريّ في شركة أم أس أن بي سي. وهذه الصحفيَّة الفرنسيَّة من أصولٍ مغربيَّةٍ زينب الغزوي تجرَّد من جائزة سيمون فايل عقابًا على اتِّهامها «إسرائيل» بارتكاب إبادةٍ جماعيَّةٍ مشبِّهةً قصف غزَّة بالهولوكوست.

وهذه الصحفيَّة الفلسطينيَّة زهراء الأخرس تُطرد من شبكة غلوبال نيوز الكنديَّة بعد نشرها للمجازر. وكذلك الصحفيَّة الكنديَّة من أصولٍ فلسطينيَّةٍ يارا جمال في قناة «سي تي في نيوز».

وهذا الكاتب الأميركيّ جاكسون فرانك يُطرد من عمله في شركة «فيلي فويس» للنشر والتسويق الرَّقميّ بعد انتقاده لبيانٍ داعمٍ للاحتلال أصدره فريق فيلادلفيا الأميركيّ لكرة السلّة.

صحيحٌ أنَّ هؤلاء، مثل الجنود في لعبة الشطرنج، لن يُسقطوا الوزير أو يحاصروا الملك. لكنَّ المساحات التي أخلوها تكشف بوضوحٍ المسار المتوقَّع لشخوصٍ قد تعرّض ملِكها لحصارٍ يفضي إلى كشّه!

أخبارٌ أخرى كثيرةٌ لم نتمكَّن من الإحاطة بها. فالتدفُّق سريعٌ وخاطفٌ للصور والأحداث العاجلة. لم ننتبه كم كنَّا نتسابق لنشر آخر خبر. سباقٌ لا مبرَّر له سوى المجاهرة بولائنا لك أو ربَّما لكي نُغرق الفضاء الافتراضيّ بما يستحيل حجبه. بعضنا كان يهمل أخبارًا مرّت قبل دقائق. للخبر تاريخ صلاحيَّةٍ هشّ، حتّى لو كان عن مجزرة. وبعضنا يكرِّر المنشورات نفسها تحت عناوين: «كي لا ننسى» و«لا تألفوا المشهد»، «واستمرُّوا في المقاطعة».

أفعال أمرٍ ونهيٍ تحاكم هشاشتنا وقدرتنا على الانصراف إلى شيءٍ آخر. وننصرف يا غزَّة إلى أمورنا. يكفي أن نترك الهاتف على الطاولة أو الكنبة لنبتر كلّ صلةٍ لنا بك. وفي محاولتنا للقيام بما يلزم من أعمالٍ في البيت أو خارجه تخطر بين عيوننا صورك كأنَّها شريط نيجاتيف لما سجَّلته عدسة ذاكرتنا من مشاهد البثّ الحيّ. ونهزّ رؤوسنا علّ صراخ أطفالك يهرهر من أذنَيْنا. ونقبض على قلوبنا كي لا تهرّ من الخوف.

الخوف من أن يفوتنا مشهدٌ من الإبادة أو من اشتعال دبّابة. وأضحى الخوف من تفويت شيءٍ خوفًا على مكانتنا وصورتنا من المحو. خوفٌ يحدونا لنكون عارضين نتسابق على التأثُّر والتأثير، أتباعًا ومتبوعين حتّى التلاشي في شبكة التماهي والفوز بأعلى نسبةٍ من القلوب كدليلٍ أوحد على وجودنا داخل الحياة لا على هوامشها.

كيف عاش العالم من قبل، مكتفيًا بتصفُّح الجرائد صباح كلّ يومٍ أو سماع الراديو لدقائق، كي يمضي إلى شؤونه حتّى موعد النشرة المسائيَّة في التلفزيون؟ قبل بدعة الإنترنت، لم تكن الكوارث ولا المجازر ولا كلّ الحروب أقلّ. وكان الناس يعيشون حياتهم ويذهبون في مشاوير ويؤدُّون أعمالهم ويعودون إلى بيوتهم ولا يعلمون من اتَّصل بهم على الهاتف الأرضيّ. ومن اتَّصل بهم لم ينشغل باله على غيابهم. وكانوا إذا أمسكوا كتابًا أنهوه بلا انقطاعات، وإذا التقوا بصديقٍ تبادلوا معه النظرات والكلام بلا انقطاعات، وإذا اشتاقوا إلى أحبّائهم كتبوا الرَّسائل بالحبر. وكان انتظارهم لردٍّ على رسائلهم يكوي القلب ويلهب الحبّ. وكانوا ينتظرون أسبوعًا لمشاهدة حلقةٍ جديدةٍ من مسلسل. كان للانتظار طعم مرارةٍ لذيذةٍ وكان للتأمُّل والحدس والتفكُّر كلّ الحضور في لعبة التلهّف والتخيُّل والقلق من المجهول وممَّا لا تُدركه الحواسّ.

كيف يتابع الأصمّ، والأبكم، والأعمى إبادتك أو بطولاتك؟ أو كيف يعيش هؤلاء في أرضك نفسها؟ ولماذا نحاكم أنفسنا ويحاكمنا الآخرون على ابتعادنا عن هواتفنا كأنَّ مشاعرنا تجاهك تنطفئ إذا غبنا عن الشاشة، أو كأنَّ وجودك كلَّه مرهونٌ بتلك الهواتف، إذا تخلَّينا عنها أصبحنا مشاركين في إبادتك؟ القبائل الرقميَّة لا تعرف ماذا يحصل في

الكونغو أو السودان. فهناك شعوبٌ تُباد، شعوبٌ لا تملك هواتف ولا حتّى إنترنت لتبثّ مآسيها. إبادتها تكتمل بجهلنا عنها.

نذعن لأفعال الأمر والنهي ونستمرّ في الوجود الافتراضيّ، طالما أنك تحتلّينه فلا بأس. إنَّه الإدمان الوحيد الذي يجب ألّا نشفى منه. إنَّك الخبر الوحيد الذي يجب ألّا يفوتنا. سنستمرّ في النشر لنفضح ما يحجبون. سنواصل التعليق علّنا نؤثّر. سنكتب المنشورات كي نروّض فينا لهفة الانتظار ونتعلَّم الصبر الرَّقميّ. وسنتماهى معك حتّى نصير مثل أطفالك النازحين الذين يلهون بدميةٍ ملفوفةٍ بشاشٍ من رأسها حتّى قدمَيْها. ماذا تفعلون؟ يسألهم صحفيّ. نعالجه لأنَّه مصاب. ما اسمه: سبايدر مان.

مثلهم نحن صادقون في محاولة تطبيب جراحك ولَفِّكِ بشاش الكلام! لكنَّك لست دميةً ولا سبايدر مان. وما نحن سوى بيادق كثيرة العدد، ضعيفةٍ في ميزان القوى، ميزتها الوحيدة أنَّها لا تتراجع إلى الخلف، عليها التقدُّم إلى ساحة المعركة وقد يأكلها بيدق الخصم، أو فيله، أو وزيره، أو الملك نفسه!

ملك الإنترنت محاصر! «لا تقنيّة للفصل العنصريّ». عنوان اعتصامٍ حاشدٍ نتابعه بشغفٍ يطالب فيه مئات الموظَّفين شركة غوغل بوقف مشروع «نيمبوس» الذي أبرمته مع جيش الاحتلال بقيمة 1.2 مليار دولار. لا عودة إلى العمل قبل وقف الإبادة يهتفون. والإبادة مستمرَّة. تعود مشاهد فاتتنا بسبب الحجب لآليّات الصهاينة وهي تجرف خِيَم النزوح المنصوبة أمام مستشفى كمال عدوان. المئات من المرضى والجرحى والنازحين دُفنوا أحياء. وتعود أخبار الأيَّام السابقة لتتصدَّر

صفحاتنا. خبرٌ أهمّ من حصار غوغل. نقرأ ونشاهد ونشارك: «لوّحوا بالرايات البيضاء، صرخوا «النجدة» بالعبريّة، علّقوا على صدورهم يافطاتٍ تطالب بإنقاذهم فقُتلوا بنيرانٍ صديقة».

نهلّل للفضيحة. العدوّ يقتل أسراه. رعبهم من كمائنك التي تطاردهم في أحلامهم وفي جباليا والشجاعية فضح ليس فقط افتقارهم إلى أدنى المهارات في المواجهة البرّيّة، بل عجزهم عن التمييز بين «أبناء جلدتهم» ومقاوميك.

العدوان الرَّقميّ مستمرّ. نتصدّى له بتكثيف المنشورات. «شارك. علّق. قاوم الحجب». أيُّ خبرٍ أعجل من الآخر؟ أقوال خبيرٍ عسكريٍّ عن هزيمة الكيان؟ أو خبر البرد القارس في أرضك؟ أو مشهد يحيى الدرش وأخيه يحفران في ترابك ليناما دافئَيْن ومدفونَيْن مسبقًا في حال استشهادهما؟ أم شهادة الدكتور حسام أبو صفية عن نبش العدوّ للقبور قرب مستشفى كمال عدوان وإخراج الجثث وفحصها ثمّ جرفها مع خيام النازحين؟ أم مشاهد للمسيرات الحاشدة في ألمانيا وفرنسا وهولندا والولايات المتَّحدة الأميركيّة وتركيا وبريطانيا وأندونيسيا وماليزيا؟ أم دعوات النشطاء إلى إضرابٍ عالميٍّ عن بطاقات الائتمان؟ أم مشاهد لنشطاء إيرلنديّين أمام سفارة أميركا يجسّدون فيها اعتقال الصهاينة لأهلك بلا قمصانٍ ومعصوبي العيون جاثين على ركبهم؟ أم تقريرٌ لمنظَّمة هيومن رايتس ووتش تتَّهم الاحتلال بتجويعك!؟

تسابقٌ محمومٌ على النشر مع قطع العدوّ لشبكة الاتّصالات والإنترنت وعزلك عن العالم. منشوراتٌ تمحى ومنشوراتٌ تختفي وأخرى نتناقلها عبر الواتساب... صديقةٌ ترسل إليّ شهادة امرأةٍ هدَّدوها

بالاغتصاب وضربوا جنينها. سأشاهدها بعد نشر شهادة أحد أبنائك: «أخذني أحد الضبَّاط وقال لي تعال امشي معي سألته إلى أين. قال لي بدِّي ابعتك عند ربَّك متل العروسة. أخذني إلى منطقة فيها نفقٌ تابعٌ للمقاومة وألبسني حزامًا مليئًا بالمتفجِّرات ووضع كاميرا على رأسي وحبلًا وسط جسدي وقال لي «لما أشدّ الحبل بترجع عندي» ودفعني بشكلٍ مفاجئٍ إلى فتحة النفق ووقعت بداخله. مشيت في داخله أربعين مترًا ثمّ سحبني خارج النفق مجدَّدًا عن طريق الحبل وأخرجني وقال لي: «لسه ربَّك ما بدو ياك».

أعود إلى الفيديو الذي أرسلته صديقتي. امرأةٌ حاملٌ في الشهر الخامس تقول: «أخذوني أوَّل واحدة وحطُّوني بخيمة وفتَّشتني جنديَّة وخلتني أشلح ثيابي وأضل بس بثيابي الداخليَّة. بعدين أخذني جندي وكلبشني وغمى عيني وحكالي الجندي رح يغتصبك. وضل يضربني على بطني وعلى راسي وهدَّدني بابني».

نترجم وننشر. ونهمل ما يحصل في الضفَّة. يصلنا منها القليل. فالمذبحة الكبرى تتفرَّع وتتمدَّد بأشكالٍ مختلفة: تجويع، تنكيل، جرف الجثث، اعتقالات ودروع بشريَّة.

نسخٌ ولصقٌ عن مجازر عديدةٍ على مدى أقلّ من قرن! لا إبداع في الإجرام! لا في درجاته ولا في أشكاله ولا في أدواته. أمّا أنت فتفاجئيننا كلَّ يومٍ بمقاوماتك في تنوُّعها وأشكالها وأسلحتها ونأخذ على عاتقنا مهمَّة تحقيق العدالة المعرفيَّة من خلال كلّ ما ننشره عنك لا كضحيَّةٍ لحضارةٍ كاملةٍ تريد الاستمرار في التوحُّش والهمجيَّة، بل كوجودٍ روحيٍّ رمزيٍّ يصارع من أجل إنقاذ الإنسان من تلك الحضارة البائسة!

ويحذِّرنا «خبراء في علم النفس» من الإصابة باضطراب الاكتئاب المزمن ويعدِّدون لنا إشاراته: الشعور بالحزن والخواء والفتور من أداء الأنشطة اليوميَّة، صعوباتٌ في إنجاز المهامّ، تراجع الثقة بالنفس، وهيمنة مشاعر الفشل واليأس والعجز!

مصابون نحن بكلٍّ هذه الأعراض. نتجلَّد ونُكابر ونُنكر ما يعترينا من عجز. يعود آدم من عمله في المساء. أخلع قناع يأسي. ألاقيه بابتسامة: «كيف الياسين 105 اليوم؟ ولّعوها منيح الشباب!»

من غير أن نتَّفق، توافقنا على عدم نشر مشاهد المجازر كي لا نعطي العدوّ نشوة انكسارنا للحزن.

ماريا أحمد أبو صافي تهزم العدوّ حين تحاصرها دبّاباته لأربعة أيَّامٍ تحت الردم بلا ماءٍ وبلا طعام: «كان الحيط كثير قريب منِّي والمكان ضيِّق كثير وكانت قدما أختي لانا عالقتَيْن وراحت تصرخ وتحاول رفع الأحجار المتراكمة فوق ساقَيْها. كانت تقول لي إنَّها عطشانة، حملتها وهرعت بها إلى غرفتنا الصغيرة. وجدنا حرامًا ممزَّقًا وبدل الوسادة أسندنا رأسَيْنا على حجر... كان ظهري يؤلمني لكنِّي تكوَّمت على نفسي كي ترتاح أختي وتمدّ ساقَيْها. لم تستطع لانا النوم من شدَّة الوجع وكنت أحكي لها قصصًا خياليَّة حتى تنام، وكلَّما سألتْ عن أبي وأمِّي وإخوتي كنت أحاول تسكينها والتخفيف عنها».

ونحن نمدّ سيقاننا مرتاحين للمستحيل في منطق أطفالك. هم الانتصار ونحن الهزيمة. باذخةٌ حكايات آدم عن ذلك المنطق المستحيل. روى لي كيف اقتحم الصهاينة في الانتفاضة الثانية منزل أحد المطلوبين للاحتلال. لم يجدوه. عاثوا في البيت خرابًا. وقبل

مغادرتهم قال أحد الضبَّاط لوالدته: سأحضره لك وسأقتله أمامك. فردَّت عليه: «إذا استطعت القبض عليه فأنا لا أريده. ابني يقاتل ولا يستسلم».

ماذا تعني لنا نحن الأمَّهات ما فعلته ريم الرياشي خلال انتفاضة الأقصى حين ألقت وصيَّتها قبل التوجُّه إلى حاجز «إيرز» شمال قطاع غزَّة؟ أمسكت بيدها اليمنى سلاحها، وبيدها اليُسرى حملت طفلها، فقتلت بعمليَّتها الاستشهاديَّة أربعةً من جنود الاحتلال وأصابت عشرةً آخرين بجروحٍ لا نعلم خطورتها؟

ماذا يعني لنا كأمَّهاتٍ يفضِّلن سلامة أطفالهنّ على أيِّ شيءٍ آخر، أن تلدي في عزّ الإبادة مئةً وثمانين طفلًا كلَّ يوم؟ بأيِّ منطقٍ سنفهم إصرارك على الإنجاب منذ سبعين عامًا حتّى الآن؟ إشهارٌ لقوَّة الحياة فيك؟ إيمانٌ بقدرٍ مكتوب؟ استخفافٌ بالموت أم حرصٌ على معنى الوجود؟ نجد في كلام طفلةٍ اسمها لين منطق المستحيل هذا: «بدِّي أدرس وأتفوَّق عشان فلسطين» وتسألها أمّها: ماذا لو قتلوك؟ فتجيب: آخذ علمي وتفوُّقي إلى القبر ولن يستطيعوا سرقته منِّي».

في كلِّ عامٍ كنَّا نتابع نتائج امتحانات التوجيهيّ. لم أكن أعرف عنها الكثير. وفاجأتني الأهمِّيَّة التي تعطى لها. أبناء إخوةٍ وأخواتٍ لآدم تصدَّروا قوائم المتفوّقين. ليس الإصرار على التعلُّم فقط ما يهتمّ له الصغار، بل التفوُّق. «أريد أن أكون اسمًا مهمًّا في العالم» يقول أحد أطفالك الذي لم يعرف في سنواته العشر غير الحروب.

عبد اللّـه أبو سلطان طفلٌ آخر يتفوَّق بأثرٍ يبقيه حيًّا: «بدأت بكتابة روايةٍ عنوانها: أشلاء».

هؤلاء كلُّهم شهدوا قتل رفعت العرعير. أن نتعرَّف إلى شاعرٍ وكاتبٍ من أبنائك بعد استشهاده دليلٌ فاضحٌ على تقصيرنا! كزهر الحنون تنبت كلمات العرعير فوق ركام الجريمة. «غزَّة لا تصمت»، «غزَّة تكتب مرَّةً أخرى»، «غزَّة تردّ»... سلسلة حكاياتٍ قطفها شاعرك من أنفاس جدَّته وأمّه. قالتا له: «ستُفرج». صدَّقهما وعلَّم تلاميذه الكلمة. «ليس التَّعليم هو الهدف الوحيد من هذه الحكايات، قال، بل الحاجة إلى امتلاك روايتنا».

الحمقى قتلوه. حمقى لا يفقهون منطق التاريخ الفلسطينيّ. من غسّان إلى رأفت قتلُ الراوي يخلّد الرواية وقتل الشاعر يخلّد القصيدة.

«إذا كان لا بدَّ أن أموت فلا بدَّ أن تعيش أنت لتروي حكايتي». طارت كلمات العرعير مع أشلائه واستقرَّت في خلد العالم وتناقلتها مشاهير الغرب بكلِّ اللغات. أضع الجملة أمامي. أحدِّق فيها كأنّي أستجدي من أيقونةٍ مقدَّسةٍ قوَّةً لا أملكها في مقارعة كلماتي وصياغة جملةٍ مفيدةٍ إليك. هذه المهمَّة اليوميَّة التي التزمت بها وأنا أعيش بلا خطرٍ عليَّ من صاروخ، أو قذيفةٍ أو رصاصةٍ أو جوعٍ أو بردٍ أو تلوّث! وشعوري بلا جدوى ما أفعل طالما هناك من يروي بدمه حكايةً يُراد لها أن تنقرض.

أغيب أيَّامًا عن الكتابة إليك. ألهي نفسي في شؤوني الصغيرة. وأدوِّن في دفترٍ صغيرٍ خواطر سريعة. وأحفظ في ذاكرة هاتفي شرائط مصوَّرةً وشهاداتٍ حيَّةً من أهلك. وكلَّما جلست هنا أمامك، أراني مثل قعر خابيةٍ أُفرِغت من مؤونتها. لغتي تبخَّرت. أمسك ما تبقَّى من حروف. ألصقها. تنفكّ عن بعضها بعضًا.

تحتاجين إلى مسافة! قالوا لي. إلى زمنٍ يعيد للعقل قدرته على استيعاب ما حصل من إجرامٍ في الدقيقة الواحدة، ويمهل القلب فرصةً لخفقانٍ سليم. لكنّي أصلًا على مسافةٍ ولا يطولني من الإبادة شيءٌ سوى هذه النكبة في لغتي!

أخرج لأمشي. أقطع مسافاتٍ على قدمي. أحدّق بوقاحةٍ في وجوه المارّة. أستنطق ملامحهم: هل تعلمون أنَّ غزَّة تُباد؟ إلى أين تذهبون؟ كم مجزرةً شاهدتم قبل أن تناموا؟ وكم وجبةً أكلتم اليوم؟

أصل إلى مركزٍ للتسوُّق. أهُمّ بدخوله كطفلٍ يلاحق الأشرار بمسدَّسٍ مائيّ. من يشتري الهدايا؟ من يملأ طاولات المطاعم؟ من يُطلق ضحكاته في المقاهي؟ من يأخذ سيلفي أمام شجرة الميلاد؟ أحملق في الناس لأفرز الأجنبيّ عن العربيّ، وأرديهم جميعًا قتلى ذنوبهم في ممارسة الحياة بسلام. مثلي...

أرى طفلًا يتمرَّغ على الرخام متفجّعًا ببكاءٍ يصمّ الآذان، مبتزًّا أمّه بهديَّةٍ يشتهيها. أودُّ لو أركله وأصفع أمّه وأصرخ فيهما كلمةً واحدةً فقط: غزَّة!

لكنّي أخرج لأدخّن سيجارة. على الباب ملصقٌ يوصي بملابس محتشمةٍ داخل المركز وبعدم التدخين في داخله، ويحذِّر من التعبير عن المشاعر الرومنسيَّة. أشعل سيجارةً أخرى. أفتح هاتفي. «كيف تتعاملين مع طفلك الذي لم ينل الهديّة التي تمنَّاها في عيده!؟»

من يتجسَّس عليَّ؟ كيف ظهر هذا المنشور على صفحة الأخبار المتداولة؟ سريعًا تابعت المنشور الدخيل: «ينصح علماء النفس بعدم

إنكار خيبة أمل الطفل أو تجاهلها، بل يجب التعبير عن الأسف لعدم اختيار الهديّة المناسبة، وطمأنته بالتعويض له في أقرب مناسبة».

أسحب الصفحة إلى أعلى بحثًا عن خبرٍ عاجلٍ جديد. لينا أبو العطا، اثنا عشر عامًا. أصيبت في قصفٍ على مدرسة نزحت إليها. تقول لينا: «بدل أن أحلم بهديَّةٍ أو أزعل على فقداني للعبةٍ ما، أحزن على ساقي وهي تتعفَّن أمام عيني».

يخطر لي أن أدخل وأشهر هاتفي على الملأ، وأشغِّل فيديو لينا متنقّلةً به من متسوّقٍ إلى آخر. أفكّر بالجلوس تحت شجرة الميلاد في الباحة الرئيسيَّة وتشغيل فيديو لينا بأعلى صوت. سيتحلَّق الناس فضولًا. وسيأتي حارس الأمن وقد يطلب منّي التوقُّف أو قد يطردني لأنّي لم أحترم التوصيات على الملصق.

أغادر. أركب التاكسي. صلاة الظهر تذاع في الراديو. وفي رأسي تدور حروفٌ حائرةٌ على أيِّ سطرٍ تقف. زحمة سيرٍ في الطريق. أفتح هاتفي وأكتب إليك.

ماذا أفعل يا غزَّة بهذا الوحش الصغير الذي بدأ يكبر في داخلي ثقيلًا كبطّيخة!؟ هل أهرع إلى أقرب شاطئٍ وأقرفص لألده بسرعة، وأدفنه في الرمال فيبرد؟ إذا قطعت حبل السرّة وحرَّرته، ماذا سيبقى منِّي بعد أن أصبح هو كلِّي؟ أحار في أمره. ربَّيته وفق الأصول التي يتربَّى عليها أعنف الوحوش. أرضعته حقدي وغضبي وكوابيسي وحرصت على تفحُّص لسانه كلَّ يومٍ للتأكُّد من سلامة صحَّته. ومع ذلك لست واثقةً من قدرته على فعل أيّ شيءٍ إذا خرج منِّي. فهو ككلِّ الوحوش لدَيْه نقطة ضعف. وحشيٌّ مائيٌّ يهوى ظلمة المحيطات ولدَيْه خمسُ عيونٍ

عملاقةٍ ترصد أيّ خطرٍ في العتمة. ماذا سيحصل له لو خرج إلى عين الشمس الكاوية للرمال؟ حتّى لو خرج ليلًا، فإنَّ حبَّة رملٍ واحدةً قادرةٌ على إعمائه وتحويله إلى قزمٍ بكّاءٍ يسهُل صيده. فكيف سيكون حاله مع آلاف الكيلومترات من الصحاري؟ لا أخفيك يا غزَّة، أخشى عليه من سذاجةٍ ورثها منّي بقدرته على افتراس العالم بلسانٍ صحيحٍ وعيونٍ خمس. أأتركه هكذا يسرح في ظلماتي، ويكبر في عالمه السفليّ متغذّيًا على شحوم غضبي؟ أم أغامر وأبصقه إلى العالم الأعلى وأشهد على انهياره فوق الرمال، فيذهب كلّ جهدي سدًى!

أعيريني حكمتك يا غزَّة، لأتقن تربية وحشي، فلا يستطيب ظلماتي ولا يتهيَّب زوبعة الرمال!

كم مرَّةً على غزَّة أن تعدّ من ليالي الرعب والموت؟
كم عليها أن تعدّ من أيَّام الفقد والغياب والوجع؟
كم عليها أن تعدّ من ساعات الجوع والعطش والبرد،
والمرض، والنزوح، والغربة؟
كم عليها أن تعدّ من راحلين وباكين ومكلومين؟
كي تسقط لعنة الحساب وتختفي قسوة الأرقام.

علا عطاالله

لم يمت في الحال. بقي ملقًى على الأرض ستّ ساعاتٍ بعد إصابته. صرخ ونادى لإنقاذه. لم يأت أحد. المكان محاصرٌ والقصف مستمرّ. زميله أصيب في كتفه وراح ينزف، مشى عدَّة أمتارٍ ليحتمي من القصف وصراخ رفيقه المصاب يبتعد. صادف رجال الدفاع المدنيّ. استعجلهم لينقذوا رفيقه. أقسموا أن يرسلوا سيَّارة إسعافٍ أخرى. لم تصل لأنَّها قصفت.

كلُّ الكاميرات على وائل الدحدوح في المستشفى، ولا أحد يعلم ماذا حلَّ بزميله سامر أبو دقة. لم نعرف اسم هذا المصوِّر قبل

تلك اللحظة. يُقال عنهم جنودٌ مجهولون. نتعرَّف إليهم حين يرتقون شهداء. كلُّ المواقع راحت تتناقل أخبار هذا الشابِّ وصوره وكلماته. عمل من خلف الشاشة لسنوات، ووحيدًا سقط في ساحة حربٍ بعيدًا عن الشاشة. بقيت كاميرته التي خزّنت مشاهد من تلك اللحظات المرعبة في محيط مدرسة فرحانة! وعلى مدى أيّامٍ تاليةٍ رافقنا فجيعة أسرته بخسارته، وعرفنا وصيَّته إلى أولاده ورندحنا مع ابنه زين ترنيمة الشوق والوجع.

في هذا اليوم بالذات قرَّرت تجميد صفحتي. آخر منشورٍ لي كان عن سامر أبو دقة. الشهيد من خلف الشاشة. ناقل الصورة الحيَّة للمجازر وأشلاء الشهداء، أمضى ستّ ساعاتٍ ينزف وحيدًا. لا مايكروفون ولا كاميرا ولا إسعاف. ونحن من خلف الشاشة نحاول تركيب المشهد. هل حاول أن يزحف، أو أعاقت إصابته البليغة حركته؟ هل حاول قطع نزيف الدم؟ كم مرَّةً تفقَّد هاتفه أملًا في إشارة إنترنت؟ هل فرغت البطارية، أو كان الإنترنت مقطوعًا أصلًا؟ هل بكى؟ وماذا قال قبل النفَس الأخير؟ هل كان معه ماء؟ أ بدأ يهذي أم مات فقعًا أم بلغ الألم حدًّا لا ينهيه إلَّا الموت؟

الأسئلة نفسها تدور في رؤوسنا كلَّما علمنا أنَّ عوائل كثيرةً عالقةً تحت الأنقاض ولا مجال لإنقاذها. كيف نقوى على نشر هذه المشاهد؟ وبأيِّ كلامٍ نصفها؟ لن أستمرَّ في مهزلة التفرُّج وإعادة النشر! لا بوست ولا ستوري. صدمني قراري هذا ولم أتوقَّع صموده. سيغلبه شعوري بالذنب. تخلَّيْت عنك أو ألفت إبادتك؟ لكن خلص. حسمت أمري. سأموت افتراضيًّا. كل من يتابعني وعددهم أقلّ من أربعمئةٍ باتوا يعرفون الحكاية. ساهمت بقسطي من الضغط على الخوارزميَّات. حاربت الحجب الإلكترونيّ. ماذا بوسعي أن أفعل بعد؟

ألقي بنفسي على الكنبة أحدِّق في الشاشة. آدم ما زال ينشر. أهديه قلبًا، أو تصفيقًا أو دمعةً بحسب طبيعة المنشور. قد يسألني في المساء عن سبب توقُّفي عن النشر. سأقول له قرَّرت العودة إلى الكتابة. سيفرح بالتَّأكيد. وسيسألني كلَّ يوم: كم صفحةً كتبت؟ تورَّطت. إذا كنت عاجزةً عن نشر كلمتَيْن على انستغرام، فمن أين سآتي بصفحات!؟ ما الذي صفق الباب على عقلي فعطبه!؟ لا شكَّ أصبت بلوثة التصفُّح الإلكترونيّ التي عطَّلت كلَّ قدراتي على الاستيعاب والتَّركيز. أنا مجهدةٌ فقط. أكثر من شهرَيْن وأنا ألاحق كلَّ تعليقٍ كمن يطارد صراصير تنبت من ثقوبٍ خفيَّةٍ وتنتشر في كلِّ الأرجاء. أصدّ من يهاجمك كأنِّي أنتِّف جناحي ذبابة! أستعير مثلَّثك الأحمر المقلوب وأعيِّن الهدف. كلماتي تعفر كغبارٍ وتندثر. ماذا تفعلين حين تتجمَّع حشراتٌ حول طبق؟ ترمين الطبق وتغادرين المكان فينتهي الأمر! مأساةٌ أن تصبح هذه معركتنا الوحيدة في الطوفان!

لم ينفع التسكُّع في الطرقات في عزِّ الظهيرة ولا الكتابة إليك هنا ولا محاولات الانشغال بأمور البيت الصغيرة في تقليص مضاعفات هذا الشلل المفاجئ في عقلي الذي تركني مع عينَيْن تدوران في كلِّ الاتِّجاهات وإصبعَيْن تتحرَّكان بلا هوادةٍ في اتِّجاهٍ واحد: من أعلى الشاشة إلى أسفلها. قلبي في حلقي. كفأرٍ عالقٍ في حنجرة ضفدعٍ حرمته نعمة النقيق وأثقلت ركبتَيْه على القفز. رابضةً في مكاني على الكنبة سأتكوَّر قرب آدم في المساء وسأغفو باكرًا هربًا من التصفُّح.

في تلك الليلة يا غزَّة، أغمضت عينَيَّ وخلتني غفوت، لكنِّي أحسست بهما مفتوحتَيْن وشعرت بكتلةٍ ثقيلةٍ تلتصق بظهري كأنَّها جسد إنسان، ينفث أنفاسه الساخنة في عنقي. حاولت مرارًا الإفلات

منه، حرَّكت جسمي المطوَّق بما يشبه ذراعَيْن صلبتَيْن. لم أفلح بمدّ يدي لأوقع وعاء شمعةٍ قرب السرير، فيسمع تكسّرها آدم ويهرع إليَّ. عبثًا فتحت فمي لأصرخ اسمه. رئتاي مطبقتان! لم أدرك كم من الوقت مرّ وأنا على هذه الحال لكنَّه كان بمثابة دهر. فجأةً تلاشت الكتلة كأنَّ شوالاتٍ من الحجارة هوت عن ظهري. نهضت من السرير وركضت مقطوعة الأنفاس إلى أحضان آدم. مثل كلبٍ مذعورٍ رحت ألهث وأحاول إخباره ما حصل لي. شربت أكثر ممَّا تكلَّمت.

«هذا جاثوم» قال ويسمَّى أيضًا شلل النوم. ألقيت برأسي على صدره. راح يطمئنني أنَّها حالةٌ تحدث لكثيرٍ من الناس لأسبابٍ غير واضحةٍ تمامًا لكنَّ التوتُّر وقلَّة النوم أحدها.

لماذا نطمئنّ يا غزَّة عندما نعلم أنَّ ما يصيبنا ليس استثناءً وإنَّما حالةٌ شائعةٌ لدى كثيرين؟ أهو عزاء التوحُّد مع الآخرين في حالةٍ مرعبة؟ ألهذا يجتمع عشرون أو خمسون فردًا في بيتٍ واحدٍ ليعيشوا تفاصيل الإبادة معًا، فتهون عليهم كوارثها؟ لحظات الرعب التي مرت عليّ بفعل الجاثوم كانت فظيعة، لأنَّني كنت وحدي ولم أقو على الاستنجاد بآدم. عجزي عن الحركة واختناق صوتي أصاباني بذعرٍ أكبر ممَّا سبَّبه لي التصاق تلك الكتلة الصلبة بظهري. إدراكي أنّي وحدي في هذه الحالة الغريبة وسط العتم ولا سبيل أبدًا لإطلاق صرخة نجدة، كان كفيلًا بإماتتي مفتوحة العينَيْن. أهكذا سيموت من هم تحت الأنقاض؟!

هل هذا الجاثوم هو وحشي الملتصق بي والرافض الإفلات منِّي لينتقم لك ويفترس العالم!

في الليالي التي تلت، رافقني إلى السرير. واستلقى إلى جانبي كي أطمئنّ وأغفو فلا يدهمني الجاثوم وهو بعيد. كرهت هشاشتي أمامه، ثمّ استسلمت لها لأفسح لوحشي أن يرضع من وحشه. أغار من وحشه. كيف يقلّم مخالبه وتبقى حادَّة؟! كيف يحترق ماء عينَيْه ولا يغشى بصره؟! كيف يخرج إلى الشمس ولا تذوي أجنحته!؟ كيف ينفث سموم غضبه ترياق أملٍ ويشعل بلسانه جذوة الحياة!؟ كيف لا يبدّد غيظه عبثًا ولا يتلهّى بدهس الأقزام كما يفعل وحشي؟!

عبثًا يتعلَّم وحشي، فلا دمه فلسطينيٌّ صافٍ ولا نسله من العماليق. وفي لحظة نعاسٍ قاهرةٍ أدار وحش آدم ظهره لي كمن يحشو مسدّسه خفية. همست له: احكِ لي عن قهرك. فاحت من صوته رائحة البارود: مقهورٌ لأنّ أحقر كائنات العالم تتجرَّأ على أنبل شعبٍ في الكون!

ماذا نفعل بوحوشنا يا غزَّة كي تطيح بهذا الجاثوم الملتصق بك أيّامًا وليالي؟ كيف نفلتها لتنتقم لنا على كلّ هذا القهر فتحرق العالم لأجلك؟ الجاثوم الحقيقيّ يُرى بكامل ملامحه ووجهه الأبيض. لقد احتكر كلّ صفات الوحوش كي يردع من يقف في طريقه وهو «يسحق العدل بحقارةٍ كلَّ يوم».

ومع ذلك لم نفقد الأمل. ليس لأنَّه قويٌّ وراسخٌ ولا يتزعزع فينا، بل لأنَّك تصنعينه لنا طازجًا كلَّ يوم. فهذا جنديٌّ يستيقظ من نومه ليلًا على كابوسٍ ويفتح رصاص رشّاشه في غرفةٍ تعجّ بالجنود. نتوقَّع أنَّ ما رآه من تفجُّر عيون الأنفاق بزملائه أو من دبّابات «ولّعت» بمن فيها هي السَّبب في فقدانه لعقله. ولا نشكّ أبدًا في أنَّ سلامته النفسيَّة تضرَّرت بسبب احتراق أطفالك وقتل الأجنَّة في أرحامك!

وينتقم لنا الأمل أيضًا عندما تعيدين للعدوّ السموم التي ينشرها في أرضك، فهذا جنديٌّ قتلته فطريَّاتٌ اجتاحت جسده وأصيب عشرة جنودٍ آخرون بمثلها والسَّبب: تلوّث تربتك بمياه الصرف الصحّيّ بعد تدمير الاحتلال للبنى التحتيَّة!

وتراودني من جديدٍ قناعةٌ ساذجةٌ بأنَّ أميركا لن تضع الديك الروميّ على مائدة عيد الميلاد قبل إهدائك رحمةً ولو مؤقّتة «باسم الأب والابن والروح القدس!» وقد لا ترحمك بقدر ما سترحم نفسها من ضغوط المتظاهرين المقلقين لراحتها، أو قد تشفق على جنود كيانها الحبيب الذين ينقلون إلى مراكز الإنعاش، ليتلقَّفهم أطبَّاء نفسيُّون ومتخصِّصون في الصحّة العقليَّة. لكن في ليلة الميلاد، وفيما كان الديك الروميّ الأميركيّ يتقلّب على نارٍ هادئةٍ في فرن البيت الأبيض، ارتعدت الأرض والسماء في مخيَّم المغازي وبضربة صاروخٍ واحدٍ استشهد سبعون شخصًا!

ستقرع الكؤوس الكريستاليَّة. وسترفع الأنخاب. وسيوضع المسيح في المغارة. وستضاء الشموع وتُشقَع الهدايا فوق بعضها بعضًا، كما تشقع جثث أطفالك ونسائك ورجالك مغلّفةً بالأبيض. وستربط الكرة الأرضيَّة أمنياتها بشريطٍ أحمر طويل... طول خيط الدم لعشرين ألف شهيد.

في بيت لحم، المغارة استحالت أنقاض منزل: «هنا غزَّة» يقول حنا حنانيا، بين جدرانها تحتضن العائلةَ المقدَّسة والأطفالَ الذين ارتقوا شهداء كالملائكة تنظر من السماء».

ميلادٌ تحت الأنقاض. الشجرة مطفأة. والقلوب شموعٌ خاشعة. هل من جدوى يا يسوع؟ لا ميلادك ولا صلبك ولا قيامتك بدَّدوا

درب الجلجلة. اخرج من بين الأنقاض وسترى الدرب مكتظًّا بحاملي نعوشهم. ستسمع زهوة تصرخ فينا: «أنا ضهري مكسور. أخدوا أبوي. نفسي أشوفه قبل ما استشهد».

اخرج وسترى أكثر من عشرين فردًا لعائلةٍ واحدةٍ حاصرهم الاحتلال في بيتهم «في منطقةٍ آَمنة». ربّ الأسرة كامل نوفل راح يشرح للصهاينة لماذا لم يتّبعْ أبناؤه التعليمات بالإخلاء: معاقون كلّهم. فيهم الأصمّ والأبكم وضعيف البصر. ومع ذلك أطلقوا عليه الرصاص فاستشهد. ثم رموا عليه قنبلةً واعتقلوا أبناءه ونكّلوا بهم في الشارع وأجبروهم على خلع ملابسهم. وبعضهم مفقودٌ إلى اليوم.

ماذا نقول لكلّ هؤلاء يا يسوع؟ أحسنوا إلى مبغضيكم؟ أحبُّوا أعداءكم؟ صلُّوا لأجل جميع المسيئين إليكم؟ هؤلاء لم ولن يصرخوا: إلهي إلهي لماذا تركتني؟ يعرفون إلههم. لن يتركهم. يفعلون ما يرضيه وبالصبر يحتملون الظلم ولا يلقون على الأرض سلامًا، بل سيفًا: «لن نغادر غزَّة» يهتفون.

سأغادرك أنا ولن أعود ملتصقةً بهاتفي كشحَّاذٍ يتنقَّل من نافذة سيَّارةٍ إلى أخرى، تارةً يصلّي وتارةً يلقي التعاويذ وتارةً يبصق فلا جوعه يبرأ ولا نافذة تفتح ولا صلاة تستجاب ولا تعويذة تعجز الشيطان!

الابتعاد عن هاتفي يماثل الخروج من صالة سينما تعرض على مدار الساعة أفلامًا رديئةً بلا تحذيرٍ من مشهدٍ إباحيٍّ قادم. أخرج تائبةً عن المشاهدة وألتصق بمكتبتي كدودة. ستّمئة صفحةٍ من كتاب «المسيح يُصلب من جديد» أقضمها في ساعاتٍ وأجترّها من جديدٍ لأعيش يسوع كما أريد: «خالعًا ثوب الحَمَل متدثّرًا ثوب الذئب». أدوّن

في مفكّرتي: «إنَّ صلاتي ليست ندبة شحّاذ، ولا اعترافات عاشقٍ ولا حسابات متواضعةً لتاجر مقايضةٍ صغير: وهبتك فأعطني... إنَّ صلاتي هي تقريرٌ من جنديٍّ إلى قائده: هذا ما فعلته اليوم».

ماذا فعلتِ اليوم؟ يسألني آدم في المساء. سجنتُ نفسي مع أمير الظلّ، أقول. صاحب أعظم الأحكام في التاريخ بالسجن المؤبَّد خاطبني كأنّي ابنته وأقسم لي أن يحرِّر فلسطين ويجرِّد الصهاينة منها ويجرِّد أشباه رجال أوسلو منها. ماذا يعني حكمٌ بالسجن خمسة آلافٍ ومائتي عام؟ لماذا لم يتغيَّر شيءٌ يا آدم، بل لماذا ساء كلّ شيء؟

• هل كتبتِ؟

• لا... علقتُ في الشوك والقرنفل. ووقع قلبي كبرتقالةٍ في أزقّة مخيَّم الشاطئ. لعبت مع صغاره «عرب ويهود». رافقتهم إلى مخابئهم، شاركوني سرَّهم في صناعة أوَّل قذيفة هاون وأوَّل حزامٍ ناسف.

أُكتبي، يقول ثمَّ يصمت ويتناول هاتفه. لعلَّه يتقفَّى أثري في قلبٍ علّقته على منشور. وفي محاولةٍ منّي لأطمئنه أنّي متابعةٌ لكلّ ما يحدث، أسأله عن سبب تسريح العدوّ لخمسة ألوية. أهي خديعة، تغييرٌ في تكتيكٍ أم خوفٌ من الكمائن؟

في المطبخ نجلس لتناول العشاء. أكاد أغصّ بعتابٍ ولومٍ على طمأنينةٍ صدّقتها من كلامه: «العدوّ لا يحتمل الحروب الطويلة». لماذا أخفى عنّي الحقيقة؟ هل خاف على قلبي من صدمة الموت اليوميّ الممتدّ وكأنّه أطول من أعمارنا جميعًا؟ سمعته مرَّةً يقول لأحدهم عبر

الهاتف: هذه المعركة ليست كغيرها، ستطول، نحن الآن في الموجة الأولى من الطوفان.

أبتلع لومي وهو يغمس لقمة الخبز في طبق العدس. على قميصه أقرأ سطرَيْن بالإنجليزيَّة: لا تخف من الغد، فلا مجد من دون شجاعة.

- اسمعي ماذا يقول قائد سرِيّة غولاني: كان القتال في الشجاعية قاسيًا جدًّا وحرب عقول، كان يجب علينا الحذر من العبوّات الناسفة... كان المقاومون على بعد عشرات الأمتار من قوّاتنا ينتظروننا ويأكلون التمر ويشربون الماء. وانتظروا دخولنا كي يقضوا علينا. كان هذا العام صعبًا ومليئًا بالخسائر على جيش الاحتلال وحكومته.
- الأسرى حالتهم زفت...
- كلّ عمرهم حالتهم زفت...
- وبعدين؟

يضيف الزيت على العدس. يرفع ملعقةً أخيرةً من الطبقِ ويصوّب عينيه نحوي: شبعتِ حبيبتي؟ كُلي بعد...

أسند ظهري على الكرسيّ وأشعل سيجارة. إشارةٌ يعرف معناها: شبعت. يضع طبقي فوق طبقه: «القصّة طويلةٌ يقول، ما زلنا في البداية» ... يلملم بقايا الطعام والخبز ونوى الزيتون يضعها في كيسٍ ويصرمه من عنقه. سنتسابق على من سيرميه خارجًا. ستكون الغلبة له. وبعد دقائق سنلتقي على الكنبة أمام الشاشة جائعَيْن إلى كمينٍ يعجّل النهايات البعيدة. قد نتبادل بعض الكلمات. قد تتشابك أصابعنا. قد يبتعد عنّي

دقائق ليكتب منشورًا. قد أفتح هاتفي لأقرأه. قد نتجادل حين أعانده في مغالبة نعاسي. قد أذعن لإصراره وأزحف إلى السرير قبله. وقبله قد أصحو لأخبره عن آخر مجزرةٍ وقعت ونحن نيام. قد أودّعه صباحًا على الباب بقبلة، يقول لي بعدها: أُكتبي! وعلى هذا المنوال سننهي العام.

من طقوسنا الثابتة في نهاية كلّ عامٍ أن نتحدَّث عمَّا أخفقنا في تحقيقه وعمَّا أخطأنا في تصويبه من عاداتٍ وسلوكٍ تعثّر به حبّنا، فازداد ثباتًا كطفلٍ يتعلَّم المشي في العتمة. وغالبًا ما تتحوَّل جلسة المكاشفة والاعترافات هذه إلى حوارٍ أشبه بلحظات فتح الهدايا حين نفكّ الشريط ونمزّق الأغلفة وتعلو الدهشة وجهَيْنا ممَّا يبطنه قلب كلٍّ منَّا للآخر.

في الليلة الأخيرة من ديسمبر 2023، وقبل أن نغفو رأسًا على صدر، سألته: إلى ماذا تشتاق؟ وعلى ماذا تندم؟

- لا أندم على شيءٍ أبدًا، بل أشتاق إلى ما لم أصنعه، إلى خياراتٍ تردَّدت فيها، وإلى عمرٍ لم أعشه. يا غادتي، حين ننظر إلى ماضينا نرى ذلك الفراغ الذي لم نملأه بذكرياتٍ لو صنعناها لأحدثت فرقًا في الحياة.

- ما لم تصنعه وما لم تعشه وذلك الفراغ الذي تحدّق فيه هو أن تكون الآن هناك... صح آدمي؟

ثقلت أنفاسه وغفا قبلي... أو هكذا أوهمني.

في صباح اليوم التالي لم نتكلَّم كثيرًا. ودّعته على الباب وتمنّينا لكلَيْنا يومًا جيّدًا. بعد ساعةٍ من وصوله المكتب وفيما أنا أتابع أخبارك، صادفني منشورٌ كتبه على صفحته:

«غزَّة مسحت كلَّ ما تعلَّمناه وكلّ ما راكمته البشريَّة قبلنا من قيمٍ ومبادئ ووجدان. اكتشفنا أنَّ هناك مساحاتٍ شاسعةً من الحسّ الإنسانيّ كانت مجهولةً بالنسبة إلينا وتوصيفاتٍ جديدةً لقواعد الحياة لم نكن نعرف أنَّها موجودةٌ أصلًا. بعد ملحمة غزَّة، اكتسبت الحرِّيَّة مفهومًا جديدًا وتجسيدًا جديدًا أيضًا. جميعنا اكتشفنا أنَّ لا أحد فينا حرٌّ كما يليق بالحرِّيَّة. ولا أحد يحيا كما يليق بالحياة. ولا أحد يعشق ويفرح ويغضب كما ينبغي.

الانفجارات التي مزَّقت جسد غزَّة المتَّكئ منذ الأزل على شاطئ البحر، مزَّقت ثوابتنا وبديهيَّاتنا حول الوجود والصداقة والحب، والعشق، والشعر، والأدب. وحول الشهامة، والكرامة، والصدق، والوفاء.

أدخلتنا غزَّة أبعادًا وجدانيَّةً جديدةً وكأنَّها كانت مختبئةً في عوالم موازيةٍ فوجدنا أنفسنا أمام مساحاتٍ جديدةٍ للمبادئ والمشاعر والسلوك. في هذه العوالم لا اعتدال ولا وسطيَّة، بل عشقٌ حتَّى الشهادة وحرِّيَّةٌ حتى التسامي وحياةٌ كمسار الرصاصة مدويَّةً وقاتلةً وصانعة حياة. بعد ملحمة غزَّة لم يَعُدْ مسموحًا أن تكون الحياة مجرَّد عبورٍ بائسٍ صامتٍ نحو الموت».

ليس أقلّ من خمس مرَّاتٍ قرأت المنشور. وفي كلِّ مرَّةٍ كانت تلحّ عليَّ رغبة سقوط رأسي في حجر أمِّي. كنت فيما مضى، أعود إلى القرية بعد أسبوعٍ من العمل في بيروت، أستحمّ من عبق الصيف وطول المشوار، لأركن إلى تلك الكنبة على الشرفة حيث تجلس أمِّي وأمامها سهل البقاع الخصيب. يهوي رأسي في حجرها وأطوي جسمي لأصير بحجم طفلة. «تعبانة البنوت؟». مهما أجبت لن تصدِّق إلَّا حاجتي إلى

حجرها ونسمةٍ من رائحة الصنوبر المتهادية أمام البيت. وأنتظر لتعبُر أصابعها في خصل شعري لتسحب التعب من أطرافه، وأعاند ثقل عينيّ كي لا يفوتني شعوري بيدها على رأسي ولا يفوتني صوتها وهي تروي لي الكلمات الجديدة التي نطق بها ابني في غيابي أو أفعال الشقاوة التي عاقبَتْه عليها بحرمانه من أفلام الكرتون لنصف ساعةٍ في اليوم، أو الليالي التي أبى فيها أن ينام قبل رؤية طلوع القمر من وراء الجبل.

الآن في هذه اللحظة، «تعبانة البنوت» يا غزَّة. إلى حجرك أرنو، وإليك أشكو، وأنت مثل حوذيّ تشيخوف. تهتفين: ابني مات هذا الأسبوع. أسمعك، ولكنّي أكمل وأشكو لك كآبتي بعد قراءتي لمنشور آدم، وأسألك إلى متى سيحبس شوقه إلى ما لم يصنعه؟ أمستعدَّةٌ أنا للتضحية من أجل صنيعٍ يراوده ومن دونه يذوي؟ الطريق إلى البلاد مقطوعةٌ الآن. الظروف لصالحي حتّى اللحظة. لكنّي أعرف. لست أهلًا للاستحقاق متى أتى.

متى نتعلَّم أن نحبّ بلا خوف من الفقد؟ للفقد وجوهٌ كثيرةٌ منها الرحيل ومنها التخلّي ومنها الموت. أنحبّ من يعطينا أم من لا نعطي لسواه؟ أنحبّ في التمسُّك أم في التنازل؟ وما الذي يستحقّ أن نتنازل عنه ليبقى من نحبّ كما أحببناه؟ هل أتمسَّك به فيخسر أغلى ما أحبّ في وجدانه وعقله وروحه؟ متاحٌ لي الرفض. لكن هل كلّ متاحٍ مباح؟ أيحقّ لي منعه من الرحيل وأنا في كلّ ذرّةٍ من كيانه أحبّ فلسطين؟ أين الحدّ الفاصل بين أناي وأناه؟ وهل إذا قرَّر البقاء من أجلي سأبقى أحبُّه؟ التضحية مفهومٌ جدليّ. أحيانًا تبدو انكسارًا، أليس كذلك؟ فقيمة ما نضحّي به تحدِّد قيمة التضحية.

على كنبةٍ واحدةٍ أمام الشاشة، تابعنا إبادتك. أمدّ أصابعي إلى ربلة ساقه لألمس العضل الذي شدَّدتْهُ طرقاتٌ جبليَّة. تخيَّلته طفلًا لاجئًا يعدو ليعود، ويقفز ليأمن، ويهرول ليستقرّ. وتخيَّلته يافعًا يعبر التلال والصخور ويعفر التراب تحته فتتحرَّر الأرض.

كأنَّه رجلٌ من أشجار، قلتُ في نفسي حين عرفته. سألته عن حيفا قال: لها رائحة أمِّي والأشجار المعمّرة. سألته عن بيت لحم فغبّ من رائحة الأحجار وتنشّقتُها. وعن طولكرم فاحتار بين الياسمين والقمح، وعن قلقيلية فابتسم للجوافة، وعن جنين فعلا جبينُه بضوع التراب الأحمر، وعن عكا فشهق صوته كنسائم ملحها وبحرها، وعن يافا فماثل بين رائحة زهور الحمضيَّات وأوَّل حبّ، وعن نابلس فحلا اللسان بسكّر الحلويات قبل الفلافل وبعدها. وسألته عن ريف نابلس فاتّكأ الكلام على خشب الزيتون وفاح عصيره. وسألته عن القدس فانكفأت الشفتان تحبسان طعم الكعك بالدقة.مكتبة سُر مَن قرأ

واللّـه أنّي حاولت يا غزَّة. حاولت أن أعوّضه هذا الفقد الفادح بعدَ خروجه من فلسطين لأجلي. أقسم أنّي حاولت. لكن، لا المقلوبة أتقنتها ولا الحلويات مهارتي. استغرقتني سنواتٌ لأجعل قلّاية البندورة أقرب ما تكون إلى تلك المقلاة التي توضع فوق موقدٍ من الحطب وتتجمَّع على حوافها الداخليَّة بقايا البندورة المحترقة. ومن أين أجيء برائحة خبز الطابون وكيف للمنسف الذي أعدّه بالجميد الكركي أن يقارب ذلك الطعم على أصابع أمِّه؟

بذاكرة الروائح حرسَ البلاد في قلبه وأهداني منها قوارير عطرٍ لا تنكسر وإن وقعت. يرشّ عليّ منها قطراتٍ فيحلو عيشه معي بأقلّ قدرٍ من الندم.

كآنيتَيْن من خزفٍ كنَّا يوم التقينا. بحرفة يابانيٍّ صبورٍ لملمنا معًا أجزاءنا المكسورة ورتقناها بلاصق الحبّ الذهبيّ. لم نُخْفِ جراحنا ولا عيوبنا. أبقيناها مرئيَّةً وصرنا نرى كمالنا في نقصاننا وفي تلك الشقوق المذهَّبة.

لم أسأله عن رائحتك يا غزَّة... خفت أن أزعل منك. فأنت من جعلته يشتاق إلى ما لم يصنعه.

الجزء الثاني

أرواحُ نباتيَّة

عمّان، 8 كانون الثاني 2024

صديقتي، كلّ عامٍ وأنت وآدم بخير...

أحببت اقتراحك في تبادل الرسائل بعيدًا عن مواقع التواصل المختلفة. نحن جيل المكاتيب المختومة بقبلةٍ بلون أحمر الشفاه.

سقا اللّـه تلك الأيّام. كانت لغتنا تتدفّق بلا عناءٍ وبلا أخطاء. وكان بَوحُنا صادقًا وكلُّنا ثقةٌ أنَّ من سيقرؤنا سيفهمنا وسيساعدنا على فهم أنفسنا أكثر. وكنّا بارعين في الانتظار، ونملأ تلك المسافة بين وصول رسائلنا إلى وجهتها ووصول الردّ عليها، بكلٍّ ما أوتينا من خيال. لو أنَّ كافكا عاش في زمننا لما لعن الرسائل المكتوبة بخطّ اليد! (ولو أنّه عاش زمننا لما كان بطله سامسا سيهلع من انمساخه إلى حشرة، فإنسان اليوم سعيدٌ بانمساخه ويظنّ أنَّه تجمَّل!)

غيَّرتُ المقدّمة ثلاث مرَّات. احترت بين السؤال عن صحَّتك وعن العائلة وعن مشروعك الروائيّ... بداياتٌ باتت مضحكةً بوجود الواتساب وغيره... مع فنجان قهوتي الرابع تخيَّلتك إلى جانبي في

هذه الغرفة التي تحبّينها، على مقعدك قرب النافذة تشعلين سيجارتك العاشرة وتسرح عيناك في الغيوم... فسهلت عليَّ البداية. لكنّي بعدها ارتبكت. فخرجت لأتمشَّى وخطر لي أن نتحاكى عبر بوتيم. لا أعرف لماذا أرهبتني فكرة المكتوب. أنا أكتب باستمرار. وبسهولة. طالما لا أحد سواي سيقرأ ما أكتب. أمَّا الكتابة للآخرين فأصبحت أشبه بامتحانات البكالوريا. ثمَّة من سيضع علامةً وثمَّة من سيحكم على مستوانا...

عدت من مشواري وكانت الرسالة أمامي بانتظار أن أملأها. تذكَّرت كيف كنت تصلين قبلي إلى موعدنا وكلّك استعدادٌ لسماع ترّهاتي. ورغم كلّ ما كنّا نختلف عليه، لم أفكّر يومًا بالتخلّي عن لقاءاتنا، رغم قسوتك عليّ. حاجتي إلى سماع ما أرفض سماعه وأنا وحدي، أو لقول ما لا أجرؤ على قوله لنفسي كانت تدفعني دائمًا إلى لقائك من جديد.

ومع ذلك أشعر الآن بارتباكٍ أكبر لأنّي مع كلّ كلمةٍ سأخطُّها سأسمع صوتك يطنّ في رأسي وسأرى عينَيْك تتقلّصان تحت حاجبَيْك المعقودَيْن وقد تندمين على طلبك لمكتوبٍ منّي. أتمنَّى أن تستوعبي حقيقةً واحدةً فقط. مرضي المزمن يتفاقم مع تقدُّمي في السنّ. جئت إلى الأردن بذريعة تغيير الجوّ، لكنّي لم أترك طبيبًا في علم النفس وعلم الوراثة والباطنيَّة إلَّا وطرقت بابه وابتلعت ممَّا هبَّ ودبّ من أدوية. لا أعرف كيف صمدت عشر سنواتٍ في مهنة التمريض. ربَّما الأمل بأن أتعوَّد أو تقسو روحي. تتذكَّرين كيف كنت أُصاب بنزلة بردٍ إذا أصيب بها مريضٌ ما. الآن وضعي أسوأ. في تلك الأيَّام أو السنوات التي رافقتني فيها وكنت تتهكَّمين على خياري للتمريض وأنا بهذه الهشاشة، قلت

لك إنّي أضع نفسي في قلب الخطر علّني أتخلَّص من هذه الحساسيَّة المُفرطة. لكنّي بقيت أتقمَّص أوجاع كلِّ مريضٍ أعتني به. ساءت حالتي جدًّا بعد كورونا وبدأتُ رحلة علاجي لكنّي لم أسلم من حالات التقمُّص هذه. إذا صادف وجودي في غرفة العمليّات لغياب إحدى الممرِّضات، تداهمني كوابيس الدِّماء والمشارط والسكاكين ليالي طويلةً وأحلم أنَّ المريض لم يصحُ من التخدير... وإذا كان المريض طفلًا يتملَّكني شيطان الكفر ويهمس لي: أين إلهك الرحوم الرحيم لينقذ هذا الكائن البريء من مرضه القاتل؟

على هذا النمط استمررت حتّى أصابني الإجهاد وخشيت من ارتكابي أيّ خطإٍ قد يؤذي مريضًا ما، فقرَّرت الاستقالة. لم أكذب عليك يوم قلت لم أعُد احتمل الفوضى والفساد في قطاعٍ يفترض فيه أن يكون أنصع من البياض الذي يتغطّى به، فالأخطاء الطبّيَّة راحت تزداد وما عاد السكوت عنها مقبولًا ولا فضحها مجديًا طالما لا وجود لرقيبٍ ولا حسيب. يئست صحيح. واليأس قوَّض قدرتي على المواجهة والاستمرار لإحداث تغييرٍ ما، لكنَّ الحقيقة هي أنَّ هشاشتي أمام أوجاع المرضى غلبت كلّ الأسباب الأخرى.

ظننت أنَّ العناية التلطيفيَّة ستكون خيارًا ألطف فاتَّجهت إليها. وكما تقولين عنّي بأنّي بلسمٌ للقلب، كنت فعلًا كذلك مع كبار السنّ الذين يحتاجون إلى يدٍ دافئةٍ تسعفهم على العبور لملاقاة الرفيق الأعلى. وسرعان ما تعبت وتعب بيتي من أنفاس الموت التي أنقلها إليه كلَّ يوم. فقرَّرت التوقُّف ومارست اليوغا والبيلاتس. تحسَّنت قليلًا. حتّى جاءت الجائحة اللعينة فزادت من حساسيَّتي رغم إجراءات التباعد والعزلة القهريَّة. أذكر تلك الأيّام كيف كان الصهاينة يحسدون

غزَّة على حصارها، قيل وقتها إنَّها الأكثر أمانًا في العالم، فالحصار حماها من الوباء. ولم يتسلَّل إليها إلَّا من معبر رفح... شريان الحياة هو نفسه ممرّ الموت.

العزلة أفادتني كثيرًا. وانقطاعي عن العالم الافتراضيّ حماني من التماهي مع أمراض الناس النفسيَّة وعدت إلى قراءة القصص الرومنسيَّة وسماع الموسيقى كما أصبحت أخصِّص ساعةً في اليوم لممارسة الرقص، فأتشخلع وحدي على إيقاع الموسيقى نفسها لأنسى الدنيا وما عليها.

تحسَّنت قليلًا وقرَّرت حينها السفر. جئت إلى عمَّان وأغرمت فيها. فيها خلطةٌ عجيبةٌ تشعرني بالألفة. أنا بأمانٍ هنا. مستقرَّةٌ وقادرةٌ على بناء صداقاتٍ جديدةٍ مع أناسٍ لا يجمعني بهم أيّ ماض. لم تكتمل فرحتي. جاء الطوفان فعادت حالات التقمُّص تقضّ مضجعي. صحيحٌ لست على مواقع التواصل لكن بمجرَّد قراءة عنوانٍ في جريدةٍ عن عدد المجازر أو الجثث الملقاة في الشوارع أو بتر الأطراف بلا تخديرٍ أُصاب بأوجاعٍ في كلّ جسمي وتتسارع نبضات قلبي ويكاد يُغمى عليّ. توقَّفت عن قراءة الصحف وسماع الراديو. وطبعًا ما زلت لا أشاهد التلفزيون منذ بدء الألفيَّة الثانية. وإذا اجتمعت بصديقاتٍ أو أصدقاء أطلب منهم عدم الحديث عن غزَّة. لم أضطرّ إلى تبرير طلبي. الغرباء مريحون. نجتمع بهم على قاعدة هنا والآن. لا أحاديث تنفخ في جمر الأعماق. وحفلات المشاوي خفيفةٌ على القلب والمعدة معًا.

لكن عندما أعود إلى شقَّتي تُعاودني الأوجاع. فضولي لمعرفة ما يجري يُجبرني على متابعة بعض الأخبار من هاتفي قبل النوم أو في

الصباح. يكفي أن أقرأ «العثور على أشلاء أطفالٍ تحت الأنقاض» حتّى تنتابني أوجاعٌ لا أقوى على تحديد موضعها.

ما أعاني منه لا علاقة له بالإرادة، وليس سببه ضعفًا وراثيًا أو خللًا هورمونيًا. استنتجت ذلك بعد طول تأمُّل. ما بي له علاقة بالأرواح. أكاد أجزم أنَّ أرواحنا نباتيّةٌ كالأشجار تتواصل وتتألّم لمصاب بعضها البعض وتفرح لأفراح بعضها البعض. هذه علّتي التي أحاول تقليص أعراضها قدر الإمكان عبر إحاطة نفسي بناسٍ خفيفي الظلّ مريحين ولا يعانون لا من فقرٍ ولا من ماضٍ كئيبٍ ولا من أحلامٍ مستحيلة. واقعيُّون وعمليُّون إلى أقصى حدٍّ ولدَيْهم حلٌّ واحدٌ لكلّ شيء: اضحك تضحك لك الدنيا.

لهذا يا صديقتي بتُّ على قناعةٍ أنَّ من حقّنا القول: بدنا نعيش. يكفينا آلامًا. قضينا نصف عمرنا في حروبٍ عبثيّة. ماذا حصدنا سوى الاغتراب. أجل... أجرؤ على القول بدنا نعيش في عزّ الإبادة. يكفي دفع أثمانٍ غاليةٍ من أرواحٍ وأوطانٍ وبيوتٍ وأحلامٍ لأجل سرابٍ اسمه الحرّيّة. الحرّيّة أصغر ممّا نظنّ. نجدها في اختياراتنا البسيطة: أن نشرب قهوة الصباح بهدوءٍ على صوت فيروز، أن نقطف أقحوانة، أن نتأمّل طيرًا على غصن، أن نستمتع بعزلتنا وقرارنا بالتقوقع الجميل بعيدًا عن ذلك القفص العالميّ المحشور بالكائنات الافتراضيّة. نحن شعوبٌ مراهقةٌ لن تبلغ سنّ الرشد. نحتاج إلى وصايةٍ شديدةٍ ودروعٍ واقيةٍ من نزقنا الطفوليّ. خلص. علينا الإقرار بحقيقة ضعفنا أمام جبروت العالم.

ليست غزّة التي تُباد، بل الإنسانيّة كلّها. لكنَّ غزّة قرّرت ذات خريفٍ رفع قوسها لنعبر جميعًا من تحته كما يعبر المسافرون الأجهزة

الكاشفة للممنوعات. صحيحٌ أنَّ قوس غزَّة كشف المحرّمات الإنسانيَّة، لكن لم ولن يتمّ توقيف أحدٍ ولا معاقبة أحد!

ألا يحقّ لنا السؤال لما كلّ هذا الانتحار، وهل يستحقّ هذا الكشف «لروح العالم الجديد» كلُّ هذه الدِّماء والآلام والخراب؟! الطوفان انتحار. هذا رأيي بصراحة! لا التوقيت كان صحيحًا ولا الرهانات كانت صحيحةً ولا العالم كان مستعدًّا لهذه الخضَّة التي لن يسلم منها أحد!

الجميع يصرخ: بدّنا نعيش. فنحن في عالمٍ موبوءٍ أصلًا. ونهاية الأرض باتت معروفةً بالتواريخ الدَّقيقة. سنموت جميعًا لا محالة في احتراق شمسيّ أو تسونامي عابرٍ للقارّات أو من فيروسٍ مُفبركٍ أو لقاحٍ مفخَّخٍ بالأمراض. فلنعش ما تبقّى لنا من عمرٍ بحرِّيّاتٍ صغيرةٍ لا تؤذي أحدًا. كلّ الأوطان سيبتلعها طوفانٌ طبيعيٌّ فهل تستحقّ أيّ أرضٍ كلّ هذا القتال؟! الموت يأتي بالمجّان وكلُّنا شهداء في الغرب كما في الشرق. فلننعم بقليل حياةٍ أفضل من أن نُباد غصبًا عنّا!

تغيَّرتِ ستقولين. لا بأس. التغيُّر مناعتي الوحيدة ضدّ حساسيَّتي المُفرطة. فأنت تعلمين أكثر من سواكِ (وحذَّرتني مرارًا) كم مرَّةً انتحرت كلَّما كنت أتمسَّك بحبٍّ أو فكرة! للحبّ منابع عديدة. (الرجل أحدها وليس أوحدها) إذا أحببنا الشجر سنقوى على التنفُّس. إذا أحببنا أنفسنا سنحافظ عليها سليمةً من الجروح.

لقد تعلَّمت يا صديقتي بأصعب الطرق التي تخطر في البال أنَّ الأمل مجنونٌ متهوِّر، كالعاصفة يمرّ وكالغواية يسحرنا وكصيّاد الفراشات يحصد أرواحنا في شباكه!

ها أنا أحتفي باليوبيل الذهبيّ للعزوبيَّة. بلغت سنّ اليأس ليس بجسديَ فقط... أتحسَّس موقع قلبي. كأنّي في غفلةٍ منّي أجريت له عمليَّة قطع القناة الدافقة، كتلك التي يجريها بعض الرجال ليقطعوا الطريق على نسلهم.

كنت تقولين لي: السقوط قد يوحي بالطيران، ولا شيء سوى الارتطام بالأرض أو بجدارٍ سيزيل هذا الالتباس. ها قد زال الالتباس.

لهذا لا أستطيع أن أرى خيرًا فيما يحصل الآن في غزَّة. أمل التحرير خاب ألف مرَّة. كلَّما حلَّقنا عاليًا كان سقوطنا مدوّيًا أكثر. من تسويةٍ إلى أخرى، من خساراتٍ كبرى إلى أكبر، من نكبةٍ إلى نكباتٍ مضاعفة. الآن يجرفنا الطوفان إلى تلك الحافة التي لا تصلح لنقلع منها نحو أحلامنا، لكنَّها كافيةٌ لتنزلق أقدامنا منها فنسقط مرَّةً واحدةً وإلى الأبد في العدم.

هذا العالم لا يحتمل الحالمين يا صديقتي. والعناد الفلسطينيّ الذي تسمِّينه أرفع الفضائل، هو عنادٌ انتحاريٌّ بامتياز في مواجهة عناد العالم على قطع القناة الدافقة لأيِّ حلمٍ رومنسيٍّ ينسجه خيالنا الدونكيشوتيّ. كلُّ ما يحدث الآن يدفعني إلى البصم بالعشرة على مقولة تي إس إليوت: «هكذا ينتهي العالم... ليس بدويّ انفجارٍ وإنّما بأنين».

هل أتوقَّع ردًّا منك، أو أنّي كتبت بخطّ يدي خاتمة صداقةٍ لم يَعد عنادي كافيًا لاستمرارها؟

وداد

لندن، 30 يناير 2024

اشتقتك غادة،

إنَّها التاسعة مساءً هنا. نام الجميع باكرًا. في سريري أصطكّ من البرد أو الخوف. قلت لأكتب إليك لعلّي أنسى هاتفي وما شاهدته فيه. لولا الاهتمام بحفيدتي لفقدت عقلي. ولولاها أيضًا لما بدأت أفقده! فمنذ ولدت لين لم أقوَ على النظر إليها من دون أن أرى أطفال غزَّة فيها. لم أستطع أن أفرح بها وأشمّها وأحملها بين ذراعيّ من دون أن أتخيَّل ما لا أقوى حتّى على كتابته! أضعها في سريرها الصغير وأقف لأتأمَّل رموشها، خدّها الرَّقيق، غمّازات أصابعها... فأرى ما رأيت في المجازر! أهرع إلى غرفتي وأغلق الباب على نفسي. فأسمع صوت هند. كيف داهمني صوتها هكذا؟ كأنّي مسجّلٌ وثمَّة من يضغط زرّ التشغيل مرارًا وتكرارًا... أكاد أسمع صوت كرّ الشريط في رأسي.

الدبّابة جنبي.

اختبئي تحت كراسيّ السيَّارة!

تعالي خذّيني، قربت الدنيا تعتم.

الكلمات تبني المشهد. هند وحدها في السيَّارة بين جثامين ستَّةٍ من أفراد عائلتها استشهدوا بعد إطلاق الرصاص عليهم. ماذا سيحصل لها ونحن نتفرَّج أو نائمون أو شاردون كما أشرد الآن؟ هل سيصل الإسعاف إليها؟ ماذا لو قُتلت هند قبل ذلك؟ ماذا سيحلّ بأمّها؟ أيّ مشاعرٍ ستسطو عليها كلَّما استعادت صوت ابنتها «تعالي خذيني»!؟ قد نتخيَّل هذه الأسئلة مانشيتاتٍ لفيلم إثارةٍ وتشويق. هل هذا يحدث فعلًا؟ هكذا أمام أعيننا؟

كيف سأقوى على الفرح بحفيدتي الأولى بعد كلّ ما أشاهده؟ لمن أحكي عن تلك الصور التي تسطو عليّ حين أحملها وأغنّي لها قمرة يا قمرة لا تطلعي الشجرة! ماذا تسمَّى هذه الحالة؟ متلازمة غزَّة؟ الإسقاط الذهنيّ؟ هستيريا؟ لا... أنا بخير. ما زلنا نستقبل المهنِّئين بولادة لين وما زلت أصنع المغلي طنجرةً بعد طنجرةٍ وأزيّن الصحون بالمكسَّرات وأقدِّمها للناس باسمةً مبتهجة. هل أنا في حالة انفصام، مثل سعاد حسني في فيلم بئر الحرمان! نحن وجهان وقلبان وربّما ألف شخصيَّةٍ متناقضةٍ في جسدٍ واحد... لعلَّنا نعاني من هذه الحالة منذ فترةٍ طويلةٍ لكنَّ صدمة غزَّة جعلتنا نعي ذلك. غزَّة الآن مثل محمود المليجي في الفيلم إيَّاه! طبيبنا الذي يفكّك مكامن الخلل! نسينا غزَّة وفلسطين ومعاناتها لسنواتٍ طويلة. بقيت «القضيّة» هناك في ظلمات اللَّاوعي حيث تُصرم كلّ جروح الماضي في قفَّةٍ واحدة. لكنَّها لم تكن يومًا ساكنةً أو صامتة، بل نحن من كتمها لنهنأ مثل ناهد في بئر الحرمان!

ما زلت أجد الوقت للخروج إلى المظاهرات. وحدي طبعًا. لؤي غارقٌ في عمله حتّى أذنَيْه، وغزل تتعافى من الولادة ودائمة الانشغال بلين ولا يتسنَّى لها أخذ قيلولةٍ خلال النهار لتعوِّض بها نومها المتقطِّع في الليل. إنَّها أمٌّ ممتازةٌ حقًّا. فاجأتني بتدبيرها وهدوئها وقدرتها على الاهتمام بمولودتها الأولى. أتأمَّلها وأقول: اللّـه يرحمك يا أمِّي، ربَّيتيها منيح... بتُّ أشعر أنَّ لا حاجة إليّ هنا، فهي تتولَّى بنفسها كلّ شيء. لكنَّ لؤيًّا يصرّ على بقائي. وغزل خبَّأت جواز سفري... أشفق عليهما. وحدهما في هذه المدينة الباردة. الأقارب والأصدقاء تردَّدوا إلينا في الفترة الأولى، ولكن بعد ذلك عادوا إلى روتينهم... يلعن أبو الغربة. ويلعن من أجبرنا عليها.

قد تطول إقامتي هنا لشهرٍ آخر ومع ذلك يؤلمني أنَّني سأبتعد عن لين فترةً طويلةً قبل رؤيتها من جديد. هذه حالةٌ مستجدَّةٌ لم تمرّ عليَّ من قبل. اعتدت على البعد عن غزل وأهلي عندما كانوا في لبنان. لكنَّ شعور الجدَّة مختلف. كأنَّك في الفصل الأخير من حياتك وتريدين أن تملئيه بالذكريات كما تملأ الجدّات خزائن البيت بالمونة والمربّيات... أريد أن أملأ حياة لين بي... أريدها أن تكبر لنرسم ونلوِّن معًا ونسبح ونغنِّي وأعلِّمها اللغات وأقرأ لها القصص وأجدِّل ضفائر شعرها وأنتظرها لتعود من المدرسة فتأكل من طبخي... أريدها أن تتعوَّد على رائحتي وصوتي ووجودي. أريد أن أنزرع فيها كما انزرعت أمِّي في ذاكرة غزل. هل أبحث عن خلودي فيها، أو أرغب في التعويض عن حبٍّ ووقتٍ واهتمامٍ لم أملكهم من قبل لابنتي أو لعائلتي بسبب اضطراري للرحيل والعمل والشقاء.

أرى الفقد في عيون أطفال غزَّة لجدَّاتهم وأمَّهاتهم وآبائهم وأتحسَّر. أغبط كلّ حجَّة انزرعت في وجدان أحفادها وحفرت سماتها

على وجوههم وكلماتهم. هذا هو سرّ أطفال فلسطين. «زغار كبار» كأنَّ في داخلهم عشب القصب العملاق. هذا العشب المعمّر سيقانه طويلةٌ تحت الأرض وأوراقه دائمة الخضرة وترتفع من التراب لتصبح سياجًا عازلًا يحمي الحدائق. «سيدي» أو «ستي» في غزَّة مثل راعي القصب الذي غنَّت له فيروز: إن ضعنا سوا بهالليل خلي صوتك مسموعي.

هذا هو سرّ أطفال فلسطين. ولهذا يقتلهم العدوّ مع أمَّهاتهم وجدَّاتهم وجدودهم. من أين لنا هذا الامتياز صديقتي؟ نحن سنموت فرادى، كلٌّ منَّا في بلد. ذكرى رحيل نادر تحلّ بعد أسبوع. مرّت خمس سنوات لم نُقم له قدّاسًا في الضيعة. لم نزر الضيعة أصلًا منذ انفجار بيروت. ولعلّنا سنضطرُّ إلى نسيان بيتنا ومقبرتنا هناك. لا أظنّ أنَّ غزل ولؤيًّا سيكملان ترميم البيت. يقولان لبنان كلّه خربة. لا ألومهما. رصاصةٌ طائشةٌ من عرسٍ قد تقتلنا في الطريق. لؤي يحاول بكلِّ الوسائل سحب إخوته إلى هنا. والآن الأوضاع تتَّجه نحو الأسوأ مع هذا الجنون في كلام الناس. حروب الإلغاء مستمرَّة. معيبٌ ما يحدث. استحى الأجنبيّ ولم يستح بعض اللبنانيِّين من رجم غزَّة ومن يُناصرها.

كلُّ المظاهرات وكلُّ أنشطة المقاطعة بات يشارك فيها الأجانب في كلِّ العالم ونحن نتجادل حول أحقيَّة مساندتها أم لا! معقولٌ يا صديقتي؟ أطفال غزَّة يتفحَّمون كما تفحّم أطفال لبنان بالفوسفور الأبيض نفسه! كيف نقول لا علاقة لنا!؟ أفهم الخوف من الحرب، ومن ذكرياتها المؤلمة وأفهم أنَّ بلدنا مُفلسٌ على كلِّ الأصعدة لكنِّي لم أتوقَّع هذا الانحلال في المواقف من عدوانٍ هو الأكثر وحشيَّةً في التاريخ! كلُّنا نكره الحروب هذا طبيعيّ. لكن أن ندين من يحارب العدوّ

ونحمّله مسؤوليّة الحرب، فهذه قمّة السفالة. يا أختي ليمتثلوا بديغول حين قال: باريس مدمَّرةٌ باريس محترقةٌ لكنَّها محرَّرة!

أيُّ لبنان سأروي للين؟ لبنان فينيقيا أو جبال الصوان؟ لبنان سويسرا الشرق أو لبنان 2006؟ هل أغنّي لها: لبنان الحقيقيّ جايي ولبنان البساطة جايي تَيشيل الوجوه المصبوغة والوعود المدموغة!؟ حتّى في هذه الأغنية لا تعرفين من تقصد فيروز!

ليت بإمكاني تسريع الزمن بكبسة زرٍّ لتكبر لين قبل إصابتي بخرف الشيخوخة أو قبل أن أموت، فيتسنّى لي الوقت لأخرج لها من أرشيف هاتفي فيديوهاتٍ لمى أبو جاموس أو نسرين كنزي أو ماريا حنّون. وأن أجلسها في حضني ليلة عيد الميلاد وأروي لها حكاية الفرسان الذين صنعوا من جدائل جدّاتهم مظلّاتٍ وطاروا بها فوق الأسوار لينقذوا أختهم الحبيسة. إحدى صديقات غزل متخصّصةٌ في كتابة قصصٍ للأطفال قالت لي: أطفال غزّة نسفوا كلّ ما تعلّمته عن هذا الفنّ. وتفكّر الآن بإنتاج سلسلةٍ بعنوان أطفال الطوفان. قلت لها لن تقبل بها أيُّ دار نشر. قالت أطبعه على حسابي. أنشره على مدوّنتي.

أفكّر بلين وماذا ستقرأ بعد سنوات. يخطر لي أحيانًا كتابة وصيّةٍ لها. جملةٌ واحدةٌ فقط: لا تدخلي متجر ألعابٍ لتشتري باربي! حين تكبرين وتصادفين كلمةً أو صورةً عن غزّة، ستفهمين وصيّتي. إذا لم نورّث أحفادنا مرقد عنزة، فلنترك لهم على الأقلّ مرقد فكرةٍ أو موقف شرف.

أتعبتني الكتابة صديقتي أو ربّما غلبني النعاس.... رسالتك مفتوحة أمامي. استأت جدًّا لأنَّك مريضة. أهملت نفسك كثيرًا في

الأشهر الماضية. هذا مفهوم. لكن، أن تتوقَّفي عن المشي والسباحة يعني الاستسلام للخمول الذي تكرهينه، ويعني السماح للوجع بقضم عظامك.

قولي لآدم ألا يغيب عن انستغرام، كلماته كجرعة العسل في الصباح. سأكتب لك الشهر القادم كما تعاهدنا.

شكرًا على الاهتمام بمزروعاتي، ولا تقلقي من ذبولها، فهي لم تعتد غيابي الطويل عنها.

كوني بخير دائمًا،

منى

سيدني، 10 فبراير، 2024

سلامات غادة،

لا أعلم إذا كنت سأكمل هذه الرسالة وكم من الوقت سيستغرقني إنهاؤها. لكنّي بدأت. هي مهمَّةٌ مستحيلةٌ أن نغلق باب الغرفة على أنفسنا ونكتب. أبدو الآن كامرأةٍ من القرن التاسع عشر! أمامي شمعة (لا أعلم لماذا أشعلتها). بحثت طويلًا عن قلمٍ لم يجفّ حبره ولم أفطن لشراء أقلامٍ جديدةٍ عندما اشتريت دفترًا للرسائل. أحببت إرفاق الرسالة بصورةٍ لي لحظة الشروع بكتابة أوّل سطر.

تريدين منّي انطباعات الناس هنا عمَّا يحدث؟ حسنًا... أُنظري إلى تاريخ الرسالة. ماذا كنت تفعلين يوم العثور على هند رجب وجثامين باقي العائلة في السيَّارة؟

هنا، مرَّ الخبر خجولًا على كلِّ المواقع الإخباريَّة الرسميَّة. وفي الإعلام الأميركيّ قيل عن هند ابنة الأربع سنوات، إنَّها «امرأة» ولم يُذكر لا اسمها ولا عمرها. عاديّ... فهند من لون ترابنا نحن «السكَّان

الأصليُّون»، يجب إبادة سيرتهم. هند ليست فارس عودة. لم يكن بيدها حجرٌ ترميه على الدبَّابة «لتستحقّ» القتل. هكذا كتبنا على صفحاتنا وكثَّفنا الحملات التوعويَّة مع مجموعات الضغط وبعض المناصرين لقضيَّتنا، لنروي فقط حكاية طفلةٍ محاطةٍ بالجثث تشمّ رائحة الدماء والجلود المحترقة.

هذا هو قدرنا يا صديقتي. أن نصنع حياتنا من موت أطفالنا. أن نرى الضوء من عتمات السجون. أن نبني ذكرياتنا من ركام بيوتنا. وأن نعود إلى فلسطين من معابر الجنَّة.

بالتوازي مع هند الضحيَّة كثَّفنا منشوراتنا رغم الحجب، ليرى الجمهور البطلة أميرة. الدكتورة التي ركضت منحنية الظهر، لإنقاذ شابٍّ أصابه رصاص قنَّاصٍ إسرائيليّ، وبقي ينزف وهو ملقًى على الأرض. ترجمنا كلمات الدكتورة العسولي: أتفكروش. يللي بيفكّر ما بيعملش أيّ حاجة. كيف نترجم لهم النخوة والمروءة؟ سيرونها وهي تركض والشباب يلحقون بها إلى حيث يرقد المصاب، ليرفعوه على الحمّالة إلى مجمَّع ناصر الطبّيّ تحت زخَّات الرصاص الصهيونيّ. أستطيع القول بثقةٍ إنَّ ذهول العالم اليوم أمام بطولة الفلسطينيّ أكبر من صدمته بالضحيَّة الفلسطينيَّة التي تجلَّت في اغتيال هند، فمواصفات الضحيَّة في الغرب: مسكينٌ ضعيفٌ مغلوبٌ على أمره. ومواصفات البطولة: كلُّ ما ينقص الغالبيَّة العظمى من الناس: القيام بما يجب مهما كانت الأثمان عالية.

الغزَّاوين أدركوا أنَّ العالم سينساهم لو تلبّسوا مواصفات الضحيَّة. وهذا سرّ الدَّعم الجماهيريّ لهم في مدن العالم. أسطرة البطولات

ضروريَّةٌ في هذه المرحلة وإلَّا سنخرج من هذه المعركة كسابقاتها بتسوياتٍ أو لفتاتٍ إنسانيَّةٍ تريح ضمير العالم!

يحرجك السؤال عن أخي. وأفهم السَّبب. فلا جديد سوى فنون التعذيب. الاحتلال يمنع المحامين من أيِّ زيارةٍ ويتكتَّم على الأسرى الذين قتلوا! منذ السابع من أكتوبر ونحن نجهد في استقاء المعلومات من جهاتٍ عدَّة. نرصد الأخبار ونكاد نفقد عقولنا ممَّا نقرؤه من «تفنُّن» في التعذيب يفوق كلّ الشرور المتخيّلة في أبشع أفلام الرُّعب. لم تَعُد المسألة تقتصر على إلغاء «الفورة» أو حرمانهم من صلاة الجماعة أو من الاستحمام أو اكتظاظِ مهولٍ لغرف الاعتقال أو توفُّر سترةٍ شتويَّةٍ واحدةٍ فقط وغيارٍ داخليّ واحدٍ أو فساد الطعام وتسميمه، أو قطع الإضاءة عن الغرف خلال النهار وإنارتها بالكامل في الليل وموسيقى صاخبةٍ بعد منتصف الليل لمنع الأسرى من النوم. الآن يُجبرون الأسرى على الركوع عند العدّ، أيديهم فوق رؤوسهم وسلاح السجَّان مصوَّبٌ على الجبين! الآن يحكى عن اغتصاباتٍ بالجملة وعن إجبار الأسرى والأسيرات على التعرّي! إهاناتٌ وإذلالٌ ممنهجٌ لا يكشف فقط نزعة الانتقام لدى الاحتلال، بل أيضًا شرَّه المُطلق المبطون في تركيبته. شرٌّ مباركٌ ومباحٌ من كلِّ الأنظمة الداعمة له!

أفتح هاتفي وأعود إلى الرسائل التي كانت تصلني خلال الحديث عن هدنةٍ وتبادلٍ للأسرى. كم تأمَّلت وكم صلَّيت وكم دعوت ليكون اسم عاهد بينهم. مضى على أسره عشرون عامًا. وأنا كبرت أربعين عامًا. هل سأعيش لأراه؟ لا أعلم. لم يبق له أحدٌ سواي. هل يعلم أنَّ كلّ عائلتنا في غزَّة أبيدت؟! قلبي كقطعة الجبن السويسريَّة، كلُّه ثقوب.

ننشط في توقيع العرائض. فقط لنشعر أنَّنا لم نتخلّ عنهم. عائلاتٌ فلسطينيَّةٌ كثيرةٌ لا أسرى لدَيْها في سجون الاحتلال، تعاونا على إيصال أصواتنا إلى المنظَّمات الحقوقيَّة المحلِّيَّة علَّها تضغط على السلطات، لتضغط بدورها على الاحتلال الذي تربطها به علاقة غرامٍ طويلة! لست متفائلةً لكنَّنا لن نشفى من الأمل أليس كذلك؟ رهاننا يكبر كلَّ يومٍ مع هذا الدَّعم الشعبيّ العالميّ. يكفي سماع الهتافات هنا وكم من الناس مستعدُّون للمخاطرة بوظائفهم وأمنهم الشخصيّ مقابل الهُتاف بالحرِّيَّة لفلسطين! صحيحٌ أنَّ القوانين تحميهم إلى حدٍّ ما رغم القمع الذي تمارسه السلطة والشرطة، لكن عندما يتعلَّق الأمر بـ«إسرائيل» تكشف هذه السلطات عن وجهها الحقيقيّ القبيح!

أتظنّين أنَّ الناس هنا خرجوا إلى الشوارع من تلقاء أنفسهم؟! حتمًا لا. المجموعات والمؤسَّسات المناصرة لفلسطين تعمل بلا كللٍ هنا لتجيّش الناس وتنظِّم التظاهرات في أكثر من مدينةٍ وساحة! لا أعرف إذا كانت تصلكم كلّ الأخبار عن الحراك الشعبيّ هنا! السلطات في حالة هلعٍ من حجم الدعم لغزَّة! الرأي العامّ هنا يُحسب له حسابٌ لكن يبدو أنَّ كلّ العالم قرَّر ألّا يسمع وألّا يستجيب لإرادة الشعوب. وهذا دليلٌ على الخطر الكبير الذي بات يهدِّد وجود ذلك السرطان في بلادنا. من أجل ذلك نتحمَّل ونصبر. حال أسرانا تسوء وحال أهل غزَّة تدمي القلوب، لكن لأوَّل مرَّةٍ في تاريخه، يرتجف الكيان وتهتزّ ثقته باستدامة وجوده. محتلٌّ عاجزٌ عن إدامة احتلاله.

يا اللَّـه أين كنَّا قبل 7 أكتوبر! هكذا كتبت لي صديقةٌ فلسطينيَّةٌ تتابعني على اليوتيوب. تعيش في تورنتو. كتبت تسألني: أتذكرين مسيرة المليون لأجل الأطفال؟ أعجز حتّى عن استيعاب ما كان يشغلنا

من قضايا! كنّا مصدومين من التحوُّلات السريعة التي تشهدها كلّ المجتمعات وليس في الغرب فقط! في كندا قضيَّة المثليِّين تحوَّلت إلى أزمةٍ كبرى! المسيرة حدثت قبل شهرٍ واحدٍ من الطوفان. نزل الآلاف في كندا استنكارًا لفرض مناهج تعليميَّةٍ تروّج للشذوذ الجنسيّ. أُنظري الآن إلى شذوذ العالم كلّه نحو الإبادة. كلُّ شيءٍ مترابطٌ قالت.

جدالاتنا السابقة حول تقزيم قضايانا وحصرها في النسويَّة والمثليَّة وما إلى ذلك من عناوين كانت في محلِّها. كلُّ هذه «المعارك» جرفها الطوفان الآن! الرئيس الكنديّ الذي أعلن أن لا مكان في كندا لرُهاب المثليّين، وبكى تعاطفًا معهم على «اضطهادهم وحرمانهم من وظائفهم» بسبب خياراتهم الجنسيَّة، هو اليوم من أعنف المدافعين عن إرهاب الاحتلال ولا يُبكيه طفلٌ جائعٌ في غزَّة، والناس يبصقون عليه ويتَّهمونه بالإرهابيّ المخنَّث!

معاركنا هنا مع السلطات كما في كندا، غالبًا ما تنتهي بوصمة الإسلام. لا ذريعة لهم لتشويه أيّ حراكٍ قائمٍ على حقّنا كآباءٍ وأمّهاتٍ إلّا بإخراج الإسلاموفوبيا مثلما يخرج الساحر أرنبًا من قبّعة! وتصبح معركتنا المطالبة باعتذارٍ على مهاجمة ديننا وهكذا دواليك! الذريعة الآن «معاداة الساميّة»!

الإعلام هنا يصدع رؤوسنا بحكايات «مؤلمة» للجنود الصهاينة. يتحدَّثون عن «معاناتهم» من الحرب في غزَّة! يكشفون لجمهورهم المتعاطف معهم ما يقاسونه من صدمات! ماذا عن منشوراتهم على تيك توك؟ رقصهم وغناؤهم فوق الركام؟ تفجيرهم للمباني بمن فيها كرمى لحبيباتهم؟

في آخر تظاهرةٍ لنا رفعنا صور هند رجب! جاءت الشرطة وكسرت كلّ اللّافتات التي كنّا نحملها! عرِّفوا لنا الصدمة! طفلةٌ تحاصَر بالدبّابات وحدها في السيّارة مع جثث أقاربها. ثلاث ساعاتٍ قضتها هذه الطفلة بانتظار أمّها.

لا. صدمة الجنديّ القاتل ممّا شهده في غزّة خلال معركة «الجرف الصامد» أصعب وأشدّ وقعًا. بقي خمس سنواتٍ عاجزًا عن التفوُّه بكلمة. مش قليل! كيف مرّت الدقائق والثواني على هند في الظلام محاطةً برائحة الدم وهدير الدبّابات؟ لا أحد يبالي. «أنا أغزو إذًا أنا موجود» هذه هي عقيدة الغرب. ليس فقط في العسكر والأمن، بل في الصحافة والثقافة وكلّ ميادين الحياة.

بعض الناس بدأ يكتشف الآن شرور الصهاينة ووحشيّتهم. في حلقاتنا النقاشيّة نطلعهم على ما سبق السابع من أكتوبر. نتناول قضايا قد تمسّ إنسانيّتهم. لا نريدهم حلفاء في معركتنا فهذا يحتاج إلى سنواتٍ من الجهود لتشكيل وعيٍ جديد. نسعى فقط إلى تسليط الضوء على قصصٍ لا يتحدَّث عنها أحد. نريد فقط أن يصلوا إلى نقطةٍ ينجلي فيها الالتباس حول مفهوم الدفاع عن النفس. معقولٌ أنَّ احتلالًا ينادي بحقِّه في الدفاع عن نفسه؟ نبدأ معهم من تفكيك سرديَّة الإرهاب. نترك لهم مهمَّة توصيف الإرهابيّ بعد الكشف عن الوثائق والدلائل والصور. كيف لاحق الاحتلال طفلًا في الرابعة، لمجرَّد أنَّه رفع إشارة النصر بإصبعَيْه. اقتحموا منزل ذويه وغمسوا يده الصغيرة في الزيت المغليّ. «تربّون أطفالكم على الحقد وعلى الموت» يقولون. التناقض فاضحٌ في حججهم. هم يقدِّسون «التنوُّع» ويحترمون «الاختلاف». لكنَّهم لا يسمعون أنفسهم وهم يناقضون هذا المنطق في الجملة الواحدة. «تربّون

أطفالكم على الحقد والعنف». هذا المنطق لا يقبل أيّ تربيةٍ مختلفةٍ عن معاييرهم! وهنا يتجلّى التناقض. فالاختلاف أو التنوُّع الذي ينادون به ويحترمونه هو فقط ما يشبههم وما يتماهى مع ثقافتهم. الاختلاف إذن هو التشابه في الوقت نفسه! فعلى أيِّ قاعدةٍ يمكن بناء حوارٍ مع هؤلاء!؟ ليس أمامنا سوى الصورة التي تُبثّ على الهواء مباشرةً من غزَّة وتحجبها وسائل الإعلام المحلِّيَّة هنا.

عند وفاة الصحفيّ الأستراليّ جون بيلجر خصَّصنا له حلقةً نقاشيَّةً وعرضنا مقتطفاتٍ من أفلامه الوثائقيَّة. قلَّةٌ ممَّن حضروا كانت تعرف ماذا فعل هذا الرجل مع أنَّه أستراليّ الأصل مثل جوليان أسانج! شيءٌ غريبٌ فعلًا أمر هؤلاء الناس. بيلجر كشف لهم منذ عقودٍ جرائم حكّامهم بحقّ الشعوب الأصليَّة لأستراليا! كيف نقتل الرجل الأبيض في داخلهم؟! لا أعلم.

وأكاد أيأس من محاولاتي. إذا كانوا لا يصدِّقون رجلًا من جلدهم كافح لأكثر من خمسين عامًا، من فيتنام إلى كمبوديا إلى جنوب أفريقيا إلى العراق إلى فلسطين مناصرًا الفقراء والمضطهدين فاضحًا جرائم الحكومات الغربيَّة، والإمبراطوريَّة الأميركيَّة، فكيف سيصدِّقون سرديَّتنا نحن أصحاب البشرة السمراء وأهل الدين الأكثر اضطهادًا في العالم!؟

نحن يا صديقتي نهدِّد «الحضارة الغربيَّة». لكنَّ غزَّة الصغيرة أصبحت تقضّ مضجعهم. يرون أشلاء الأطفال ويبكون. لكنَّهم يرون البطولات ويذهلون. والعدوّ يخدمنا من حيث لا يدري. كيف يتوقَّع أن يتعاطف معه العالم وهو يستعرض بطولاته في تفجير مبنى هديَّةً لحبيبته، أو في سرقة ألعاب الأطفال في غزَّة، أو في ارتداء أندرويز نسائيَّة، ونشر

كلّ ذلك على تيك توك. أهذا جيشٌ أخلاقيّ؟ النفور من هذه الأفعال سيؤتى ثماره لا محالة.

أمَّا النقطة المضيئة التي أراها في هذه الأيَّام، فهي أن قضيَّتنا ما عادت «قضيَّة رحمةٍ إنسانيَّة» بل قضيَّة حقٍّ في الوجود. وهذا تحوُّلٌ مهمٌّ في مسيرتنا النضاليَّة. بدأ كثرٌ يدركون التَّهديد الحقيقيّ للحضارة الغربيَّة. إنَّه في مداميك هذه الحضارة نفسها القائمة على إبادة كلّ من يتصدَّى لها. هنا معركتنا الآن، افتتحتها غزَّة ويجب أن نكملها نحن.

يومًا ما سيكون اسم أخي في قائمة المحرَّرين من السجون. حيًّا أو شهيدًا سيكون في القائمة. لا شكَّ عندي في ذلك. لكن كم من أشلاءٍ سنرى قبل أن يحين ذلك الوقت؟! وهل سنبقى أحياءً لنشهد تلك اللحظة؟ لست واثقةً من ذلك. فقد كُتب علينا دفع أغلى الأثمان لتحصد ثمارها الأجيال القادمة. خطؤنا الوحيد أنَّنا لم نعلِّق المشانق قبل اليوم ولم نقتل من شارك في قتلنا مخافة صراعٍ أهليٍّ يحرّف البوصلة. كان علينا إسقاط معاقل الخيانة في قلب الوطن كي لا تسقط أجساد شبابنا وهي في طريقها إلى زرع قنبلةٍ أو تفخيخ جرَّافةٍ أو قنص صهيونيّ.

الشتاء ثقيلٌ هنا، والثلوج المكدَّسة في الطرقات وفوق الأنهر تشعل حرائق في روحي. أخي يتقاسم مع عشرة أسرى آخرين سترةً واحدةً في شتاء النقب القاسي. كيف أدفأ؟ قرار إبعادنا إلى هذه البقعة الجليديَّة من العالم لم يكن محض صدفة. أرادوا تطبيعنا مع البرودة. فشروا!

آسفةٌ على طول رسالتي. قد لا أتمكَّن من الكتابة إليك مرَّةً أخرى. تابعيني على صفحتي واكتبي لي متى تسنَّى لك الوقت.

رائدة

برج حمود، صباح 15 شباط 2024

مكتبة
t.me/soramnqraa

غدغووود،

بونجورك حبيبتي،

هل تعاقبيني على تأخُّر رسالتي فلا تردِّين على الواتساب؟ حسنًا، نجح العقاب. والآن جاء دوري بعقابك في رسالةٍ سميكةٍ وبخطّ يدي المفركش! قد يعيدك الورق إلى أيَّام «الزمن الجميل» والدفاتر التي استخدمناها آنذاك في عملنا الصحفيّ.

لا أخفيك... جلست ساعاتٍ أتصفَّح الدفاتر قبل تمزيق الصفحات البيضاء لأكتب لك. قرأت تقريبًا كلّ الأسئلة التي خطَّتها يدي استعدادًا للمقابلات مع السياسيِّين. فانتبهت لأوَّل مرَّةٍ أنَّني لم أسجِّل أسماءهم، بل فقط تاريخ لقاءاتي معهم والزمان والمكان. رحت أقرأ الأسئلة لعلِّي أجد فيها ما يوحي لي بأسمائهم. نجحت قليلًا وأخفقت كثيرًا... أسعفتني الأمكنة أحيانًا في معرفة هويَّاتهم. فالمعتقلات الطائفيَّة التي نعيش فيها تسهِّل علينا المهمَّة.

بعض المصطلحات التي تضمَّنتها أسئلتي، ساعدتني أيضًا في استرجاع بعض الأسماء مثل «تلازم المسارين» أو «السين سين» أو «17 أيار». ما عاد ممكنًا العودة إلى أرشيفي بعدما تخلَّصت منه أمِّي. «بطلَتِ صحفية» قالت يومها وراحت تنفض الخزائن تفرغها من كلِّ الصحف والمجلَّات التي تجلب العثَّ والصراصير. ربّما معها حقّ. الصحافة مهنةٌ كغيرها في بلد مثل لبنان. أو هكذا أصبحت. يشحّ موردها فيسهل التخلِّي عنها. لا رسالة ولا بطّيخ.

فرحت أمِّي بالصحف لكثرتها ولفائدتها في تشغيل القازان عند انقطاع الكهرباء. فأحرقت أحزمة البؤس والمخيَّمات الفلسطينيَّة التي صرفت سنواتٍ في تغطية أحوالها. وكي تخفِّف من وطأة ما فعلت، قالت لي إنَّها تبرَّعت بالمجلَّات التي نشرت فيها بعض مقابلاتي مع السياسيِّين، إلى إحدى مكتبات بيع الكتب المستعملة. لم تقل لي أين تقع تلك المكتبة ولا اسمها. ولم أكلِّف نفسي عناء البحث عن المكتبة ونسيت الموضوع تمامًا إلى أن شاهدت بيّاع المناقيش خلف بيتنا يلفّ منقوشةً بصفحتَيْن من مقابلتي مع الرئيس سليم الحص. رأيت رأس الحص حول المنقوشة حين استلمها عامل البلديَّة الواقف أمامي. وحين فتلها (أي المنقوشة) ظهرت صورتي على الجهة الأخرى. هذه مقابلتي بلا أدنى شكّ! بقيت أراقبه وهو ينزوي ليستمتع بفطوره. راح يسحب المنقوشة تدريجيًّا إلى أعلى. قلت سينتبه إلى جملةٍ أو عنوانٍ كما كنَّا نفعل ونحن نقشّر البطاطا على ورق الجرائد. أو على الأقلّ سيتأمَّل الصورة. لكنَّه سارع إلى تمزيق الورق المبقّع بالزيت ثمّ عرّى المنقوشة كاملةً وجعلك الأوراق ورماني أنا و«ضمير لبنان» في القمامة. يللا المهمّ أنَّه شبع. أمَّا منقوشتي يا صديقتي فكانت ملفوفةً بصفحةٍ من

مجلّة «لها». لعلّ بائع المناقيش يخصّص لكلّ زبونٍ نوعًا من المجلّات. رآني امرأةً فقال ستستهويها أخبار المشاهير... لا. لم أفعل كما تتوقّعين. لم أتلصّص على الكاونتر لأرى إن كانت مقابلاتٌ أخرى مجهّزةً للفّ المناقيش. لا شكَّ عندي أنّها هناك أو عند آرا الإسكافيّ. كما تعلمين الورق مقطوعٌ بالبلد. حتّى الطوابع نفدت. ذكيّةٌ أمّي. وحسّها البيئيّ عال، وخلّي الفقير يسترزق. أنا ممتنّةٌ لها على كلّ حال. على الأقلّ أبقت دفاتري القديمة في الجارور. فالصفحات البيضاء المتبقّية فيها تفيدها في تسجيل قائمة احتياجاتنا من السوبرماركت وتفيدني الآن بالكتابة إليك.

المهمّ في كلّ هذه المقدّمة الطويلة العريضة، هو أنّي اكتشفت من خلال جلستي الحميمة مع تلك الدفاتر كم كنّا ندور في حلقةٍ مفرغةٍ يا صديقتي، وكم اجتررنا الأسئلة نفسها على مدار سنوات، وكم ساهمنا في تعميق أزماتنا كمن يقتنع أنّه مكتئبٌ بمجرّد قراءة أعراض الاكتئاب على غوغل. والأهمّ، كم أضعنا وقتنا ووقت قرّائنا في ارتجاء حلولٍ ممّن هم أصل المشاكل. الحمداللّه لم أسمع منك وأجمع أرشيفي في كتاب. والحمداللّه «بطلت صحفيّة».

من سيوظّفني أصلًا؟ لست بعمر الصيصان لأوضع في مزارع التدجين والتسمين، ولم أحترف العزف على أيّ وترٍ ولا حتّى الطبلة. عملي في الحضانة أجدى. على الأقلّ أستطيع تغيير الحفاضات والتخلّص من الأوساخ. مساهمةٌ بسيطةٌ في تنظيف البلد من الخرا. أمرٌ لم أنجح فيه عندما كنت صحفيّة، بل ربّما ساهمت في تسميم العقول بخرا الكلام عن التعايش المشترك والسيادة ودولة القانون والمؤسّسات. التعامل مع الطزطوز الصغيرة المتّسخة أفضل بكثير. تستطيعين على

الأقلّ تنظيفها وتطهيرها وسترها بالحفاض. ولن يخيب الأمل بأن تحسن التحكّم بتغوّطها والتخلُّص منه بنفسها من دون مساعدة. ماذا نفعل بالمؤخّرات الكبيرة التي تتغوَّط وتضرط علينا صبحًا ومساء؟ لا حفاضاتٍ ولا مطهَّراتٍ تخلِّصنا من خراها. عندما تأتين سأجول بك على جبال النفايات عندنا لتشمّي هوا لبنان الحقيقيّ. ما زالت تعرض مسرحيَّة «شو صار بكفر منخار» منذ التسعينيَّات لكنّ أنوفنا لم تطر كما في المسرحيَّة ولم تتمرَّد علينا ولم تحفِّزنا على تنظيف الوطن!

المهمّ. اليوم أخذت إجازةً مرضيَّةً كرمى لجنابك. بما أنّي «بطلت صحفيّة»، لم أعُد قادرةً على بناء جملةٍ مفيدةٍ وبوقتٍ سريع. طمأنت زوجة أخي بأنّي سأعود غدًا إلى الحضانة كالمعتاد ولن يهدِّد غيابي ليومٍ واحدٍ مستقبل الفاميلي بزنس الرائد في المنطقة.

بصراحةٍ كان مغريًا طلبك رسالةً منّي. قلت هي فرصةٌ لفشّ خلقي مع صديقةٍ حميمةٍ اشتقت إليها وإلى أحاديثنا الطويلة في مقاهي الحمرا. لكنّي خفت من المحاولة وصفنت كما أصفن بفستانٍ خبَّأته ليوم أستعيد فيه رشاقتي ولا أجرؤ على ارتدائه ومواجهة فشلي الذريع في خسارة كم كيلو. تذرَّعت بعدَّة أسبابٍ كي لا أكتب: ليبان بوست بعيد عن بيتي. لا وقت عندي للكتابة. ستهدأ هبَّة حنيني وأنسى. لكن عندما اتَّصلت بي ريّا لتبلغني أنَّها مسافرةٌ لعندك، تخيَّلت كيف ستلتقيان وتتحدَّثان... غرت. فقرَّرت الكتابة لتكون لي حصَّةٌ منك، خاصّةً بعد اعتكافك عن الواتساب.

هل أعجبتك هديَّتي؟ خبَّأتها لك منذ أشهر. أعرف أنّك تحبّين بضاعة هذا المحلّ. أقفل أبوابه مؤخَّرًا. هذا تذكارٌ منه. إضافةً طبعًا إلى

مرطبان ربّ الفلفل الحارّ من يدي أمّي ومن تراث برج حمود الأبيّ الصامد.

صديقتي الغالية،

لم يتغيَّر شيءٌ منذ تواصلنا الأخير. لكن الحمداللّه الشغل في الحضانة جيّد. تعرفين حال الأمّهات في لبنان المثقلات بالأعباء بعد رحيل الخادمات الأجنبيّات خوفًا من اندلاع الحرب. لم نرفع أسعارنا وما زلنا نقبض باللبنانيّ. والأهمّ أنَّ الأسر التي تأتمننا على أطفالها تعرفنا جيّدًا فنحن «ولاد المنطقة» من زمان وأولاد أخي في الحضانة، يعني لا مجال للإهمال.

لم يتغيَّر شيءٌ سوى أنّي أطيل من مكوثي في المستشفى مع رافي. أحيانًا أغفو إلى جانبه بعدما أبلع حبَّة سيبرالكس، وأتمنَّى أن أصاب بغيبوبة مثله. أصبحت على يقينٍ أنَّ العالم الذي يغرق فيه أجمل بكثيرٍ ممَّا نحن فيه. ربما يرى نفسه كاملًا وساقه غير مبتورة. ربّما يراني معه في البيت أحضّر التبولة. ربّما يرى أنَّ لبنان الأخضر رجع سويسرا الشرق وفيروز تغنّي في فلسطين.

قبل يومَيْن، تمدَّدت إلى جانبه في السرير ورحت أحكي له تفاصيل ما يجري في غزَّة ولبنان. أردت استرداده. أو غرت منه ناجيًا من جحيمنا وأنا فيه من دونه. أو خفت لأنَّني فيه من دونه. لا أعرف. تسارعت دقَّات قلبه فجأة. لم أضغط على زرّ التنبيه لاستدعاء الممرّضة. بقيت أحدّق في جهاز مراقبة القلب لوقتٍ لا أدري مدَّته، حتّى دخلت عليَّ ممرّضتان. فانسحبت من سريره وأوليت ظهري لهما. أردت إخفاء فرحتي بإشارة الحياة هذه. لم أخف من توقُّف قلبه. تفاءلت لأنَّه سمعني وتفاعل مع

كلامي.. الطبيب لم يتفاءل مثلي. قال إنَّها حالةٌ عرضيَّةٌ لا تشي بمرحلةٍ أوليَّةٍ من الصحوة. يعتمدون على تخطيط الدماغ والفحوصات المعقَّدة. ماذا يعرفون عن الروح وكيف تستجيب لروحٍ أخرى... سنتان ورافي غائبٌ لكنَّه كان يحرّك إصبعه إذا لمسته، ويبتسم إذا شغَّلتُ أغنياتنا المفضَّلة. اختفت هذه الإشارات تدريجيًّا منذ أشهر. كأنَّه انسحب كليًّا إلى عالمه. ولم يَعُدْ والداه يزورانه بعدما أصيبت أمَّه بالخرف وانشغل والده بمتابعة ملفّ التحقيق في الانفجار، وانصرف إخوته إلى حياتهم... فالحيّ أبقى من الميِّت. والغائب عن الوعي ميِّتٌ بالضرورة.

تجرَّأت مرَّةً أخرى وهمست في أذنه عن الطوفان والجبهات المشتعلة. لم يحصل ما تمنَّيت. قبل أسبوعٍ أصيب بجرثومةٍ غريبة. أجبرني الأطبَّاء على ارتداء الكمامة وقفّازَيْن ورداءٍ ورقيّ، شرط ألّا أمكث في غرفته أكثر من عشر دقائق. صرت أكتفي بهذا القدر. وأقف صامتة. بالأمس أبلغني الطبيب أنَّه تعافى من الجرثومة. لكنَّ صحَّته بالإجمال تتداعى. أخاف التفكير بالأسوأ. ماذا يفعل أهل غزَّة حين تتبخَّر أجساد أحبَّائهم؟ أو حين لا يقوون على انتشالها من الركام؟ رافي أمامي بكامل جسمه. بساقٍ واحدةٍ صحيح. لكنَّه أمامي وأستطيع شمَّه وتقبيله ومداعبة جبينه وشبك أصابعي بأصابعه، وأقاوم تخيُّل الأسوأ.

أواظب على السيبرالكس كي لا أنهار ولا أتشاءم. قد ينقطع هذا الدواء مع تأزُّم الأوضاع هنا. لكنَّ البدائل دائمًا موجودة. اللبنانيّ يأتي بها من فم السبع.

لا أعرف إذا كان الدواء يساعدني على التفكير الإيجابيّ أم هي غزَّة التي تُباد وتولد كلَّ لحظة، تحترق وتنبعث من جديد. يئست مرَّاتٍ

كثيرةً من حال رافي. لن يصحو. ثمّ داهمتني ثقةٌ عجيبةٌ وأملٌ قويٌّ بإمكانيَّة نجاته. عندما رحت أهمس له عن الطوفان بتفاصيله كلّها، أردت الاعتراف له بأنَّه كان على حقٍّ في حكمته الغرامشيَّة التي تتجلّى الآن. فلسطين هي القفل والمفتاح كان يقول، وبها سننجو...

قبل انفجار المرفأ اختلفنا كثيرًا. ورغم أنّي عبَّرت عن «تفاؤل الإرادة» لمجرَّد قبولي بمسح خرا الأطفال بدل الهجرة، فإنّ تشاؤمي كان دائمًا ينبّئني بكارثةٍ لن تبقي لنا مجالًا حتّى للندم على بقائنا في هذا البلد. أحيانًا أدخل عليه غاضبةً وأروح ألومه على عناده كأنَّ أسلافه كلَّهم مدفونون في هذه الأرض. وأحيانًا أضع يده على ثديي المبتور وأقول له: تعادلنا.

كثيرًا ما ساورتني الشكوك في غيبوبته هذه. ماذا لو كان يرى ويسمع ويعرف كلّ ما حدث ويتظاهر بالنوم؟ لعلَّه صحا ذات مرَّةٍ وفهم ما جرى، وقرَّر أن يغيب كي يعيش خيبة توقُّعاته وحده. مهاراته المسرحيَّة تسعفه على ذلك. يستطيع قطع أنفاسه ساعة يريد، يستطيع أن يغفو من دون أن يحرِّك جفنَيْه. يستطيع إيهامي بكثيرٍ من الأمور. ثمّ قد يفتح عينَيْه فجأةً ويقول: غلبتك! هكذا توقَّعته أن يفعل يوم حدَّثته عن الطوفان.

الدواء يشوِّش أفكاري. أهلوس. أعرف. وحين أخرج من المستشفى عائدةً إلى البيت أتأكَّد من هلوساتي. المقاهي والمطاعم مزدحمة. حفلات الرقص والغناء مستمرَّةٌ على مدار المواسم. من سيقول لشعب لبنان العظيم إنَّ درويش لم يقصد أرض لبنان وما عليها حين حدَّد ما يستحقّ الحياة! «أمّ البدايات وأمّ النهايات» ليست

الأشرفية ولا الداون تاون! إنَّها هناك، تُباد الآن على عينك يا عالم. من سيقول للشعب العنيد إنَّ القصَّة لم تَعُد: بيي أقوى من بيك، بل صارت: بيي وبيك في أقوى منهم بكثير؟

غط على قلبك أو بعد؟ رسالةٌ سوداويَّةٌ بامتياز. لسوء حظّك هكذا أكون في الصباح قبل جرعة السيبرالكس. جرعةٌ تجبرني على التفكير الإيجابيّ وتحفّز عندي «تفاؤل الإرادة»!

أمَّا ما ينتابك الآن أنت وزوجك فيسمَّى «حوصان». حايصين مثلنا كلُّنا لأنَّنا عاجزون عن المشاركة الفعليَّة والمجدية بهذا الطوفان العظيم. وعي الضرورة متعبٌ يا صديقتي. لكنَّ الضرورة الآن أن تصمد غزَّة وتفشل أهداف العدوّ وأوّلها: إحباطنا. ولدَيْنا الكثير كي لا نُحبط. ما زالت تل أبيب في مرمى صواريخ الشباب. أنا أشاهد القنوات العبريَّة كلَّما تسنَّى لي الوقت كي أتلذَّذ بعذابات الصهاينة في خسارتهم للرواية! لأوَّل مرَّةٍ تنهار الرواية الصهيونيَّة على رؤوس أصحابها في الغرب كما في الشرق. ما زلت أحتفظ بالتقرير الذي بثَّته القناة 12 عن العبور الكبير في 7 أكتوبر. كلَّما شعرت بهبوطٍ في معنويّاتي أعود إليه. الطوفان أقوى من السيبرالكس. ومجازرهم كلُّها لن ترمّم هيبتهم المصطنعة ولو بعد مئة سنة.

وتستكمل المهزلة بفضيحة أميركا أمام العالم ودول الغرب التابعة لها. ثمّ قتلى 7 أكتوبر في «إسرائيل»! تبيّن باعترافهم هم – ولو متأخّرًا – أنَّهم «ضحايا» جيش الاحتلال الذي قتلهم بالطائرات وقذائف المدفعيَّة. بروتوكول هانيبال يطبّق عندنا أيضًا بطريقةٍ أو بأخرى. من السبعينيَّات إلى اليوم ونحن نُقتل بنيرانٍ صديقة، ونقاوم بنيرانٍ صديقةٍ

أيضًا. بس صداقة عن صداقة بتفرق! وتبقى قوَّة لبنان بضعفه، ونحن نجسِّد هذا الضعف بكلِّ قوَّة! قُصّي الجنوب من خريطة لبنان، (وبرجٍ حمود كي لا تزعل أمّي) نرتاح ونريح العالم. هذا ما يريده الآن كلّ هؤلاء الذين قصّوا غزَّة وفلسطين من خريطة حياتهم.

لكنَّ غزَّة شاطرة. فرضت روايتها «خاوة». خبر الدعوى القضائيَّة التي رفعتها جنوب أفريقيا أمام محكمة العدل الدوليَّة رفعتني إلى سابع سما. لأوَّل مرَّةٍ في تاريخهم سيُحاكم الصهاينة على جرائمهم! بحبشت وقرأت لأعرف ما أهمِّيَّة الدَّعوى وكيف تتمّ الأمور.

خبراء قانونيُّون يقولون إنَّ قرارات المحكمة مُلزمةٌ وغير قابلةٍ للاستئناف لكنَّ تنفيذها قد يتطلَّب قرارًا في مجلس الأمن. حتّى لو رفضت إسرائيل الالتزام، من شأن القرار الإضرار بسمعتها ويشكّل سابقةً قانونيَّة، أمَّا الحكم النهائيّ في تهمة الإبادة الجماعيَّة فيتطلَّب مداولاتٍ مطوَّلةً وقد يستغرق الأمر سنوات. معليش. قاعدين شو ورانا؟!

الناس خاب أملهم. توقَّعوا أن تدعو المحكمة إلى وقفٍ فوريٍّ لإطلاق النار. هذا غير مُمكن. الحرب ليست بين دولتَيْن. وحتّى لو دعت إليه تجاوزًا، فلن يمرّ القرار في مجلس الأمن مع الفيتو الأميركيّ المؤكَّد. قرار المحكمة انتصارٌ قانونيٌّ تحتاجه غزَّة لاستكمال مهمَّتها في عزل إسرائيل وإسقاط مزاعمها بكونها الأكثر أخلاقيَّةً في العالم.

ركّزي على هذه الأخبار ولا تعتلي همّ غزَّة. قاسٍ كلامي أعرف. لكنَّنا الآن في معركة الرواية أو لطالما كانت تلك معركتنا الأساسيَّة ولم يتسنَّ لنا فرضها بالقوَّة المطلوبة أو تقاعسنا عن فرضها بشكلٍ من الأشكال. غزَّة شاطرة. توثّق إبادتها لحظةً بلحظة. أيُّ صحفيٍّ آخر،

غير الفلسطينيّ والغزّاويّ تحديدًا، يستطيع أن ينتقل تحت الصواريخ والزنّانات لينقل المجازر على الهواء مباشرة، وهو يعلم أنَّ أطفاله قد يقتلون عقابًا له؟ الدحدوح نموذجًا. والآن قتلوا ابنه حمزة. وأمّه ماتت أيضًا من كثرة الفواجع ربّما... يعني جريمةً موصوفة. بكى وائل «دموع الكرم والشهامة وليس دموع الجزع والخوف والاستكانة». المجزرة بحقّ هند رجب فضيحةٌ أخرى لن تمرّ ولن تنساها أجيالٌ كثيرة.

أُنظري إلى مجمَّع الشفاء كيف أعادته سواعد الأطبّاء إلى العمل بعد تدميرٍ ممنهجٍ وتمَّ تشغيل عددٍ من غرف العمليّات فيه. طوّلت الحرب؟ أكيد. وستطول أكثر. خذي سيبرالكس لتحافظي على أعصابك. واللّه إنَّه رائع. إذا انقطع من الأسواق سأضطرُّ للطلب منك إرسال كم علبة. لا تخافي من الإدمان عليه. هو فقط يخفِّف التوتُّر ويحسّن المشاعر الإيجابيَّة. وسترين أنَّك من دون أيِّ جهدٍ ستفرحين كالأطفال بكلِّ خبرٍ مهما كان صغيرًا.

تفاؤلي مفرطٌ ستقولين. ربّما. تفاؤلٌ نابعٌ من يأس. أكيد. تفاؤلي بجدوى محاكمة الصهاينة أكبر بكثيرٍ من جدوى ملاحقة المسؤولين عن تفجير المرفأ! أو لعلَّ فضح جرائم الصهاينة في غزَّة ستفضح ضلوعهم بانفجار بيروت. لا أعرف. لكنَّنا نستقوي بغزَّة. على من الرهان إذًا؟ حصار غزَّة أفادها كثيرًا لتكتفي ذاتيًا وتتغذّى على لحمها ودمها وتنبذ اللحم الغريب الذي يسمِّم دمها. نحن نتغذّى على المستورَد حبيبتي. الإنتاج المحلّيّ يمغّص بطوننا. نشكّ بجودته. «أكيد مزغول» نقول. ألم تقل سيِّدات الجميزة لماكرون: «انتدبونا من جديد»؟! أسقَوه القهوة ونثروا عليه الأرز والورود. أثنى عليهم إتقانهم للغة موليير! أمّي المهضومة تقول: لا أحد لبنانيّ إلّا الأرمن. ويوم زيارة ماكرون راحت

تصرخ في وجه التلفزيون: طالما جورج عبداللّـه محبوس لبنان كلّه محبوس.

اليوم، تشاهد أمّي توافد الأميركان والفرنسيّين إلى لبنان، وترى تهافت السياسيّين لنيل رضاهم، فتبدأ بالهمهمة والغمغمة، ثمّ تقول إنَّ لبنان أصبح مثل الفتاة التي يريد الجميع النوم معها ليس لأنَّها جميلة، بل لأنَّ «دكّتها رخوة». بالأمس سمعتها تطبق باب البيت وتدمدم كلامًا غير واضح. ثمّ دخلت غرفتي وسألتني إن كنت أتبرَّع لغزَّة. ارتبكت. في الحقيقة لم أفكِّر بالأمر. آخر ما تحتاجه غزَّة الآن هو المال. لم تنتظر أمِّي ردِّي. رفعت سبّابتها في وجهي: مش رح سامحك أبدًا. الفلسطينيّون مثل الأرمن نفوسهم عزيزة. لا يحتاجون إلى مال. جماعة sex picon بدن يشحدوا على حسابهم! (تقصد سايكس بيكو).

أحيانًا أشكّ أنَّ هذه المرأة لبنانيَّة. ثمّ أفكِّر فيك، أنت فلسطينيَّةٌ أكثر من آدم. تفهمين قصدي. كأنَّ الحبّ يغيّر الجينات. تشرَّبت أمِّي قضيَّة الأرمن حتّى أصبحت أمّ المظلومين من أرمينيا إلى فلسطين إلى الكونغو. وعي الظلم لا يحتاج إلى قراءة الكتب! لولا أمِّي لطارت مدَّخراتنا كسوانا. لسببٍ ما أجهله، اقتنعت منها بأنَّ كلّ البنوك حراميَّة وتركتها تخبِّئ ما أدَّخر شهريًّا تحت الفرشة. لم أفكِّر باحتراق البيت مثلًا أو أن يدخل سارقٌ ما بيتنا إذا خرجنا في مشوار. اتَّضح لي بعدما احتجت إلى المال لعمليَّة الثدي، أنَّ لدى أمِّي خزنةً لا تحرقها نيرانٌ تخبِّئها في العليّة، أمَّا تحت الفرشة فدفترٌ تسجِّل فيه كلّ ليرةٍ تضاف إلى مدّخراتنا. يعني لولاها، لما استطعت دخول المستشفى ولا العلاج ولا حتّى شراء الدواء اللّازم. الفقير فقير عقل، تقول. لا أعرف إذا كان لموت أبي المبكر علاقةٌ بتطوُّر وعيها، أو أنَّها كانت نبيهةً هكذا وذهنها واضحٌ من

زمان. لكن عندما ترين أمَّهات اليوم وعجزهنّ في إدارة حياتهنّ وسط كلّ المصاعب والتحدِّيات، رغم شهاداتهنّ العالية ورغم دعمٍ لا محدودٍ من أزواجهنّ، تستغربين كيف أدارت هذه المرأة البسيطة حياتنا كلّنا نحن الأربعة. من ماكينة سينجر، علَّمتنا وفتحت لنا بيوتًا وحافظت على مدّخراتنا من النهب وأصرَّت على أن يعرف أحفادها ما حلَّ بأجداد أبي وقت الإبادة، وتحرص اليوم على إقحام فلسطين في يوميَّاتهم. أحيانًا نضحك في سرّنا عندما تغضب عليهم لأنَّهم يرفضون تناول طعامٍ ما: أطفال غزَّة يأكلون ورق الشجر، استحوا. أو إذا لم يعجبهم قميصٌ خاطته لهم: أطفال غزَّة عراةٌ وأنتم تتزنطرون؟ الطريف أنَّ زوجة أخي الأكبر أصبحت تساندها أيضًا في نغمة غزَّة كلَّما أرادت أن تتخلَّص من نزق أولادها وخروجهم المستمرّ كلّ ويك اند إلى المقاهي والمطاعم.

اكتفيت من أخباري أم بعد؟ خذي آخر حكاية، ولعلَّها أهمّ ما أريد مشاركتك إيَّاه.

اكتشفت مؤخَّرًا يا عزيزتي أنَّ رافي كتب مسرحيَّة. نعم. أنا التي ظننت أنَّه عاد إلى رشده أو كبَّر عقله واقتنع منِّي بإدارة محلّ الذهب بعدما تعب أبوه وسافر أخوه إلى بلجيكا. ها إنِّي أفاجأ بعدم تخلِّيه عن المسرح. جاء والده إلى المستشفى. كان المطر قد أغرق الطرقات. استغربت زيارته في هذا الوقت... وقف أمامي كأنَّه رسول. سلَّمني ملفًّا كأنَّه وصيَّةٌ أو تذكارٌ أخير. رافي استغلَّ فرصة إدارة المحلّ الذي لا يدخله أكثر من زبونٍ واحدٍ في اليوم، لكتابة مسرحيَّةٍ غريبةٍ عجيبة. طبعها وجهَّزها كأنَّ المنتج ينتظره وراء الباب. استأت كثيرًا عندما استلمتها من أبيه. وضعتها في حرجي وبسطت كفّي عليها، كأنَّها مظروفٌ يحوي دليل خيانته لي. لم يصمد استيائي أكثر من يومَيْن ورحت أقرؤها. أنهيتها في

ثلاث ليالٍ على خلفيَّة صوت جهاز مراقبة القلب ودقَّات المطر على الشبّاك. كنت أستعين بأصابع رافي لأقلّب الصفحة. أشرق دموعي وأخال أنَّ عينَيْه أيضًا تدمعان. أضحك فأشعر بأصابعه ترتعش في كفِّي. نعيمٌ وعذابٌ في آنٍ واحد. ثلاث ليالٍ غيَّرت الكثير من انتظاري له كي يتعافى ويعود لي. وبدأت أقتنع أكثر أنَّه لن يصحو. ها هو. قال كلمته وغاب. وترك لي هذه الشهادة لتُبقي في روحي ما لا يموت.

إليكِ ملخّص المسرحيَّة كي تفهمي ما أقصده.

القصَّة باختصارٍ شديدٍ أنَّ مدينةً عريقةً بتاريخها الثقافيّ وإبداعها الفنِّيّ تتحوَّل إلى بؤرةٍ للبذاءة بعدما تفشَّى بين سكَّانها مرض يسمَّى متلازمة النكات السخيفة. جموعٌ من كلِّ المشارب والانتماءات تتبادل النكات البذيئة. ظنَّ الأطبَّاء أنَّ السَّبب خللٌ في الدماغ، نوعٌ من السكتة الدماغيَّة. لكنَّ الظاهرة تفشَّت رغم عدم ثبوت ضررٍ في الدماغ لدى شرائح واسعةٍ من المجتمع. وبالتالي للخلل سببٌ آخر قد يكون نوعًا من الفيروسات المجهولة حتّى اللحظة. لم تنفع كلّ محاولات الأطبَّاء وحكّام المدينة بفرض ارتداء الكمامات وإجراءات العزل الاجتماعيّ. طالما أنَّ الفيروس مجهول المصدر، فعلاجه يبقى أيضًا مجهولًا. قد يكون من أغذيةٍ معيَّنةٍ أو من الماء أو من الهواء أو من جهاتٍ معادية. حاولت دولٌ صديقةٌ المساعدة، فأوفدت خبراءها وطواقمها الطبِّيَّة وأجروا البحوث والتحاليل ولم يخلصوا إلى أيِّ نتيجة. ونصحوا الحكومة بإصدار قرار منع السفر من وإلى خارج البلاد. وتفشَّت المتلازمة لتصيب الأطبَّاء أنفسهم والحكَّام والجيش وقوى الأمن. وسُجّلت حالات موتٍ بضحكاتٍ فرط صوتيَّة. مع توالي فصول المسرحيَّة نكتشف أنَّ متلازمةً من نوعٍ آخر تفشَّت على أطراف المدينة....

سأكتفي بهذا التريلر وسأنتظر رأيك بفكرة المسرحيَّة. هل لدَيْك وقتٌ لقراءتها. لا شكَّ أنَّ رافي استلهم الحكاية من واقعةٍ ما قرأ عنها، فالمتلازمة موجودةٌ فعلًا وتسمَّى متلازمة «ويتزلسوكت». أظنُّ أنَّها تستحقّ النشر لما فيها من إحالاتٍ وإسقاطات... قد نحتاج إلى التخفيف من الكلام البذيء فيها وقد نحظى بمنتجٍ انتحاريّ... لا أدري. كلّ ما أريده هو ألّا يغيب رافي بصمتٍ وبلا أثر...

أُكتبي لي بسرعة. ريا لن تطيل الإقامة هناك. مصيبتها بانتظارها هنا. قلبي يتقطَّع عليها. أقنعيها بما تحدَّثنا به. آخر الدواء الكيّ. تحتاج إلى التخلُّص من عقدة الذنب التي زرعتها فيها ابنتها طوال السنين. لن ينفعها «خبراء النفس» في تحليل ما يدور في رأس ابنتها! ستغيِّر جنسها لأنَّه موضةٌ لا أكثر. صدق من قال: على هذه الأرض ما يستحقّ الطوفان! (لم يقلها أحد. اخترعتها الآن)

عبوطات وبوسات حبيبتي،

لينا

الجزء الثالث

نيرانٌ صديقة

مجِّدوا الكراهية كما تمجِّدون ذكرى أمّهاتكم
لأنَّه بدون الكراهية لن يكون هناك عصرٌ قادمٌ
لن يكون هناك حربٌ قادمةٌ ولا سلامٌ قادمٌ
لا حرّيَّة ولا عبوديَّة لا ظلم لا عدل لا مصير
ستكون أميركا وحدها فقط

أحمد حسين

أتعرفين ما هو الموت الذي لم يبكه أحدٌ يا غزَّة؟ موت الرسائل. نحن ـ وربما أنت ـ نحاول إحياءها كلَّما سنحت الفرصة... فكلَّما سافر آدم أكتب له رسائل مطوَّلة. صحيحٌ لا أستخدم الحبر والورق. لكنَّني على الأقلّ أسترسل وأستفيض ولا أختزل شعوري بقلبٍ أحمر أو وجهٍ دامعٍ أو ضاحك!

ماتت الرسائل المكتوبة باليد. ويحتفى بذكراها في إصدار كتبٍ تحوي مراسلاتٍ بين مشاهير الأدب أو السياسة أو الفنون. احتفاءٌ يشعرنا بفداحة الفقد لهذا البوح الذي يحتاج إلى شرطَيْن: العزلة والوقت. شرطان يسعفاننا على العودة إلى أصداف أرواحنا الخبيئة.

عندما خطر لي الطلب من صديقاتي مكاتيب قد أستخدمها في نصٍّ أكتبه عنك يا غزَّة، أردت الدخول وإيَّاهنّ في العزلة والوقت لأراك بوضوحٍ وأفهم أثرك فينا. فالتعبير بواسطة الورقة والقلم أشبه بحفر الماء في الصخر. كلمةً بعد أخرى يتشكَّل المعنى أو العبث أو الفراغ ليكشف أو يردم ما في القلب من شقوق.

في كلِّ رسالةٍ وصلتني، تأمَّلت السطور المتفاوتة في استقامتها، وحدَّقت طويلًا في الكلمات التي تقاربت أو تباعدت، فتحسَّست لحظات تردُّدٍ وهبَّات جنونٍ واعترافاتٍ أولى واستغاثةً لاإراديَّة.

لكنّ بوح الرسائل لا يكفي لنفهم ماذا يدور في عقول أصدقائنا وإلى أيِّ درجةٍ من الغليان بلغت مشاعرهم، حتّى لو لسعتنا حرارتها. لا يُكتب المكتوب تمامًا كما يريد مرسله ولا يُقرأ أيضًا كما يشاء. لذلك ربّما نواصل التراسل أو نكثر من المسودّات قبل الرسالة الأخيرة. ولهذا السبب أيضًا، نستفيض في الكلام ويتداخل ماضينا وذكرياتنا المشتركة مع ما نحلم به أو نخاف حدوثه. ولعلَّ ذلك ما يدفعنا إلى الاحتفاظ بالرسائل المكتوبة في مكانٍ خاصٍّ ونعود لقراءتها كما يعود من مشى طويلًا تحت الثلوج إلى موقدٍ مشتعلٍ ويستمتع على مهلٍ بتغلغل الدفء في مسامّاته.

مع انتشار الرسائل الفوريَّة أصبحت الغاية تبرِّر الوسيلة. نريد فقط الاطمئنان بأنَّ من نراسله ويراسلنا ما زال كما عرفناه ولم يتغيَّر، وأنَّنا لم نفقد مكانتنا في قلبه رغم المسافات. كأنَّنا نريد مضادّاتٍ حيويَّةً ضدّ الخيبة أو الجفاء أو النسيان، فتتحوَّل الكلمات إلى جرعة اكسبريسو أو أربطةٍ لتثبيت مفاصل الصداقة أو الحبّ. اطمئنانٌ سريعٌ ومعلومةٌ مختصرةٌ عن الحال، وإيموجي ترمى بعشوائيَّةٍ كما يرمى البونبون على

الأطفال في مهرجان ألعاب. أمَّا الرسائل الصوتيَّة فغالبًا ما يصغى إليها مع تشغيل خاصّيّة التسريع، فالجميع يركض ولا بأس إن فاتتنا غصَّةٌ أو ضحكةٌ في هرولة الصوت أيضًا.

قبل يومٍ واحدٍ من إحراق نفسه على بوّابة السفارة «الإسرائيليّة» في واشنطن، بعث أرون بوشنيل رسالةً عبر الواتساب إلى صديقه: «آمل أن تفهم، أحبُّك. ربّما هذا لا معنى له، لكنّي أشعر أنَّني سأفتقدك.» وقبل يومٍ واحدٍ من يومه الأخير، أعطى قطَّته لجاره. لم يتوجَّس الصديق ولا الجار، فرسالة بوشنيل لكلٍّ منهما كانت مقتضبةً وخاطفةً ولم تكشف نواياها إلَّا بعد فوات الأوان. فقط عندما شاهداه يحترق تأكَّد لهما أنَّه كان يستودعهما شيئًا من روحه. كلّ ما قاله عن خططه بترك الجيش والانخراط في النشاط المناهض للحروب، تبدَّد تحت ركامك. على غفلةٍ من أصدقائه، قرَّر أرون أنَّ الحياة لا تستحقّ العيش طالما من عليها قادرٌ على إحراق الأطفال والنساء من غير رادع.

أتماهى مع صدمة أصدقاء بوشنيل وشعورهم بالذنب. لم يفهموا رسائله. أخاف على نفسي من صدمةٍ وشيكةٍ وشعورٍ متأخِّرٍ بالذنب... هل ستمضي وداد في اجتراح كلّ المبرِّرات لتكرِّس قناعتها بأنَّ السعادة الواهية أفضل من مواجهة التعاسة؟ إلى متى ستحتمل لينا غيبوبة رافي؟ وهل بالسيبرالكس يحيا وطن؟ ماذا لو لم يخرج عاهد من الأسْر؟ وكيف لمنى أن تمسي عشب القصب في روح لين الطريّة؟ وهل من ذاكرةٍ تصمد في بيوتٍ وأوطانٍ مؤقّتة؟

أبحث في كلِّ سطرٍ كتبنه عمَّا أبيد فيهن وعن بطولةٍ كامنةٍ قد تنبت فجأةً كغيمةٍ أو ساق نبتة. تُرعبني الاحتمالات. وأخاف ألّا يفين

بوعدهنّ لي بمواصلة التراسل. وأتذكَّر تجربةً عايشتها قبل سنواتٍ مع صديقةٍ أخرى في لبنان كانت تتلقَّى من إحدى تلميذاتها رسائل عبر الواتساب تردِّد فيها كلمتَيْن: خلص... قرَّرت الانتحار. كانت ردَّة فعلي الأولى أنّ من يريد فعلًا الانتحار لا يبلِّغ أحدًا مسبقًا بقراره. ينتحر وانتهى! وافقتني صديقتي لكن كان من المستحيل أن تتعامل مع هذه النظريّة من دون فعل شيءٍ بصفتها طبيبةً نفسيَّةً أوَّلًا وقريبةً جدًّا من تلميذاتها ثانيًا. لا أعرف كيف نسيتُ الموضوع ولم أتابع الحكاية. ربَّما لقناعتي أنَّ الأرض لم تَعُد تحتمل جائحة الرخاوة النفسيَّة المتفشّية في الجيل الجديد، فلينتحر من يشاء. واليوم أقول إن لم تدفء حرائقنا الصغيرة طفلًا يرتعش في خيمتك، فانتحارنا أجدى!

لكنَّنا ننتحر على طريقة تلك التلميذة. ولا نجرؤ على الاحتراق مثل بوشنيل. أليس من حقِّنا اختيار احتراقنا الشخصيّ؟ ألم نتعلَّم من احتراق البوعزيزي كيف أججّت ناره الربيع الأكثر عقمًا في تاريخنا؟

سنجرؤ ونتحمَّل احتراق قلوبنا على مهل. ولن نكون كالضفدع المغليّ. سنواصل التفرُّج والاستياء والغضب ولن نجد سبيلًا للخلاص من عجزنا عن إنقاذك، إلَّا بإنقاذ أنفسنا من تلك النقطة التي يبلغ العجز فيها مداه فينهار أو يتخدَّر. صامدون نحن في إزكاء كراهيتنا للعالم كلّه يا غزَّة. ونتلذَّذ بتلك الكراهية عندما تكمنين للصهاينة وتفخِّخين لهم المباني وتحرقين ضبَّاطهم وجنودهم. لا عيب في ساديَّتنا عندما نقهقه على 540 جنديًّا صهيونيًّا يُقتلون بنيرانٍ صديقة، ويشحننا جنديٌّ صهيونيٌّ بجرعةٍ عاليةٍ تفاقم ساديَّتنا حين يقول: «أن تكون مصابًا في الحرب يعني أن تخاف الكوابيس التي تداهمك في الليل وأصواتًا داخل رأسك لا تخرج، أن تكره نفسك وتعيش تجارب انتحار».

ونقرأ عن حوادث اغتصابٍ وتعاطي مخدّراتٍ داخل مراكز إيواء الصهاينة الفارّين من أرضك بعد 7 أكتوبر، ونشاهد الكنيست يستعرض شهاداتٍ مروّعةً عن «شعبه المصدوم»: اغتصاب للنساء والأطفال في فنادق الكيان...

ونقرأ عن 4500 جريحٍ جسديٍّ ونفسيٍّ أضيفوا إلى قائمة المحتاجين إلى المساعدة في «إسرائيل» وعن 50 مجنَّدةً رفضن الخدمة العسكريَّة في وحدات الاستطلاع الحدوديَّة. ونقرأ عن مصادقة الكنيست على مشروع قانونٍ يحظر إنكار هجوم 7 أكتوبر، والسجن خمس سنواتٍ لكلّ من ينشر أقوالًا تنفي أو تنكر أحداث 7 أكتوبر أو تقلّل من أبعادها ولكلّ من ينشر إشادةً أو تأييدًا أو تضامنًا مع الحدث!

كل هذا من فعلك أنت. نقرؤه حرفًا حرفًا ونشاركه مع معارفنا الخائفين عليك العاجزين مثلنا عن الانتحار دفاعًا عنك! وترضينا قدرتنا على الكراهية والتلذُّذ بساديَّة الانتقام لك. على الأقلّ لسنا كسوانا ممَّن يواصلون حياتهم بمناعةٍ تامَّةٍ فلم ترتفع حرارة ضمائرهم ولم تحتقن أنوفهم بآثار الفوسفور الأبيض ولم يصابوا بسعارٍ ديكيٍّ كاستجابةٍ طبيعيَّةٍ ضدّ إبادتك. الحمداللّه على نعمة الكراهية.

اليوم فتحت كتاب «حكاية جدار»، على فصلٍ بعنوان أسئلة، ومستهّله: «قل لي عمّا تدافع أقل لك من أنت». من مؤبّده في معتقلات الصهاينة يسألنا ناصر أبو سرور: «ما الذي يقلق نومك وعلى أيِّ صباحاتٍ تستيقظ فيك أحلامك؟ (....) هل يعنيك حديث المرايا أم أنَّك توقَّفت عن المثول أمام ظلّك؟ (...) لو عاد خلقُك كرَّةً ثانية، هل تعود أنت، وإلى أين؟»

أحار في كلماته. وأقرأ الصفحة ذاتها عدَّة مرَّات. أجادل ناصر في أسئلته. أهي إدانةٌ لعناد الأجوبة المريحة أم مديحٌ لعناد الأسئلة المفتوحة؟

في الدفاع عن، عنادٌ قد يدان أو قد يبجّل، فيصحّ القول أيضًا: قل لي ماذا تعاند أقل لك من أنت.

هتافات الناس في عواصم العالم تتصاعد. لماذا يدافعون عنك بعنادٍ متعاظم؟ ألأنَّك تبادين فقط؟ أم لأنَّك تواجهين موتك ونزوحك وتجويعك بعنادٍ يماثل عناد سقراط وعناد يسوع؟

البعض يرى عنادك أرقى فضائلك وآخرون يرونه أسقمها ويجرؤون على وصفه انتحارًا. وثمَّة من يحتمي بتعريفات المعاجم اللغويَّة التي أسقطت عن العناد كلّ فضيلةٍ فوصمته «بمخالفة الحقّ وهو عارفٌ به»! وثمَّة من صاغ معجم التطوُّر والحداثة على قاعدة المرونة في المواقف والانفتاح على آفاقٍ جديدة. وحده المعجم الفلسطينيّ تمسّك بتعريفٍ واحدٍ للعناد ومنحه على مدار قرنٍ ما يستحقّ من قدرةٍ على الاستمرار في التحدّي وعدم الانزياح عن فعل النضال مهما كانت الأثمان، فكان للعناد مرادفٌ باللهجة العاميَّة الفلسطينيَّة: تناحة.

أستطيع الاسترسال في مديح التناحة الفلسطينيَّة لأنّي خبرتها في حياتي الخاصّة. فآدم وأنا لسنا على وفاقٍ دائمٍ كما تتخيَّلين. الجدال وقود حياتنا وبه نستمرّ أحبَّةً أصحّاء. جدالنا دائمًا في مواضيع تخصُّه بالدرجة الأولى. لومي المستمرّ له على إهمال نفسه، أو تأجيل مهمَّاتٍ تتعلَّق بصحَّته أو بمتطلّباته الشخصيَّة البسيطة مثل شراء الثياب أو الخروج مع أصدقائه وما إلى ذلك من قراراتٍ يحسمها بمعزلٍ عن رغبتي أو خلافًا لها.

أوَّل تجلّيات تناحته تمثَّلت لي في تمسُّكه بوسادة النوم نفسها لسنواتٍ طويلة. وسادةٌ تكيَّفت مع رأسه بعدما حفر حفرته فيها، ليهنأ بنومه وأحلامه كما يشاء.

كان عليّ التعامل مع هذه الوسادة وفق ما تقتضيه شروط الحفاظ عليها ملائمةً لرأسه، فلا أغسلها ولا أنفضها وأكتفي بتشميسها يوميًّا وتغيير غطاء الحماية لها كلّ أسبوع. أمَّا عندما نقرِّر الانسحاب إلى فندقٍ ما لإجازةٍ قصيرة، فأوَّل ما يتوجَّب فعله هو فحص الوسادات في الغرفة العتيدة والطلب من خدمة العملاء الإتيان بكلّ أنواع الوسادات لاختيار ما يلائم رأسه. ولعلَّ الوسادة المصون مثل تحفةٍ تاريخيَّة، كانت السَّبب الخفيّ وراء لهفتنا للعودة إلى البيت.

قد يُفهم هذا التمسُّك بالوسادة طوال هذا الوقت، مظهرًا من مظاهر التعوُّد على الرفاهيَّة، لكنَّه يصبح غير مبرَّرٍ عندما يصدر من رجلٍ شبّ في القرى والأحراج وتلذّذ بغفواتٍ طويلةٍ تحت الشجر، وعلى حجرٍ في حقل زيتونٍ وعلى سريرٍ حديديٍّ بلا وسادةٍ في المعتقل!

توقَّفت عن الجدال بشأن الوسادة منذ زمنٍ ليس ببعيد، حتّى صارت بالنسبة لي رمزًا لوفاء عهدته فيه يمنحه النوم في مسقط رأسه.

لكنّ جدالًا من نوعٍ آخر بدأ يتبلور ليكشف لي عن تناحة أكثر ضررًا من الاحتفاظ بوسادة عجوز. فقبل خمس سنوات، شجَّعته على التخلُّص من أسنانه التالفة واللجوء إلى الزراعة. فاجأتني موافقته الفوريَّة. توجّه إلى أحد المراكز الطبّيَّة في المدينة واستغرق الأمر جلستَيْن فقط لإتمام المهمَّة: قلع الأسنان ووضع «الزرعات» التي ستركب عليها الأسنان الجديدة. وسرعان ما بدأت الأوجاع، وراحت

تزداد إلى حدٍّ لم تنفع معه كلّ المسكّنات. عاد إلى المركز ليكتشف أنَّ الطبيب الذي أجرى له العمليّات لم يَعُد يعمل فيه. توجَّه إلى مركزٍ آخر. وبعد الاستشارة والفحص والتحليل تبيَّن أنَّ الأضرار التي لحقت باللثة والأسنان أكبر ممَّا توقَّعنا، فكلُّ «الزرعات» كانت خاطئةً وثمَّة تآكلٌ للعظم والتهاباتٌ حادَّة. عاد وراجع المركز الأوَّل بشأن تلك الأخطاء الضارَّة جدًّا ليس فقط على صحَّة الفم، بل على صحَّته بشكلٍ عامّ. قدَّم له مدراء المركز اعتذارهم الشديد على ما حصل معترفين بتعرُّضهم لعمليَّة غشٍّ من الطبيب سيِّئ الذكر، الذي ارتكب الخطأ نفسه مع عددٍ من المرضى واختفى.

بعد هذا الاعتذار والاعتراف، اقترحوا خطَّة علاج. بطبيعة الحال رفض آدم كي لا يُلدغ مرَّتَيْن. ولجأ إلى القضاء رافعًا دعوى على المركز وعلى الطبيب الذي اختفى بلا أثر. وبين جمع تقارير طبِّيَّةٍ تثبت حجم الضرر وتقيِّم تكاليف العلاج، مضت خمس سنواتٍ من التناحر بيني وبينه، وفشلت كلّ محاولاتي لإقناعه باللجوء إلى طبيبٍ متخصِّصٍ وموثوقٍ لإصلاح ما تضرَّر قبل فوات الأوان، ريثما يقول القضاء كلمته في الدعوى.

خمس سنواتٍ وأنا أراه يأكل من دون مضغٍ مع ما يترتَّب عن ذلك من أضرارٍ على الجهاز الهضميّ، وأراه يكابد الالتهابات المتكرِّرة ويتعثَّر لسانه بحروفٍ معيَّنةٍ بسبب الأسنان المؤقَّتة التي كانت أيضًا معطوبةً بفعل «الزرعات» الخاطئة. خمس سنواتٍ يعاند اقتراحي في إصلاح الأضرار بغضِّ النظر عن الدعوى: «لن أقضي على الدليل الوحيد للخراب الذي حلَّ بأسناني، والذي سيكسبني القضيَّة. أستطيع التعايش مع هذا الخراب حتّى أضع مدراء المركز والطبيب النصَّاب أمام

مسؤوليّاتهم، حتّى لو دفعت مقابل ذلك من جيبي. المسألة بالنسبة لي مبدأ. التنازل عن الحقّ الشخصيّ يعني تنازلًا بالمطلق».

هكذا مضت خمس سنواتٍ مع تفاقم الضرر على اللثة وعلى الجهاز الهضميّ وعلى العظم، حتّى صدر الحكم وكسب الدعوى. وألزمت المحكمةُ المركزَ المعنيّ بدفع مستحقّات العمليّات الجديدة كاملةً لأيّ طبيبٍ أو أيّ مركزٍ طبيٍّ يختاره صاحب العلاقة.

خضع آدم لعمليَّتَيْن جراحيَّتَيْن. الأولى كانت للفكّ العلويّ. استغرقت ستّ ساعاتٍ بتخديرٍ موضعيّ. وضعت الأسنان المؤقّتة وكان عليه تجنُّب كلّ الأطعمة الصلبة أو المقرمشة وأن يتناول كمّيّاتٍ كبيرةً من الأدوية المضادّة للالتهابات وأقراص الفيتامينات. بعد شهرٍ أو أكثر خضع لعمليّةٍ ثانيةٍ للفكّ السُفليّ. وهذه كانت أصعب وتطلّبت تخديرًا كاملًا واستغرقت ثلاث ساعاتٍ تبعتها أربع ساعاتٍ في غرفة الإنعاش. وكان عليه أن يأكل مثل الأطفال، أطعمةً مهروسةً بقوام السيريلاك. وكان عليه أن يبلع ولا يمضغ. وكان عليه تناول كمّيّةٍ جديدةٍ من الأدوية المضادّة للالتهابات، وملء فجوة الجوع في معدته التي لا يصلها أيّ غذاءٍ بفعل استحالة المضغ، بالرز بحليب والمغلي والكاستر!

بقي على هذه الحال شهرًا كاملًا قبل تركيب الأسنان المؤقّتة التي ستسعفه على تذوّق الطعام بشكلٍ شبه طبيعيٍّ حتّى التعافي نهائيًّا وتركيب الأسنان الجديدة والدائمة.

مع صدور الحكم القضائيّ وما تبعه من معاناةٍ لإصلاح الخراب، بقيت على قناعتي أنَّ العمليّة الجراحيّة ستكون أقلّ إيلامًا وضررًا وأقصر زمنًا لو أجريت مباشرةً بعد وقوع الخطأ الطبّيّ المتعمَّد. هذه حقيقةٌ يقرّ

بها آدم لكنَّه سرعان ما يشهر تناحته قائلًا: كنت مستعدًّا للانتظار خمس سنواتٍ أخرى بلا أسنان، حتّى يصدر الحكم.

ترعبني هذه التناحة وتطمئنني في آن، فالعنيد لا يجبن ولا يخضع ولا تعنيه الخسائر ولا يتردَّد في دفع الأثمان. العنيد لا يخون.

تُرعبني تناحتك وأنت تحضنين طفلًا ملفوفًا بحرامٍ صوفيٍّ وتضعين في فمه الجافّ حبَّة تمرٍ ملفوفةً بالشاش فيمتصُّها ويئنّ. يُرعبني عنادك وأنت تنبشين التراب لتخرجي «ما يصلح للأكل» فتلتقطي عنق جزرةٍ أو خبيزةٍ وتحمدلين وتعودين إلى خيمتك راضيةً بكفاف يومك! ويُرعبني كيف حوَّلتِ قماشَ خيمةٍ إلى حِفاضٍ لأطفالك، وأعلافَ الحيوانات إلى بديلٍ عن الطحين المفقود لصناعة الخبز، والألواحَ الحديديَّة التي كان يرقد عليها الدجاج إلى أسرَّةٍ لأطفالك.

بالموجود جودي يا غزَّة، واقهري أعداءك واغبطينا بتناحتك! ها هي تتجلَّى في طفلك، حسام العطار، الذي أضاء المخيَّم بمولّدٍ كهربائيٍّ اخترعه من أدواتٍ بدائيَّة. بالمناسبة، قولي لمن يسمُّونه نيوتن غزَّة، إنَّ استعارة أسماء المخترعين الأجانب ليست شرطًا لتكريس عبقريَّته! هو حسام غزَّة، أحد عباقرتك. صناعةٌ محلِّيَّة. منتَجٌ محلِّيٌّ صرفٌ مادّته الأساسيَّة التناحة.

لو تعلمين كيف حبس العالم أنفاسه وهو يشاهد طفلًا آخر لك، يمشي على الأسلاك الكهربائيَّة لينقذ طائرته الورقيَّة العالقة فوق عمود الكهرباء. تساءل المشاهدون المذهولون، لماذا لم يردعه أحد؟ توقَّعوا أن تهرع أمّه أو من تبقّى من عائلته لتثنيه عن فعله المجنون. كيف تُفهمين هؤلاء ماذا تمثِّل له الطائرة الورقيَّة العالقة؟ وكيف سيردعه من شبّ

وشاب على التناحة؟ طائرةٌ ورقيّةٌ قد لا تصلح للطيران بعدما علقت في عمود الكهرباء، قد تتمزَّق، وقد تنزلق قدمه وهو يحاول إنقاذها. لماذا لا يشتري أو يصنع غيرها بكلّ بساطة؟ ألأنَّه طفلٌ لا يدرك حجم الخطر فيجازف بسلامته؟ أم لأنَّ له نماذج ساطعةً عن بطولات التناحة سمعها من جدِّه وأبيه وشاهدها في أمِّه وإخوته وجيرانه وأقاربه، وها هي تظهر أمامه بمعطفٍ أسود وحذاءٍ أبيض فيهتف مع الهاتفين: يحيا المقاتل الأنيق.

وها هي عدوى التناحة تتفشَّى كورمٍ حميدٍ في حناجر شابَّاتٍ وشبَّانٍ يواجهون القمع والضرب والحرمان من الدراسة في جامعات الغرب. يرفعون علَمك كطائرة حسام الورقيَّة، فيُضرَبون ويُسحلون ويُزجّون في غرف التحقيق ويطردون من الحرم الجامعيّ.

يوسوكي فوروساوا «تنّحَ» هو الآخر وترك حياته وانشغالاته ليشهر تضامنه معك وينادي بحرِّيَّتك! ها هو منذ خمسة أشهرٍ يتظاهر وحيدًا معتمرًا القبّعة نفسها متجوِّلًا في شوارع طوكيو باحثًا عن المؤسَّسات التي يجب مقاطعتها. يقف رافعًا لافتةً كُتب عليها أوقفوا الإبادة في غزَّة.

بالتأكيد هو لم يقرأ نداء الدكتورة أميرة النحال، ولم تصله ترجمة كلماتها حين كتبت: «هذا زمان ثباتٍ ورباطٍ فلا تبرح مكانك بحجَّة أنَّك تعبت. تماسك». لكنَّه بفطرته الإنسانيَّة الصرف، رآك تعاندين الموت فقرَّر معاندة التعب وعبثيَّة التظاهر وحيدًا، فصار رمزًا للتمسُّك والتماسك وتجسيدًا لما قالته النحال: «لن يصل الغاية مستريحٌ ولن يحمل الراية متخاذل».

من الضفَّة تطلّ التناحة برأسها عابرةً الحواجز لتدهس وتطعن وتطلق نيرانها على الجنود والمستوطنين الصهاينة. فنطمئنّ أنَّ خيطك

مربوطٌ بمئات الأكفّ التي تُتقن رسم الخطط لتحاصر أعداءها أينما وجدوا. شخصيَّاتٌ نجهل وجودها قبل عملها البطوليّ، تظهر أمامنا كأنَّها خارجةٌ من الأساطير، لها ساقٌ في التراب وساقٌ في الأبديَّة.

في الماضي قال بن غوريون: يجب تغيير الحمض النوويّ للفلسطينيِّين، والآن يقول النتنون: علينا تغيير دماء الغزَّاويّين! ليس في الحمض النوويّ ولا في الدِّماء يكمن هذا العناد الذي يصيب عدوَّك بالعصاب. بل هو في ذلك التقليد الذي يماثل شعائر البلوغ، حيث يغنم جيلٌ بعد جيلٍ أصول التناحة وآدابها.

بالبثّ المباشر والحيّ تصنعين ميثولوجيا التناحة. وآدم يكتب عن أحد طقوسها:

«خلال العدوان الصهيوني على غزَّة عام 2008 طلب أحد المقاومين من والدته إخلاء منزلهم الواقع على الحدود مع أرضنا المحتلَّة تحسُّبًا لقصفه بطائرات الاحتلال. رفضت الأمّ وعندما أصرَّ ابنها على مغادرتها إلى بيت أختها البعيد نسبيًا عن الحدود، قالت له: سأغادر بشرطٍ واحد: أن تفخِّخ البيت بالمتفجّرات وتبقى أنت فيه حاملًا بندقيّتك، فإمَّا أن تنتصر عليهم، وإمّا أن تستشهد ولا أريد أن أسمع منك أو عنك غير ذلك.

حصل ما أرادته الأمّ وخرج الابن من هذه المعركة منتصرًا واستشهد في معركةٍ أخرى بعد سنواتٍ محقِّقًا أمنيتَي الانتصار والشهادة».

قولي لي يا غزَّة، هل تستائين من أسطرتك؟ كُثرٌ كتبوا: «الغزّاويّ إنسانٌ يريد أن يعيش كما الجميع». وكُثرٌ ردُّوا: «لو أراد ذلك فقط، لفعل مثل الجميع. مثلنا». وآخرون قالوا: «هذا ليس «صمود» بل فقط انعدام خيارات!»

ماذا نرى في الحُفر التي تخلّفها الغارات على أرضك؟ أطفالك يتحلَّقون حولها كأنَّهم في احتفالٍ مدرسيٍّ يتسابقون لإيجاد كبسولة زمنٍ خبَّأها أسلافهم. ماذا سيجدون فيها؟ وصيَّة شهيد، قصاصةً من جريدةٍ عن أوَّل مجزرة، صورةً لبيتٍ احتلَّه الصهاينة، بقايا بندقية، مفتاح البيت الأوَّل، صورة أوَّل أسيرٍ فلسطينيّ... وأشلاءً طازجة.

إنَّها عدَّة التناحة. يعرضونها أمامنا فخورين. ويتنافسون على إثراء العدَّة بأدواتٍ جديدةٍ تروي عن بطولاتهم لمن حتمًا سيولد من بعدهم. فأنت متَّنحة على الحمل والإنجاب في عزّ الإبادة!

لآدم أيضًا كبسولة زمن، يسحبها من بطانة وسادته الأثيرة ليروي لي في عناقنا الليليّ جماليَّات التناحة:

«يروي الأسرى الفلسطينيُّون حكاية أسيرٍ كان محكومًا بالمؤبَّد و120 عامًا إضافيَّة. يقولون إنَّه دائم الابتسام والهدوء والثقة. يقضي وقته في القراءة والتدوين والعمل النضاليّ وشدّ أزر زملائه. سأله أحدهم عن سرّ هذا الصمود والتفاؤل فقال: «أنا لا أفكِّر في اللحظة، بل في سياق التاريخ. أفكِّر في مصير شعبي، ليس الآن بل بعد 100 عام. أفكِّر أكثر في دوري وأثري في هذا السياق التاريخيّ. يا رفيقي، اللحظات فخّ الزمن وسقطة التاريخ ومقتل الوقت. إذا وقعنا فيها ستكون غايتنا الفرح اللحظيّ والحرِّيَّة اللحظيَّة والسلامة اللحظيَّة والخلاص اللحظيّ. وكلّ هذا سيكون على حساب أهدافنا بالحرِّيَّة الحقيقيَّة والفرح الحقيقيّ بدون أن يتحكَّم بهما العدوّ ويحوِّلهما إلى مادّة ابتزاز. بعد قرنٍ من النضال لا نريد لأيّ لحظةٍ مهما كانت مغريةً أن تأتي على حساب تاريخ ومستقبل أمَّةٍ بأكملها».

كيف لا نؤسطر الفلسطينيّ إذا كان الصهاينة أنفسهم يتبوّلون في بذلاتهم العسكريَّة عند مواجهة حفنةٍ من المقاتلين حفاةً وبلباس الرياضة: نقاتل أشباحًا، يصرخون. كيف لا نؤسطر الفلسطينيّ عندما نعلم كم من إضرابٍ على الطعام قام به الأسرى حتّى أجبروا الاحتلال على تحسين جودة الطعام وزيادة وقت الفورة وتوفير الأقلام والدفاتر والكتب. كيف لا نؤسطر الفلسطينيّ عندما نرى شبابًا وشابّاتٍ في خيم النزوح يكملون دراستهم على وقع المجازر وبين أنقاض ذويهم فيحصلون على شهادة الدكتوراه أو الماجستير.

كيف لا نؤسطرك يا غزَّة عندما نقرأ رسائل تركها أبناؤك في بيت لجؤوا إليه قبل الاستشهاد أو قبل مواجهة من المسافة صفر: «سامحونا أكلنا سبع تمراتٍ وبعض الحلاوة في العلبة وشربنا الماء». يكفي أن نتمعَّن في الرسالة لنعرف بأيِّ طينةٍ عجنتِهم. كلمة «ثلاث» مشطوبة. وفوقها كلمة «سبع» وهو عدد التمرات التي أكلوها. لمثل هؤلاء ستتخلّين عمَّا يسدّ جوعك وستكتبين: «البيت ملككم، وتحت أمركم. تركت لكم بعض الطعام. صحّة وعافية يا أبطال».

ويخطر لك أنَّ عدوَّك سيقتحم البيت نفسه فتخطّين له بحبرٍ كثيف: « أمّا أنتم يا أحفاد الخنازير، فالموت لكم وزاولكم قاب قوسَيْن أو أدنى. نزحنا وسنعود لنبني ونجاهد».

تحت الأنقاض سيكتب أطفالك وصاياهم. حروفهم المرتعشة ستستقرّ كبقع دمٍ في محاجرنا. ماذا يعني أن يكتب طفلٌ وصيَّته؟ يرى الموت قادمًا إليه بكلِّ الأشكال فيستمهله ويكتب رسالةً لمن قد ينجو.

«مرحبًا، أنا هيا وسأكتب وصيَّتي الآن». الورقة بها سطورٌ وفوق السطور أحرفٌ ترتجف. ولكلِّ سطرٍ عنوان. مع حرصٍ على علامات الترقيم!

1. نقودي: 45 شيكلًا لماما و5 لزينة و5 لهاشم و5 لتيتا و5 لخالتو هبة و5 لخالتو مريم، و5 لخالو عبود و5 لخالتو سارة.

2. ألعابي وجميع أغراضي: لصديقاتي زينة (وتحتها كلمة أختي) ديما (رسمة قلب) منة (رسمة قلب) أمل (رسمة قلب).

3. ملابسي: لبنات عمّي وإذا تبقّى أيّ شيءٍ تبرَّعوا بها للفقراء والمساكين... بعد غسلها طبعًا.

كتابة الوصيَّة باتت طقسًا يوميًّا يمارسه أطفالك. واثقون أنَّ أحدًا سيعثر عليها تحت الأنقاض. وأنَّ أحدًا سينفّذها بكلِّ وفاء. وأنَّ أحدًا سيبقى على قيد الحياة لينعم بميراث هيا.

«أنا عمر الجماصي، عليّ دَيْن واحد شيكل لولدٍ اسمه عبد الكريم النيرب، عبد الكريم ساكنٌ في شارع أبو نافذ، وأنا يا أحبابي أحبُّكم وأتمنَّى أن لا تتركوا الصلاة وتحافظوا على قراءة القرآن والاستغفار».

تحملين الوصايا، تخبّئينها في عبِّك، وتهرولين من زقاقٍ إلى آخر ومن خيمةٍ إلى أخرى باحثةً عن صديقات هيا غير مباليةٍ بعناد الذين لم يتخلّوا عن «حقِّهم» في إبادتك. تلاحقك طائرات كواد كابتر تبثّ لك بكاء أطفالٍ وصراخ نساءٍ لاستدراجك إلى جحيمٍ طازج. تهرولين مصدومةً من عناد من يدعمهم ويموّلهم ويبارك هذا الجحيم. لكنَّك تعلمين أنَّ كلّ عنادٍ مسلوب الأخلاق لا يعوَّل عليه. هو عنادٌ جبان يخشى تناحة أطفالك في زرع وردةٍ أو إنقاذ طائرةٍ ورقيَّةٍ أو إيفاء ديونهم قبل الشهادة.

« لا أحد بريءٌ في غزَّة»، يقول يهودا لوبيز، مواطنٌ إسبانيٌّ يقاتل في الجيش المحتلّ. «هذه فكرةٌ تزرع في رؤوسنا من البداية وتأتينا الأوامر بأن نطلق النار على أيِّ شخصٍ يعبر. يجب ألّا يبقى أحدٌ منهم».

لا أحد بريءٌ في غزَّة حتّى الأشجار. خمسة وخمسون ألف شجرة، منها المثمرة والمعمّرة اقتلعها الاحتلال من أرضك.

لا أحد بريءٌ في غزَّة حتّى الهواء الذي تخطَّت البصمة الكربونيَّة فيه، ما يعادل احتراق 150 ألف طنٍّ من الفحم.

من تنّح وبقي في بيت حانون وجباليا يُجبرونه على النزوح تحت تهديد السلاح، يرغمون النساء على خلع الحجاب ويجرّدون الرجال من ملابسهم ويعتقلون الشبّان. ويتركون ذخائر غير متفجّرةٍ في المدارس التي ينسحبون منها، ويغتالون كلّ من يتولّى تأمين المساعدات من شبابك في جهاز الشرطة. وكلّ من ينتظر المساعدات يُقتل بأسلحةٍ رشّاشة. أمَّا المساعدات التي تسقط من السماء فتسوّي العشرات بالأرض أو تغرقهم في البحر!

لا أحد بريءٌ خارج غزَّة أيضًا ممَّن يؤسطرونك ويتغنّون بتناحتك ويتناقلون مشاهد أطفالك في جمع الحطب والوقوف في طوابير التكايا حاملين الطناجر. وصل بنا الحال إلى التغنّي بالطناجر لشدَّة لمعانها ونظافتها! من سيعتب عليك يا غزَّة إذا كانت طناجرك متّسخة؟ ومن سيعتب على أطبّائك إذا لم يطلّوا على الشاشات ببرانيس بيضاء ناصعةٍ مكويّة؟ من سيعتب على المستشفيات المدمَّرة والفاقدة لأدنى مقوّمات العلاج إذا لم يكن مدخل الطوارئ فيها مشطوفًا وخاليًا من عقب سيجارة! أحقًّا تواظبين على أعمال التنظيف والغسيل والكوي

والكنس والشطف وأنت تحت القصف على مدار الساعة وعلى مدار نصف عام؟ كيف لا نؤسطرك؟

أمام ما نراه بدأت تنحسر قدرتنا على النطق. بعضنا يُتأْتِئ وبعضنا يعوي. أنا نفسي وجدتني أعوي عندما شاهدت طفلك فيصل أحمد الخالدي يروي لنا كيف «طلعوهم عالممر وطخوهم قدامي. أمّي كانت حامل. طخوها ببطنها. كانت حامل بالشهر التاسع. أبوي كمان طخوه قدامي».

أشغّل فيديو فيصل مرّةً أخرى. الأشقر ابن الخمس سنواتٍ لا يبكي ولا يغصّ ولا يخطئ في سرد ما حصل ولا تتداعى الصور في ذهنه. يسردها بدقّةٍ وبوضوح! «طخوها ببطنها قدامي» قال فيصل. «قدامي» كرّر. رنّة صوته في آخر الكلمة تشي بعلامة تعجُّبٍ كأنّه يقول: يا لوقاحتهم!

في تلك الليلة يا غزّة حلمت بأنّي أهرول في البيت وأعوي. أقفز من سجّادةٍ إلى أخرى. أتمرّغ على الكنبة. أقفز من جديدٍ لأقف أمام النافذة. أنكس ذيلي وأعوي. في المنام كنت أعرف من أنا لكنّي لم أفهم كيف صرت كلبةً وما سبب هيجاني وعوائي. انقطع المنام فجأةً وصحوت وأنا أسعل وكدت أختنق.

في الصباح كان أثر فيصل ما يزال ساريًا. الفيديو نفسه يتمّ تداوله. عنوانٌ يعبر التايملاين «سأفكّر طوال حياتي بآلاف الأطفال الذين قُتلوا في غزّة». قلت: هذا منّا وفينا. لا. الإمضاء: بلينكن! القاتل المتسلسل تطارده صور أطفالك، مثلي!؟ منشورٌ آخر يُظهر بلينكن بشحمه ولحمه يقول: «الإسرائيليّون تمّ نزع إنسانيّتهم عنهم في 7 أكتوبر لكنّ هذا لا

يمكن أن يكون رخصةً لنزع الإنسانيَّة عن الآخرين... العائلات في غزَّة تعاني. إنَّها مثل عائلاتنا: أمَّهاتٌ وآباءٌ وأطفالٌ يريدون حياةً طبيعيَّة!»

صفِّقوا يا جمهور الصفّ الأوَّل على هذه اللحظة الدراميَّة. لا تصفيق. بصاق على الشاشات. المهرِّج لم يقنع أحدًا بدموعه. فشريط الخبر العاجل تحت صورته يقول: «الاحتلال يقتل 5 آلافٍ من أجنّةٍ لم تزرع بعد».

ثم يطلّ الخرِف ليلصق تهمة إبادتك بالسيسي: «رئيس المكسيك لا يريد أن يفتح معبر رفح لتوفير المساعدات الإنسانيَّة لغزَّة».

ويكتمل التهريج المقيت مع ظهور صاحب الأنف الطويل ماثيو ميلر الذي ما انفكَّ يجيب كلَّما سُئل عن ارتكاب المجازر بحقّ المدنيِّين: «إنَّنا ننتظر نتائج التحقيقات في ذلك... لا أستطيع الجزم.. نعمل مع الجهات المختصَّة لتحديد المسؤوليَّات حول هذه المزاعم...»

هذا المخلوق يستعدّ جيِّدًا لمواجهة الصحفيِّين، يتأنَّق ويمشِّط كلّ شعرةٍ في رأسه كي لا تفلت أيّ واحدةٍ عن الصفّ. ينعِّم ذقنه ولعلَّه يقشط لسانه أيضًا لكن لا حول له ولا قوَّة له مع عينَيْه. تخالين أنَّه اغتُصب في طفولته وبقيت عيناه متحجِّرتَيْن بالهلع إلى الأبد، وفقدتا القدرة على تحريك الرموش. إذا سُئل عن ضحايا الإبادة قال: ندعو «إسرائيل» إلى تقليل الخسائر في صفوف المدنيِّين. يعني اقتلوا مدنيِّين، ولكن ليس إلى هذا الحدّ!

هل تسنَّى لك متابعة سجالاته مع سعيد عريقات؟ هذا الصحفيّ الفلسطينيّ أيقظ لدى ميللر كلّ كوابيسه، فكاد أن يناديه حماس بدل سعيد! وها هو يحذِّر الآن من اجتياح رفح لأنَّها «ستكون كارثةً على المدنيِّين ولن ندعمها».

لا. ليست صحوةٌ هذه التي انتابت كلّ واحدٍ من هؤلاء القتلة! بل شيءٌ يشبه الاضطراب العصبيّ مع تفكُّك الصمغ السرديّ لأكاذيبهم المتواصلة. سيسعفهم مجلس النوّاب الأميركيّ بردّ الاعتبار لعنادهم الإجراميّ فيصوّت بالإجماع على إدانة هتاف من النهر إلى البحر.

وتحت ضغط الترويج الكثيف لاستعدادات الاقتحام البرّيّ لرفح، سيتزحلقون على عمود التعرّي. «غزَّة 2035» عرض ستريب تيز لإغرائك بالانقلاب على تناحتك فتتوقَّف الإبادة.

ثمّ يصرخ فتى كساه غبار الأنقاض: «إحنا غزَّة». بذراعه المرفوعة يشقّ الرماد. يردِّد خلفه الشيوخ والنساء: «نموت ولا نستسلم».

لا حلّ معك يا غزَّة! ولا حلّ مع فلسطينيٍّ يعرف على ماذا يتنّح. هل سمعت آخر خبرٍ عن الأسيرة المحرّرة وفاء جرار؟ يا ستّي أنا هنا لأخبرك عمَّا فاتك وأنت تهرعين من نفقٍ إلى خيمةٍ إلى شاحنة مساعدات... آخر خبرٍ يقول إنَّ محامي جرار، تقدَّم بطلبٍ عاجلٍ باسم عائلتها إلى المسؤولين الصهاينة للمطالبة باسترداد ساقَيْها المبتورتَيْن من أجل دفنهما حسب الشريعة الإسلاميَّة. هكذا قرأت الخبر. مبتورًا من سياقٍ يوضِّح القضيّة. بحثت عن الحكاية من أوّلها. فتبيَّن أنَّ «جرار» حين اعتقلت أصيبت في انفجار عبوةٍ ناسفةٍ خلال نقلها في جيب عسكريّ. وعندما أُطلق سراحها كانت فقدت ساقَيْها بعد عمليّتَيْن جراحيّتَيْن في أحد مستشفيات الصهاينة. مطالبةُ المحامي باسترداد ساقَيْها جاءت بعد تلقّيه ردًّا شفويًّا من أحد الأطبّاء أنّه تمّ التخلُّص من الأطراف. فقد خضعت جرار لعمليّة بترٍ تحت الركبة لساقَيْها بموافقةٍ من العائلة، لكنَّ عمليّة بترٍ أخرى أجريت لساقَيْها فوق الركبة من دون موافقة العائلة!

بأيِّ منظارٍ نقرأ هذه الحكاية؟ وكيف نعلّل الإصرار على استرداد الساقَيْن المبتورتَيْن؟

طيّب قولي لي بأيّة أعصابٍ سنتعامل مع من يحتفي بفوز صورتك حاضنةً جثّة طفلةٍ في كفنٍ أبيض، لقب صورة العام في الصحافة العالميَّة. مباركٌ يا غزَّة اللقب «العالميّ». ستُلهم الصورة روَّاد الموضة ويوظِّفونها لترويج أزيائهم لشتاءٍ دافئ! سيغضب الجمهور شرقًا وغربًا! وستعتذر دار الأزياء عن حملتها الإعلانيَّة و«تأسف» لحدوث «سوء فهم». نجح الغضب وأثمر. عظيم.

في اليوم نفسه أو ربّما قبله بأيّامٍ ما عدت أذكر... صمّم محبّوك وتداول مناصروك من وراء الحدود غلافًا طبق الأصل عن أغلفة مجلَّة تايم الأميركيَّة المخصَّصة للإعلان عن «رجل العام». الهدف من الحملة: المجاهرة بحقّ صحافيّيك بهذا التكريم وهذا اللقب!

حسنًا. لو افترضنا أنَّ المجلَّة غابت عن وعيها العنصريّ في لحظة غفلة، وقرَّرت فجأةً أن يتصدَّر صحافيُّوك غلافها، هل سيضفي ذلك هيبةً أكبر على إنجازاتهم!؟ وهل سنحتفي بهذا التكريم الآتي ممَّن حجبوا الحقائق واستمرُّوا في تبرير مجازر الاحتلال رغم الإجرام المفضوح؟ وكيف نفكِّك الاحتفاء بصورة العام!؟ لن تكون كصورة طفلة النابالم التي يقال إنَّها ساهمت في إنهاء الحرب على فيتنام! تعرفين ذلك تمامًا وتعرفين لماذا.

بعض المتحمِّسين الخائفين عليك تداولوا الصورة الفائزة كأنَّها انتصار! أفهم حرقة القلب. لكنَّ اللقب ليس اعترافًا بالإبادة! ولا إدانةً لها. صورة إيناس أبو معمّر مع ابنة أختها سالي تمثِّل لرئيسة لجنة تحكيم

الجائزة «رسالةً حرفيَّةً ومجازيّةً حول رعب الصراع وعدم جدواه، وتقدّمُ حجَّةً قويَّةً للسلام».

«عدم جدوى الصراع»! كأنَّه مشادَّةٌ بين جارَيْن! وعن أيِّ سلامٍ تتحدَّث السيِّدة!؟

كلّ لقطةٍ وصورةٍ ومشهدٍ التقطه صحافيٌّ من أبنائك يستحقّ عليها كلّ التقدير ممَّن يسعى إلى وقف هذه الإبادة لا لأنَّ «الصراع غير مجد» بل لأنَّه ضروريٌّ طالما هناك احتلال! ولا سلام ننشده من دون زوال الاحتلال. نقطة.

من حيث يدرون أو لا يدرون، يستمرّ البعض في استجداء اعتراف الغرب بنا، وهو الذي أوضح بشكلٍ سافرٍ عن رغبته في محونا عن خارطة الوجود. مشاهير غربيُّون رموا الجوائز في سلَّة المهملات لأنَّ مانحيها يؤيِّدون إبادتك. منظَّماتٌ ودور نشرٍ عالميَّةٌ سحبت جوائز سابقةً من يد من يعلن دعمه لك الآن. وثمَّة من يريد أن تكرِّم مجلَّة تايم صحافيِّيك!

أنحرِّر الأرض أوَّلًا ثمّ العقول؟ أم العكس؟

طفلك ميسرة يطبطب عليّ. يطلّ كغيمةٍ فالتةٍ من سربها. يحمل أكواب الشاي والقهوة وبيدَيْه الصغيرتَيْن يقدِّمها لصحافيّيك. «إنَّهم يتعبون لكي ينشروا أخبارنا، يتنقَّلون تحت القصف لينقلوا الحقيقة. إنَّهم يقدِّروننا».

لميسرةَ قلبٌ بوسع العالم. ألا يكفي؟

ما زال ميسرةُ كاملَ الأطراف. ولا ندري إذا كان سينضمّ إلى أكبر مجموعة أطفالٍ مبتوري الأطراف في التاريخ، أم سيموت من التجويع أو

من الأوبئة. نخاف عليه من الأضواء. ومن زنّانةٍ ترصد كلّ «إرهابيّ» تنح لا يخاف.

من يقول لميسرةَ إنَّ الأرض لم تشهد عصرًا مخيفًا إلى هذا الحدّ؟ من يُخبره عن الحروب التي لم تُرَ ولم توثّق بصورٍ حتّى أوهمتنا أنَّها لم تكن؟ من يُخبره عن الثراء الفاحش الذي تغدقه إبادتك على المتسابقين في ماراثون التسلُّح؟

تأمَّلي هذا الرقم يا غزَّة: 2443 مليار دولارٍ بلغ الإنفاق العسكريّ العالميّ في العام 2023 وهو أعلى مستوى في التاريخ بحسب معهد ستوكهولم الدوليّ لأبحاث السلام. المعهد يضيف إنَّ العالم يحتاج إلى 1500 مليار دولارٍ فقط للقضاء على الفقر.

القضاء على الفقر لم يكن يومًا أولويَّةً في أجندات الأمم. تطوير أسلحةٍ خارقةٍ لتحصينات الوعي أجدى بكثير. أسلحةٌ خفيفةٌ وناعمةٌ تضمن تنقُّلًا آمنًا لفريق عمل الإبادة، حتّى لو واجهته جبالٌ حفرت قممها بالتناحة نفسها التي حُفرت بها أنفاقك.

أسوأ ما في كوابيسنا لم يحدث بعدُ يا غزَّة!

أوقِفوا نسلَ الأحلام. كَثُرَ الروث وانبرتْ زهرةُ الأزمنة.

على صدر كلٍّ منكم زهرة الزمان. أحار كيف أسمِّيكم!

وديع سعادة

اليوم عُلِّق على خشبة. ابن العذراء طُعن بحربة. كنت أسمع هذه الترنيمة بصوت فيروز من فيديو قديمٍ على يوتيوب. وصلني إشعارٌ جديد. تركت فيروز جاثيةً تصلِّي للمصلوب وفتحت الرابط. صبيَّةٌ بثوب الرهبنة تقول لمجموعة أطفال: «في الجنوب أطفالٌ يقولون: لا أحلام لدَيْنا إلَّا أن نحرِّر أرضنا. اليوم بدنا نصلِّي للجنوب ولأطفال الجنوب ولأهالي الجنوب ولأمَّهات الجنوب ولرجال الجنوب، رجال المقاومة في الجنوب. وقولوا soeur مايا قالت».

الفيديو ينتشر على المواقع كلّها. أهالي الأطفال يثورون: «مايا زيادة تغسل أدمغة أطفالنا. تمارس عليهم الإرهاب الفكريّ».

أعود إلى مايا لأصغي إلى إرهابها:

«إذا نحن ما صلَّينا لهم وما أحببناهم بغضّ النظر عن شو منفكر، منكون خونة بحقّ أرضنا وبحقّ الوطن وبحقّ كلّ كتاب منفتحه ومنقرأ فيه. نطلب من العذراء أن تحمي شبابنا وأولادنا ووطننا لأن عم بيمرق بمحنة كثير صعبة وما في غير المحبَّة والتعاضد بيجمعنا ويقوّينا ويوحّدنا».

تتدفَّق أخبارٌ عاجلةٌ حول الفيديو. أرباب الكنائس والحروب الأهليَّة يطلّون برشّاشاتٍ ثقيلةٍ وبلا كاتم صوت. أقرأ التعليقات.

«لو أنَّها لم تذكر رجال المقاومة لسلمت من الرجم».

«استفزَّت شريحةً واسعةً من اللبنانيِّين الذين يبغضون الحروب».

المدرسة تعلن أنَّ الأخت مايا زيادة ليست من طاقمها التعليميّ.

أصدقاء يهاتفونني سائلين عن الفيديو وفحواه والضجّة المثارة حوله. لم أردّ. بماذا أردّ. تعلَّمنا أنَّ الصوم ليس عمَّا يدخل الفم، بل عمَّا يخرج منه. لن أشتم. يُقال إنَّ الآلام حين تتكدَّس لا يجوز تحريكها كي لا تزيد وطأة الأوجاع. تمامًا كما تسوء حالة المريض إذا حرَّكناه من مكانٍ إلى آخر.

مئةٌ وخمسةٌ وخمسون يومًا وأنت تبادين مقبلةً على الشهر الفضيل بجوعٍ مستدامٍ وأطرافٍ مبتورةٍ وحين مدّ الجنوب أطرافه ليسندك عضَّتها أنيابٌ مسنَّنةٌ بأحقادٍ مزمنة.

«الأسبوع الماضي حكينا كيف أنا بعمل وطن إذا ما بعرف حِبّ». هكذا استهلَّت مايا رسالتها إلى الأطفال قبل أن تدعوهم إلى الصلاة للجنوب وأهله ورجاله. خطيئةٌ عظمى ارتكبتها الأخت مايا في حديثها

عن حبّ «من لا يشبهوننا. من جلبوا لنا الدمار والإفلاس والأفكار المسمومة. من ينطقون بالشهادة لإلهٍ ملتبس الانتماء يشجّع على القتل في سبيله».

الحبّ أعمى يا مايا. والكراهية أيضًا عمياء. والعميان لا يعيشون في الظلام، بل في هالةٍ ضوئيّةٍ كما علّمنا ساراماغو. عميانٌ يقولون: أولادنا «أبناء الحياة. لبنانُنا وطن الحياة. لبنانُنا رسالة سلام». سئمنا الحروب والقتل. نحن لا نريد أن نقاوم إلّا الشيخوخة. كلّ مقاومةٍ أخرى تقتل جيناتنا الفينيقيّة التي نشرت بذور الحضارة في كلّ المعمورة.

لك حروبك يا غزّة ولنا حروبنا. أنت متهوّرةٌ تغامرين بأطفالك بنسائك بشبابك ونحن نحمي فلذات أكبادنا من كلّ ضيمٍ ونوضّب لهم حقائب السفر ونؤمّن لهم جنسيّاتٍ بديلةً لينعموا بما حُرمنا منه: السلام والأمان. الانتماء إلى الأرض يعني أن نتركها تتخفّف من أثقال معاركنا الوهميّة أو المأجورة والمموّلة من الخارج. لا نريد لراهبةٍ أن ترهب أطفالنا بأفكارٍ سوداويّةٍ وتزرع فيهم حبًّا مختلفًا عمّا ألفوه في بيوتنا وأحيائنا الصغيرة. نحن نجهد في تعليمهم كيفيّة تجنُّب الألم. لا نريدهم أن يتعلّموا كيف يقاوموه. نحن فقط من يحقّ له تربيتهم بما أوتينا من خبراتٍ وتجارب مع الآخرين على أرضنا. أنت يا مايا لم تعيشي ما عشناه. صغر سنّك لم يتح لك معايشة اقتتالنا من خلف متاريس آلهتنا التي زوّدتنا بكلّ أسلحة الدمار الذاتيّ، فسلمنا من الإبادة بمجرّد إنكار حصولها والعفو عن مرتكبيها!

سيُكتم صوت مايا. وستهدأ الزوبعة. أو سأبتعد عنها أنا لأتابع أيّامك الرمضانيّة وصومك المستمرّ عن الخبز والماء والدواء. كلّ ما

فيكَ يرتفع إلى أعلى: الركام، الأدعية، الصرخات، الأجساد. وكلّ ما فينا يهوي بلا ارتطامٍ وبصدى يصمّ الآذان.

«شيءٌ كبيرٌ سيحدث». أعود إلى ترنيمة فيروز الجنائزيّة لأسكت هذا الصوت مشبوه الأصل. أهذا صوت الأمل أم الخوف؟ للأمل طبيعةٌ إيمانيّةٌ ترسم قوس قزح لم يولد بعد. ليس للأمل معلوماتٌ يقيس بها ما سيأتي. لا ينمو على قاعدة المعرفة بالمستقبل أو بناءً على معطيات الحاضر وسياقات الماضي. لن نحتاج لا إلى الأمل ولا إلى الإيمان إذا كنّا نعلم ما سيحدث ونتأمّل الأحداث ونستنتج خواتيمها.

«شيءٌ كبيرٌ سيحدث»، تعلق على لساني كقطعة ثلج. أهو صوت الخوف؟ مرَّ أكثر من نصف عامٍ ونحن نشهد لأوّل مرّةٍ في التاريخ من يريد للحاضر أن يغيّر الماضي، وأن يدين الضحايا على نزفهم، وأن يقتلوا طير الثأر الخارج من هاماتهم صائحًا اسقوني اسقوني.

على المرايا أغطيةٌ سوداء. وأصواتٌ تقول: لا نريد أن نموت بعد الموتى. لا نريد لمرايانا أن تكون معبرًا للشياطين إلى بيوتنا. لا نريد لأرواح الموتى أن تنظر في مرايانا فتحاصَر فيها ولا تكمل طريقها إلى الجحيم! لا نريد لمرايانا أن تكشف للموتى جماليّات الحياة، قد يغيّرون رأيهم ويعودون إلى الحياة ونحن لا نريدهم أن يشاركونا لا الأرض ولا السماء.

أسدلوا الأغطية الأكثر سوادًا على كلّ المرايا وليستمرّ هذا الطقس أيّامًا وأسابيع وأشهرًا حتّى يعبر الموتى إلى حيث يستحقّون أن يكونوا، وحتّى تسلم مرايانا من أطيافهم.

أغمضت عينيّ. لا لأغفو، بل لأمحو السواد... فرأيت الطبشور.

صغارًا، كنّا نتسابق لنظفر بالممحاة. كانت تثيرنا آثار الطبشور على أصابعنا، على وجوهنا، على شعرنا. نضغط على الممحاة أكثر فأكثر لنخفي كلّ أثرٍ للمكتوب. من يترك ظلال الحروف ظاهرةً بعد المحو لا يعوَّل عليه مرّةً أخرى. شمالًا ويمينًا من أعلى إلى أسفل أفقيًّا وعموديًّا نجهد في الضغط على الممحاة. يتناثر الطبشور مع الكلمات والحروف والرسوم. في المقاعد يتفرَّج علينا البقيّة يسخرون من عملنا غير المحترف، وآخرون يدلّوننا إلى زوايا لم نصلها بالممحاة ليحرصوا على أن ننجز المهمَّة بالنيابة عنهم وباحترافٍ كامل.

كنّا نمحو ونحن على يقينٍ أنَّ غدًا أو بعد ساعةٍ سيمتلئ اللوح من جديدٍ بالحروف والكلمات والرسوم. لكنّنا لا نفقد شهيَّتنا على المحو من جديد. نتبرَّع لهذه المهمَّة التي لا يجرؤ كثيرون عليها حرصًا على نظافة مراويلهم ومظهرهم. أمَّا نحن فالطبشور يكسبنا شرف التبرُّع بالمحو. شرفٌ أبيض. قد تتبدَّل الفرقة المنذورة للمحو. قد يتقاعس بعض أفرادها. قد يتكاسل البعض الآخر. لكن غواية المحو أقوى من أن تفقد عشّاقها. المحو مغرٍ إغراء القوّة، عنيف. قاس. أعمى. مشغولٌ بفعل المحو قدر عشقه للفراغ. فمن يمحو لا يعلم بالضرورة ماذا يريد أن يقرأ وماذا يجب أن يُكتب.

لا أذكر من القائل إنَّ العبقريَّة ليست سوى قدرةٍ عظيمةٍ على الصبر. ناقصة عبقريَّةٍ أنا لأحتمل حفلة المحو المسعورة في لبنان! أستنجد بك. أتأمَّل أطفالك يبيعون العصائر والقهوة وسط الركام. ظمأٌ وجوعٌ وتشرُّد. أحملق في وجه طفلك أحمد بربخ مشويًّا من الشمس

ويداه تعفران في الركام. كم عمره؟ تجاوز العاشرة بقليل. يتجوَّل بهامته الهزيلة بين أنقاض المنازل في خان يونس. يجمع الحجارة من المنازل المهدَّمة ويفتِّتها ويملؤها في دلوٍ ليبيعه مقابل شيكلٍ لعائلاتٍ تحتاج إلى بناء قبورٍ لشهدائها!

سطوح منازلك تطالعنا على كلِّ الشاشات مزروعةً بالملوخيّة والقرع والباميا. في حوض استحمامٍ أو على السطح وتحت أعين الطائرات ينمو الأخضر وسط غبارٍ ورمادٍ وشهبٍ فوسفوريّة. لن تموتي جوعًا طالما الأخضر ينبت.

سبعة عشر عامًا من الحصار ورقابةٌ مشدَّدةٌ كي لا تدخل أرضك بذرةٌ لأيِّ أخضر. ممنوعٌ عليك سماد الأرض وسماد الروح. الكزبرة محرّمةٌ عليك كما الكتب وأقلام التلوين وآلات الموسيقى وأواني الزهور الفارغة! جون كيري أعرب عن دهشته لمنع الاحتلال من إدخال المعكرونة إليك، فأتت الرحمة وفكّ الحصار عن المعكرونة. هآرتس تساءلت عن سبب حرمانك من الكزبرة! حتّى الآن لم نعرف سرّ هذا الحقد على نبتةٍ تحتوي موادّ مضادَّةً للأكسدة تساعد في محاربة الالتهابات وتعزيز المناعة ومحاربة السرطان. هل لأنَّ الكزبرة تحسِّن الذاكرة وتقلِّل أعراض التوتُّر؟

في 2018 زادت قائمة الممنوعات: رضّاعات، حِفاضات، صابونٌ وفساتين أعراس. هل نحتاج إلى تفسير الأسباب الكامنة وراء منع تلك المنتجات؟ آخر شروط الحصار كانت في العام 2021 ألّا يسمح بانتقال البندورة من أرضك إلى أرض الضفَّة إلَّا بعد إزالة العنق الأخضر!

العنق الأخضر يقطع الآن. يرى العالم ذلك الأب حاملًا جسد طفله الشهيد، أين رأسه؟ ثمّة من يبحث عنه في الركام. تدحرج الرأس

إلى حضن شهيدٍ آخر واستقرّ بين قدمَيْه، أم تناثر فوق الجثث المحترقة حتّى تفحم؟

هي رؤوسنا التي باتت تطير. ليس ممَّا نراه فقط، بل بما نتخيَّله وراء خبرٍ بلا صورة. لم نصحُ بعد من صدمة اغتيال هند رجب وأفراد عائلتها وفريق المسعفين. رسمنا ألف صورةٍ لليلتها الأخيرة، كم عطشت كم دقَّ قلبها في الدقيقة الواحدة، كركرت معدتها من الجوع هل تقيَّأت من رائحة الموتى في السيَّارة، ما هو آخر صوتٍ سمعته؟ متى فقدت الأمل بأن تحقّق أمُّها وعدها لها؟ هل غفت قبل أن تستقرّ ثلاثُمئةٍ وخمسٌ وثلاثون رصاصةً في جسدها؟

كأهالي القرون الماضية في ساحات الإعدام، نقف أمام شاشات الإعدام الجماعيّ. همهمات، أصداء أنين، تمتمات شتيمةٍ أو صلاة، إغماض العيون أو فنجلةٌ عند نزول السيف على العنق، أو عند ركل المقعد الخشبيّ تحت الجسد المشنوق، وتعلو الشهقات بعد ترجرج القدمَيْن وسكونهما الأبديّ.

ولا نكاد نتفرَّق عن الساحات الافتراضيَّة حتّى نتجمَّع فيها من جديد. فها هي بطلةٌ أخرى ترفع رؤوسنا المنكّسة. مريم بنت جباليا كانت تأوي مع عائلتها في مدرسةٍ حين سمعت هتاف أبٍ أصيب ابنه ولم يستطع الوصول إليه. هرعت مريم لإسعافه غطَّت جرحه بمنديلها وحين همّت بالعودة أصابتها رصاصة قنّاصٍ في ظهرها. وكي يضمن القنّاص شللها التامّ ألحقها برصاصتَيْن في البطن فاستشهدت.

لن تنجو مريم مثلما نجت الدكتورة العسولي. ولن تدفن أيضًا. فالقصف على المدرسة لم يتوقَّف حتّى إحراقها بالكامل. لن تحترق

حكاياتها. ستشتعل مع كلِّ شمسٍ جديدة. سنذكر مريم مع كلِّ رغيف خبز. هي التي خبزت في اليوم السابق لاستشهادها. وزّعت الأرغفة على النازحين. بقي علينا تناول هذا الخبز كقربانٍ يوميٍّ تكفيرًا عن خطيئتنا المميتة بالتفرُّج المستدام عليك.

أخضرُ لون الجرح في تربة القلب يا غزَّة. «جرحٌ أخلاقيّ» يسمِّيه غابور ماتيه. أتمنَّى أن تبقى قلوبكم مكسورةً يقول لنا، لأنَّها دليلٌ على أخلاقكم وإنسانيَّتكم. ويواسينا قائلًا: لا تصدِّقوا أنَّكم فشلتم في وقف الإبادة. لم تفشلوا في كلِّ ما فعلتموه... صحيحٌ أنَّ توقيع العرائض والمشاركة في المظاهرات لم ينقذا إصبع طفلٍ في غزَّة، لكن لا تدعوا اليأس يتمكَّن منكم فلدَيْكم مهمَّة نقل الحقيقة وفضح الأكاذيب.

يأسنا خيانةٌ لك يا غزَّة. والتعافي بعدك خيانةٌ أكبر.

«التعافي بعد غزَّة» عبارةٌ تطالعنا بين مجزرتَيْن. «خبراء التنمية الذاتيَّة» قلقون علينا من وباءٍ أو من تعلُّقنا بشخصٍ نرجسيّ! عادوا إلى نشاطهم بعدما سدّت دماؤك ينابيع رزقهم.

«من قال لكم إنَّنا نريد التعافي بعد غزَّة أو التعافي من غزَّة؟!» يصرخ آدم من صفحته الانستغراميَّة. «ألم نقل إنَّ غزَّة غيَّرتنا وغيَّرت العالم؟؟ نحن أوفياء لهذا التغيير وسنظلّ مصابين إلى الأبد بهذا العشق والجنون والتمرُّد، سنظلّ مصابين بذاكرة الشهداء وذكرياتهم ولحظاتهم الأخيرة. سنظلّ مشتعلين بالغضب، والحقد، والحزن، والابتهاج. وعندما يحين الوقت سنجمع كلّ هذه المشاعر ونصهرها معًا ونبتكر شعورًا واحدًا جديدًا وسنطلق على هذا الشعور اسمًا جديدًا أيضًا. ربّما نسمِّيه هند أو عدنان أو يوسف أو رفعت أو ماريا، وربّما نبحث في قلب

الأرض عن أسماء المقاتلين أو أسماء أحبّتهم، وربّما نسمّيه غزّة هكذا بكلّ بساطةٍ وبكلّ عظمة، المهمّ أنّنا سنظلّ عالقين فيه إلى الأبد».

حين دخل البيت في المساء واقترب ليعانقني طارت أسراب غربانٍ من حولي. عانقته. تمنّيت لو يتحوّل إلى حوتٍ فيبلعني وأختفي فيه.

«الوضع بيخوف» همست له. ما هكذا تستقبل امرأةٌ زوجها بعد يوم عملٍ طويل. تماسكي يا بنت. ما هكذا تشكين لفلسطينيٍّ هواجسك.

أذعنت لتأنيبٍ أشبه بكلمات أمّي. تركته يدخل الغرفة ليخلع عنه أثقال اليوم. ورحت أرتّب المائدة وأفكاري لأقدّم له مختصرًا عمّا قرأت من تحليلاتٍ وما استنتجت من الأخبار على مدار الساعة.

«شيءٌ كبيرٌ سيحدث» قلت. لم تكن نبرتي كتلك التي يكتسيها صوت «خبيرٍ استراتيجيّ». أو ربّما كانت كذلك. سحب كرسيّه ليجلس. هاتي لشوف. ماذا سيحدث.

أتعرف سهرات النار التي كنّا نقيمها في الكشّافة؟ لم تكن دائمًا تنتهي على خير. إمّا أن يتعارك بعض الأعضاء مع سواهم على غفلة من قائد المخيّم، وإمّا أن يعبث أحدهم بالنار فيتأذّى ويؤذي سواه.

لم تكن مقاربةً ذكيّةً منّي لقول ما أريد. ولم تقع هذه الأحداث لا في طفولتي الكشفيّة ولا قرأتها في أيّ مكان! غيّرت المقدّمة.

ـ لبنان يا آدم... الوضع بيخوف.

ـ معليش... فليحدثوا ما يشاؤون من فوضى، هذه الجعجعة دليل أزمة العاجز، كلّما شعروا بتضاؤل أحجامهم أمام هامات الرجال التي تشرق في الجنوب سيعلو صراخهم أكثر.

ـ لا تعرف لبنان مثلي. هذه المرَّة ليست جعجعة.

ـ ركِّزي عالميدان... هذه المرَّة صار واضحًا لدَيْهم أنَّ المبادرة ليست بأيديهم.. العشا طيِّب حبيبتي... كُلي...

لا يريد أن يسمع نُواحي. هاتفه شغَّالٌ بصوتٍ خفيفٍ لنشرةٍ تختصر أحداث اليوم.

ـ كتبتِ اليوم؟

ـ قرأت رواية العمى للمرَّة العاشرة!

كذبت. وكي أطيل حبل الكذب، حملت هاتفي لأفتح ما دوَّنته قبل عامَيْن حين قرأت الرواية.

اسمع قلت. «في اللحظة التي عمينا فيها، أعمانا الخوف، وسوف يبقينا الخوف عميانًا.... العميان في حالة حربٍ دائمة... قل لأعمى أنت حرٌّ افتح له الباب الذي كان يَفصله عن العالم، وقل له ثانيةً اذهب فأنت حرّ، لن يذهب، سيبقى في مكانه وسط الطريق هو والآخرون، مرعوبين لا يعرفون أين يذهبون».

ـ جميل.. صحيح.. تمامًا...

ـ هيدا لبنان. الحالة وسخة كثير...

ـ شوفي... هيدي المرحلة مرحلة فرز. الوسخ من النظيف. الصح من الغلط.. الاصطفاف فيها واضحٌ وبدون لبس، الشرفاء يصطفُّون والعملاء يصطفُّون في المقابل... انتهينا من زمن المساومات والمقايضات من أجل التعايش بين مشروعَيْن متناقضَيْن.. ماذا جنينا من هذا التعايش سوى التأجيل.. تأجيل المعركة تأجيل الاستحقاق إلى متى؟.... كلي حبيبتي...

ـ كأنَّك تأخَّرت اليوم... الآن انتبهت...

ـ اليوم أوصلني سائقٌ بنغاليّ. عندما عرف أنّي فلسطينيٌّ رفض أخذ أجرته. استأت... شكرته على لطفه لكنَّه أصرَّ وقال: تبرَّع بها لغزَّة. جدالنا استغرق بعض الوقت...

ـ ولماذا استأت؟

ـ كنت قد عاهدت نفسي ألّا أكشف عن جنسيَّتي للسائقين... أكره التعاطي معنا كأنَّنا متسوّلو إنسانيَّة.

ـ هذا هو المطلوب أصلًا... وكثرٌ يفعلون ذلك عن وعيٍ أو عن جهل.

كنت أجلس قبالته كالبطّة. ساكنة الملامح، جزئي العلويّ هادئٌ وما من ماءٍ تحتي كي أخفي حركة قدميّ السريعة.

ـ مالك حبيبتي؟ ليش متوتِّرة؟

ـ لماذا لا تحترق تل أبيب كما تحترق غزَّة ولبنان!؟

كعادته بدأ يلملم نوى الزيتون وبقايا عشائنا ويرصف الصحون بعضها فوق بعضٍ ويجمع ما يجب رميه في كيس. تلك لحظاتٌ أحبُّها. أو كنت... أشاكسه ويشاكسني. يغلبني أحيانًا وأحيانًا أخرى أمنحه غبطة الفوز بالسباق لرمي القمامة.

الآن لست في هذا المزاج. وقفت كقطّةٍ بظهرٍ مقوّس. بدا لي رأسه كجرس كنيسةٍ في بحر الأسبوع. وأنا أريده أن يقرع... غضبًا أو حزنًا أو إيذانًا بحريقٍ أو دعوةً إلى معموديَّة...

ما بكْ؟ ردّ عليّ!

حبيبتي... تل أبيب تحترق منذ السابع من أكتوبر ومعها العالم كلّه.. هذا الاحتراق لن يتوقَّف لكن علينا رصد اتِّجاهاته جيِّدًا... ثقي بأنَّ الأمور ستكون بخيرٍ ولا عودة إلى الماضي المخزي...

أفلتت من عناقه كطفلةٍ عنيدة. حسنًا... أتراهن أنَّ شيئًا كبيرًا وفظيعًا سيحدث لو بقينا على هذا المنوال؟ «إن هبْتَ أمرًا فقعْ فيه. فإنَّ شدَّة توقّيه أعظم ممَّا تخاف منه».

صرمتُ كيس النفايات. وناولته إيَّاه.

- أنا أتمنَّى حدوث شيءٍ أكبر... على هذا التناحر أن يبلغ أقصاه... عندها فقط يتحقَّق ما نريد... لكنَّ العبرة في النفَس الطويل والذكاء في إدارة المعركة...

لا نفسي طويلٌ ولا ذكائي يسعفاني لإدارة هواجسي. «شي كبير سيحدث» أتمتمها كيفما تحرَّكت. وسنمضي ليلةً أخرى في التنقُّل بين المحطّات الإخباريَّة، وسنبحث عن آخر الكمائن، وآخر تعليقات الصهاينة، وآخر أعداد شهدائك... سينزوي في كنبته ليكتب منشورًا. لن أقرأه. سيتحكَّم بي سُعالٌ وأكاد أبصق قلبي. أتمنَّى. فهو يطرق على صدري بإلحاح منْ تحاصره الحرائق في غرفةٍ مغلقة. كدت أراه ينطنط أمامي ككرةٍ صلبةٍ منتفخة. سأمسك به وأعيده إلى صدري. سيطرق من جديد. وسأصغي إليه وسيرفعني إعصارٌ من الخوف ويرمي بي وسط عاصفةٍ رمليَّةٍ هوجاءَ وسأفقد بصري وأصبح عرّافة الكوارث مثل بابا مانغا.

أحدستِ مثلي يا غزَّة بأن يتدحرج كلّ شيءٍ كأنَّما الجبال قفزت وصار عاليها أسفلها؟

الحدس يحتاج إلى هدوءٍ وتأمُّلٍ وأنت فاقدةٌ للاثنَيْن.

في الأيام التالية سنشاهد مندوب الكيان لدى الأمم المتَّحدة يستعين بآلةٍ صغيرة، ليمزِّق نسخةً من ميثاق الأمم المتّحدة. «أنتم تمزِّقون ميثاق الأمم المتَّحدة بأيديكم. عارٌ عليكم! عارٌ عليكم أن تدعموا طلب فلسطين للحصول على عضويَّةٍ كاملةٍ بالأمم المتَّحدة».

لم يجبه أحد.

سنشاهد مندوب فلسطين مزهوًّا يقول: لم يسبق أن وقفت من أجل تصويتٍ أكثر أهمِّيَّةً من هذا اليوم التاريخيّ.

الأيَّام التاريخيَّة تحدث الآن: خيمك تحترق أمام عيوننا في رفح والنصيرات. أجسادٌ حيَّةٌ تشتعل أمام عيوننا. ستصرخ مستنجدةً ولا دلو ماءٍ نرميه عليها.

مفتوحي الأعين نستلقي وننام. ألم يقولوا لنا «كلّ العيون على رفح»؟ كان ذلك في أيار. ثمّ في حزيران «كلّ العيون على النصيرات» لنشاهد استشهاد مئةٍ وخمسين شخصًا. الصهاينة قالوا: حرَّرنا أربعة أسرى. أنت تقولين: قتلوا ثلاثةً ليحرِّروا أربعة.

هلّل المتابعون بنجاح شعار «كلّ العيون على...» وتمادوا في القول إنَّ الشعار أثمر إدراج «إسرائيل» على القائمة السوداء للأمم المتَّحدة كقاتلة أطفال.

كأنَّنا نشاهد حلقةً من مسلسل «قضايا باردة». يظهر دليلٌ جديدٌ على جريمةٍ مضت عليها سنواتٌ أو ترتكب جرائم جديدةٌ تعكس «نمط عمل» تتحدَّد به شخصيَّة القاتل. هكذا قرَّرت الأمم المتَّحدة إدانة قاتلٍ متسلسلٍ صال وجال ومزَّق أجساد الأطفال ومن خلَّفهم على مدى أكثر من قرن.

«إنسانيَّةٌ بليدةٌ وبطيئة الاستجابة» يكتب آدم. وأقرأ نصّه المنشور كأنَّها شهادة المقتول في قاتله:

«أنا لا أقلّل من أهمّيَّة وضع الكيان الصهيونيّ على تلك القائمة السوداء، فهذا يقرأ في سياق التحوُّلات الدوليَّة التي تسير ببطءٍ وتأخيرٍ مدان! لكن هل كان يجب أن تنتظر المؤسَّسات الدوليَّة أكثر من ستَّةٍ وسبعين عامًا لترى أنَّ هذا الكيان يقتل الأطفال والطفولة كلَّ يومٍ بشتّى الطرق؟ ستّةٌ وسبعون عامًا وهو يقتلهم جسدًا وروحًا وحلمًا، يقتل فرحهم ويحتلّ مساحات لعبهم وشقاوتهم، يُداهم نومهم وينتزعهم من فراشهم الدافئ ليلًا ليعتقلهم ويسرق منهم أجمل سنوات العمر. هل كان يجب أن يقتل الكيان خلال الأشهر الثمانية الماضية فقط أكثر من ستّة عشر ألف طفلٍ ويقطّع أجساد عشرات الآلاف، ويحرم عشرات الآلاف الأخرى من آبائهم وأمَّهاتهم وأصدقائهم وبيوتهم ومدارسهم، ليعترف العالم الرسميّ بأنَّ هذه جريمة؟ هل كان يجب أن تصل الجريمة إلى هذا الحجم حتّى تتحرَّك هيئة الأمم؟ ماذا عن إعدام طفلٍ واحدٍ في الشارع ببنادق ما تعتبرونه «جيش احتلالٍ رسميّ»؟ ماذا عن قصف وتقطيع أجساد عشرة أطفال، عشرين، مائة طفل؟ ألم يكن كل هذا كافيًا للاعتراف بالجريمة؟ ألم تُستخدم الأسلحة التي حرّمتها مؤسَّساتكم في هذه الجريمة منذ اليوم الأوَّل؟!

عذرًا سيّد غوتيريتش. عذرًا أيُّها العالم الرسميّ. لن نقول لكم شكرًا، فنحن لسنا مدينين لكم بشيء، بل الديْن عليكم كبيرٌ لنا ولكلّ حرٍّ من أحرار العالم.»

* * *

كأطفال الكنغر في جيوب أمّهاتهم، نتكوّر في جيبك يا غزَّة ونتفرَّج على غابةٍ وحشية. عيوننا لا تتَّسع لكلِّ هذا المشهد. «التصفيق للصفيق» كتب أحدهم ليسعفنا على اختزال لحظة العار العالميَّة. لم يمرّ شهرٌ على اعترافٍ أمميّ بـ«إسرائيل» كقاتلة أطفال، حتّى وقف الكونغرس الأميركيّ «برجالاته» يهنِّئ وكيله غير الحصريّ على نجاحه في تنفيذ إبادة القرن الجديد.

رحم اللّـه الصبوحة! «زقفة زقفة يا شباب»!

مع كلِّ تصفيقٍ للصفيق تتناثر أشلاء طفل. بين كلِّ تصفيقٍ وآخر تهوي مبانٍ وتشتعل خِيَمٌ ويحترق مستشفى.

كان السحرة في الماضي يستعينون بالتصفيق ليطردوا أو يستحضروا الأرواح. بالتصفيق يحوِّل الساحر امرأةً إلى غرابٍ أو حمامةٍ إلى قطَّة.

كان تصفيق السلطان إيذانًا ببدء وصلة رقصٍ أو افتتاح مأدبةٍ باذخة.

نيرون كان شغوفًا بالتصفيق. ويُقال إنَّه أسَّس أوَّل مدرسةٍ للتصفيق في التاريخ.

عادة التصفيق للنادل كي يأتينا بالفاتورة لم تَعُد رائجةً ومن يواظب عليها يدان!

التصفيق المتكرِّر يلزم الفنان، أيّ فنان، العودة إلى المسرح وتكرار الأغنية التي ختم بها حفلته.

التصفيق للصفيق لم يكن من نوع التصفيق الحادّ المتقطِّع الذي يشي بغضب جماعةٍ أو اعتراضها على سياسةٍ ما!

فكيف لا يحدث «شيءٌ فظيعٌ وكبير» بعد كلّ هذا؟ نعم حصل. اجتهدنا في إحصاء كم مرّةً تكرَّر التصفيق. اجتهدنا أكثر لنعود إلى تواريخ سابقة، فنقارن عدد مرّات التصفيق على مدار سنوات:

«في عام 1996، خطب نتنياهو في الكونغرس لمدَّة 40 دقيقة، وحصل على 19 مرّةً من التصفيق».

«في عام 2011 خطب أمام الكونغرس لمدَّة 46 دقيقة، وحصل على 59 مرّةً من التصفيق».

«في عام 2015، خطب لمدَّة 42 دقيقة، ليحصل على مثل سابقتها من مرّات التصفيق».

«في عام 2024، خطب لمدَّة 52 دقيقة، لكنَّه حصل على أكثر من 80 مرّةً من التصفيق بحفاوةٍ بالغة، منذ لحظة دخوله وحتّى مغادرته قاعة الكونغرس».

يا سلام على هذا الجهد العظيم.

خمسةً وخمسين دقيقةً دام خطاب النتن حفظت منه عبارةً واحدة:

«جئت اليوم لأقول: شكرًا أميركا، أعداؤنا أعداؤكم، معركتنا معركتكم، نصرنا سيكون نصركم».

اصفني معي يا غزَّة! ألا يستحقّ النتن كلّ هذا التصفيق؟ ألا يستحقّ أن نضمّ أيدينا نحن أيضًا ونصفّق لكلّ المصفّقين؟ فكلُّهم متَّحدون على قتل أعدائهم. من زمانٍ حدَّدوا أعداءهم وضمّوا أيديهم وأقسموا على إبادتهم. لم تنحرف بوصلتهم عن قِبلتها: نحن الهمجيُّون، المخرِّبون، السمر، الشهوانيُّون، المتطرِّفون، الإرهابيُّون.

حقيقةٌ مثيرةٌ للإعجاب. وكلُّ إعجابٍ يشكِّل دافعًا لمحاكاة المثال. لكنَّنا لم ولن نتمثَّل بهم. بل امتثلنا لهم. وبدل أن نغار من اتِّحادهم علينا، ونحاول «الارتقاء» إلى نموذج توافقهم الأزليّ الأبديّ لقتال أعدائهم، نختار مؤازرتهم في حروبهم المتتالية علينا!

علّلي يا غزَّة! كيف لا يقع أمرٌ فظيعٌ وكبيرٌ بعد كلِّ هذا؟ وكيف لا نحدس به؟ وماذا لدَيْنا لنستعدّ له أو نمنع وقوعه؟

بلى. ثمَّة من هو مستعدٌّ ويده على الصاروخ. لكنَّ التصفيق للصفيق لم يكن على ما حدث فحسب، بل على ما سيكون.

تسريباتٌ تقول: رؤوسٌ كبيرةٌ ستطير! هل الخوارزميات تقرأ مخاوفي فتعطيني ما يحاكيها؟ أقرأ العبارة في أكثر من موقع، فتغزو صورةٌ واحدةٌ مساحة وعيي.

تعبت. سأكمل لك الحكاية غدًا. الآن، سأنام.

لمَ لا يصغي أحدٌ منكم
حين أقول
اذهبوا إلى الحرب أو إلى الجحيم
فقط
أغلقوا الباب وراءكم.

بسام حجار

كنت طفلةً ألمحهم يقتربون بكلِّ عتاد الصيد. باسمين ينضحون عرقًا ونشوة. شيءٌ ما يترنَّح على خواصرهم. رؤوسٌ منكّسة. كلُّ رأسٍ تطوِّقه حلقةٌ معدنيّةٌ ومنها تتدلّى الأجساد متفاوتة الحجم.

يصلون عتبات بيوتهم. نساؤهم يسرعن إلى جلب الصوانيّ والأوعية المعبَّأة بالماء. يشمّرن عن سواعدهن استعدادًا للنتف. يفرزن البواشق عن طيور اللقلق والحجل وعصفور التين ويحمّسون الصغار على المشاركة في نتف الغنائم. الصيد موسمٌ لبنانيٌّ متكرّرٌ في الصيف والخريف. تعمّ الاحتفالات أرجاء القرى. يروي الرجال تفاصيل صيد كلّ عصفورٍ وموقع الإصابة: «سلختُه رصاصةٌ على قلبه، فرفر وخبط

بالأرض»، «أنا ضربت ثلاثة بواشق برصاصةٍ واحدة»، «الشطارة إنَّك تصيب الجناحَيْن وتقطفه قطف متل التينة المستوية».

وتشرئبّ أعناق النساء اعتزازًا بصيّاديهم الأمهر. ويرسلن قسمًا من الغنائم إلى أهلهم في بيروت. غنائم منتوفةٌ ومنظَّفةٌ وجاهزةٌ للشيّ أو القلي مع كأس عرقٍ ومواويل عتابا وميجانا.

كانت البواريد تنظَّف في الحال. وتُملأ الأحزمة برصاصٍ جديد. وتغسل السترات لرحلة صيدٍ قريبة. لم تتراجع هذه الطقوس رغم صدور قانون «ينظّم» الصيد البرّيّ ويحدِّد الطيور المسموح صيدها وتلك المعرَّضة للانقراض.

في آخر زيارةٍ لي إلى قريتي لم أسمع صوت الحساسين ولا عصافير الدوري، لا زقزقة ترافق دردشاتنا الصباحيَّة في الحديقة. صغارًا وعينا أنَّ العصافير وُجدت لنقتلها ونأكلها لا لنرسمها أو نصوِّرها. تعلَّمنا أنَّ هناك عصافير مستوطنةً وأخرى مهاجرة. كثيرٌ منها معرّضٌ للانقراض. ثمّ قرأنا عن تنظيم الصيد البرِّيّ لا عن حماية الطيور. عن مجلسٍ أعلى للصيد جلّه من تجّار الأسلحة، لا عن مجلس حماية الطيور. وبقي مصطلح موسم الصيد ثابتًا. ويمكن الصيد بالنقِّيفة فيتدرَّب الصغار على قتل العصافير ليرثوا بواريد آبائهم عندما يكبرون! سمعنا صرخات المزارعين عن تكاثر الحشرات بسبب تراجع أعداد الطيور. لم يجدوا حلولًا إلا في الإكثار من المبيدات. موسم الصيد يُفتتح كلّ عام. يلقّم الرجال بنادقهم وتعدّ النساء لحفلة النتف.

تطاردني اليوم العصافير المشنوقة وأصوات الرجال المجلجلة ببطولاتٍ أشبه بقتل التنّين! قرّرت الخروج من البيت. صوَّرت بهاتفي

الرقم التسلسليّ لوسادة آدم، واسم الشركة المصنّعة الذي امّحت بعض حروفه. جلت في مركزَيْن للتسوُّق بحثًا عن نسخةٍ طبق الأصل. وجدتها! عانقتها وعدت إلى البيت. ألبستها أجمل غطاءٍ ووضعتها بالقرب من أختها الكبرى لتتدرَّب نظريًّا على الأقلّ وتستعدّ لما ينتظرها.

في المساء، عقدنا قمّةً ثنائيّةً لبحث كيفيّة الانتقال من القديم إلى الجديد. واتّفقنا أن يحتفظ بالوسادة القديمة ريثما يروِّض الجديدة على هوى رأسه. كلّ ليلةٍ تتناوب الوسادتان كأنَّهما ضرَّتان. القديمة تغيظ الجديدة: أنا ولّادة بنات أفكاره. لن يتخلَّى عنّي. تردّ الجديدة عليها: سألد له أحلامًا لم تخطر في بالك يومًا أيَّتها العجوز المقعّرة.

عندما أصحو وأرى الوسادة القديمة مبعدةً ووحيدةً فوق مسند السرير أتفاءل. انتهت صلاحيَّتها. وفي صباحٍ آخر، أرى الوسادة الجديدة على المسند كضرَّةٍ لم تنجب وريثًا فأقول: سيروِّضها حتّى تذعن له. صبرًا.

مرّت الأيّام على هذه الحال. وفي يومٍ عاديّ من متابعتي للمجازر المتلاحقة، بعث لي آدم نصًّا، وطلب أن أتحقّق من أيّة أخطاءٍ فيه. تعجَّبت. في العادة يكتب وينشر مباشرة... ظننته نصًّا له علاقة بالعمل... فقرأت:

«أصعب أوجاعنا ليست المادّيّة منها، بل تلك التي لا علاج لها ولا مسكّن لآلامها المبرحة. قد تزورك فكرةٌ أو ذكرى في الليل لتؤرق نومك وتصلّبك على خشبة الوجع وكأنَّها ضرسٌ ملتهبٌ أو عظمٌ مكسورٌ تحت جلدك. هذه الأوجاع المعنويَّة إن شئتم غريبة التأثير، تتسارع دقّات القلب ويجفّ الحلق وتتحوّل الوسادة إلى كتلةٍ من الحجارة

الملتهبة تتبادل الاحتراق مع الذاكرة، سنواتٌ من العذاب المضغوطة في ثوان، آلاف الضربات على الرأس والمعدة وفي أماكن أخرى لم تكن تعلم بوجودها في أعماق ذاتك. رتابة الضربات تؤلم أكثر من الضربات نفسها. تشعر بأنَّ الروح تنسحق تحت وطأة أطنانٍ من الصور والمواقف والتحليلات والاستنتاجات.

نتوحَّد مع همومنا، نرتدي أوجاعنا كأنَّها جلدنا وعظامنا وشرايين دمنا الملتفّة فوق أعصابنا. ننام فيها ونصحو عليها كأنَّنا حطامٌ لدَيْه القدرة الذاتيَّة على إعادة التشكُّل كلّ صباح، وإعادة إنتاج ذات الوجع مع كلّ لحظة تأمُّل.

أحيانًا.. أكره هذا الوعي الذي يتواطأ مع الوجع فيصيِّره بكلِّ تفاصيله. لهذا العذاب قمَّته التي لا أعرف هل هناك بعدها أم لا. نحن لسنا متعبين بعروبتنا فقط، بل ومعذَّبين بإنسانيَّتنا ووعينا وقوميَّتنا وأخلاقنا وذكرياتنا الجميلة. معذَّبون بعقائدنا وقناعاتنا وأفكارنا وكلّ ما نؤمن به، معذَّبون بها لأنَّنا في لحظات التأمُّل نراها كأنَّها أطفالنا الذين يفارقون الحياة ببطءٍ شديدٍ أمام أعيننا، ولا شيء نملكه سوى العجز وصدى أصواتنا المتلاطمة في وادٍ خلا حتّى من حجارته.

لحظات التأمُّل هذه تكشف عن حجم المجزرة، وحجم الجثث وفظاعة الجريمة وحجم تواطئنا في قتل أجمل ما فينا وأجمل ما راكمته الإنسانيَّة في سياق تجربتها منذ نشأتها حتّى الآن. لحظات التأمُّل هذه تمتدّ بامتداد العمر وما يتَّسع فيه من مساحات وجع. ترى ما هو أكثر فظاعة؟ قتل إنسانٍ ورؤية جثَّته بكلِّ تجلّياتها المادِّيَّة، أم قتل كلّ القيم الجميلة في الحياة بالمعنى الوجوديّ المادِّيّ للجريمة؟

اللعنة هي المقدرة على رؤية الموت وهو يفترس كلّ هذا الجمال. وعدم الرؤية يعني بكلّ بساطةٍ أنَّ هذا الموت قد أنهى مهمَّته معنا وغادر يفتِّش عن مواطن حسٍّ جديدةٍ ليقتلها ويمضي».

ـ النصّ ممتاز.. لا أخطاء... لكنِّي أضفت الهمزات حيث يجب.

أرسلت له المنشور مصحَّحًا. وقبل إرفاقه بكلمتنا الختاميَّة: بحبَّك، فكَّرت أن أعتذر عن شراء الوسادة الجديدة... ثمّ قلت: صبرًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

هذي العقاربُ لا تدورْ،
ربَّاهُ كيف تمطُّ أرجلَها الدقائقُ
كيف تجمدُ، تستحيل إلى عصورْ!

خليل حاوي

«نحن بخير طمنُّونا عنكم» أكتب لأهلي وأصدقائي في لبنان. ما عادت تصلني مكاتيب من صديقاتي بحسب ما اتَّفقنا. اكتفينا بالتراسل على الواتساب وتبادل القلوب المكسورة والوجوه الدامعة. من لندن تسألني منى عمَّن يمكن الوثوق به للتبرُّع للنازحين. أتواصل مع لينا في بيروت فترشدني. نكثِّف اتِّصالاتنا ونبحث عمَّن نسلِّمه التبرُّعات باليد ليسلِّمها بدوره باليد إلى مراكز إيواءٍ محدَّدة، فنطمئنّ أنَّ حزام التوصيل الفوريّ لن ينقطع أو يغيِّر وجهته.

«الحياة طبيعيَّةٌ هنا» تكتب لي زوجة أخي. الزنّانات فوق رؤوسنا طوال اليوم... بس كلّ شي مكمّل عادي... القصف معروف وين... ويكتب لي أخي: راحت علينا...

طيِّب.. انتبهوا لحالكن. أضغط زرّ الإرسال لأختم المحادثة. يظهر أعلى الشاشة إشعارٌ من يوتيوب. أقرأ: (طلعنا على الضو. توزيع جديد وغناء جديد). أفتح الرابط. شفاهٌ منفوخةٌ وصوتٌ ناعمٌ وشعرٌ يتطاير ولا هواء في الغرفة: «طلعنااااا».... مكتوبة على الشاشة يُخرجها الصوت من الشفاه المنفوخة، مرَّة، مرَّتَيْن. ظننتها أغنيةً للأطفال. طلعنا على الضو نفرفش مع الفراشات؟؟ غلطانة. يكمل الصوت: «تحرَّرنااا» وتُطبع الكلمة على خلفيَّة مشهدِ لخصرٍ يتمايل ثمّ ذراعين مرتفعتين وكفّين تتعانقان بدلع... يعود الخصر إلى التمايل ثمّ الشفاه المنفوخة: يا حريَّة، يا زهرة نارية... أغلق الفيديو.

«توزيعٌ جديدٌ وغناءٌ جديد»! مجزرةٌ بحقّ أغنيةٍ كان صوت فيروز يحبس الحرّيَّة في بيت النار ويطلقها فتردينا جميعًا عشّاق حرّيَّة!

أفتح الفيديو لأقرأ التعليقات: «أبدعتي». «راءعة». «من أجمل ما سمعت في حياتي». «يا طفلة وحشية انتي».

لست مشتركةً بالقناة لكي ألغي اشتراكي أو على الأقلّ أُخرس جرس التنبيهات. ظهر الإشعار كاقتراحٍ من منظمة يوتيوب لأنّني أسمع فيروز باستمرار! واحترامًا لحريَّة الرأي تقدِّم المنظَّمة خيار قبول أو رفض الفيديو المقترح. ضغطت على خيار «لست مهتمَّة» وتجاهلت الإجابة على سؤال: أخبرنا عن سبب رغبتك بحذف الفيديو!

ها إنِّي خبّأت حريَّتي في جيبي وهربت!

لم يهرب منِّي الصوت. طلعناا.... كالطمي عالقة في كعب رأسي. أأخلع رأسي؟ سأفتح هاتفي وأطبع على يوتيوب: ناطورة المفاتيح. ستندلق روابط لا حصر لها. سأفتح أحدها يعرض أغنية «طلعنا على

الضو» الأصليَّة على خلفيَّة صورةٍ لفتى فلسطينيٍّ يرفع شارة النصر بيدٍ وحجرًا باليد الأخرى.

في المسرحيَّة تغنِّي فيروز هذه الأغنية بعد قرار الملك بتحرير المساجين لأنَّ مملكته خلت من الرعيّة. لهم تغنِّي فيروز لتدعوهم إلى الهرب بحريَّتهم مثلما هربت الرعيّة تاركةً مفاتيح بيوتها في عهدتها. وتقول للملك: «لو المفاتيح سيوف، كنت بتسلّح جيشك من المفاتيح اللي عندي».

لا أخفيك يا غزَّة... حالةٌ أشبه بالسكر غمرتني. وبقيت أرندح مع كلّ أغنيات المسرحيَّة التي أغدقها عليّ يوتيوب، حتّى غرقت في تعاسة الملك الذي لم يجد بدًّا من مناجاة أصحاب البيوت ليعودوا، فيقول لزاد الخير: هلأ حتى شفت حالي. شفت الملك قشَّة على بيدر، معول بحقلة متروك... يا صحاب البيوت وينكن!؟

ما من ملكٍ بلغ هذه الحكمة إلَّا في دفاتر الرحابنة. لهذا ربّما لا يتداول الناس كلماته فلا مرادف لها في واقعهم. لكنَّ كلّ أغنيةٍ لفيروز يسقطونها على واقعهم أو أحلامهم فتصبح «طلعنا على الضو» أو أغنية «وينن» محاكاةً تمحو المسافة بين المتخيَّل والحقيقيّ ويصبح الأصل نموذجًا.

وين صواتن، وين وجوهن.. وينن
تركوا ضحكات ولادن منسية عالحيطان
تركولي المفاتيح، تركوا صوت الريح
وراحوا.. وما تركوا عنوانن.. وينن

سأصحو في آَب اللهّاب لأجدهم! ها هم يحترقون أمامي. مجزرة الفجر قيل عنها. المكان: مدرسة التابعين. الزمان: أثناء صلاة الفجر! ها هم بأصواتهم ووجوههم يشتعلون.

لمّي أشلاءهم يا غزَّة وعبّئي ما أمكنك في أكياس. ما همَّ كتفُ مَنْ ورأسُ مَنْ. كلُّكم أهلٌ وحبايب. المهمّ ألا تصرخي وينن!

كلُّ العيون على الأيدي التي تلملم بقايا ناس. (خلفيّة صوت: التصفيق للصفيق).

نلتقي مع أصدقائنا في المدينة مساء ذلك الفجر. نفتح ألبوم المجزرة:

أرأيت ذلك الطفل يصرخ: يا اللّـه أبوي أشلاء...

والفتاة الواقفة أمام رأسٍ مقطوع؟

والأمّ التي تحمل يد ابنها وتبحث عن أشلائه الأخرى؟

يقولون إنَّ من كان يتوضَّأ نجا أمّا باقي المصلّين فاحترقوا كلُّهم!

وتلك المرأة التي كان جسدها يشتعل وهي تصرخ أمل، أمل.

أ هي ابنتها؟ أم أختها؟ أم من؟

لا أعرف لكنّي رأيت الرجال يصرخون بها لتقفز حتّى يتمكَّنوا من تغطية جسمها المحترق. كانت في طابقٍ علويّ.

والمرأة التي كانت تقول: أبحث عن أجمل رجلٍ يرتدي قميصًا أزرق.

أيّ لونٍ سيصمد وسط هذا الجحيم؟

يا اللّـه على المسعفين! تخيَّلي أن يجدوا أهاليهم بين الأشلاء؟

أرأيت ذلك الرجل الذي صرخ: «لقيتو كامل، مش مفتَّت، مش أشلاء، الحمد للّـه».

وذاك الذي قال: كلّ 70 كيلو أشلاء تعادل جثّة، ضعوها في كيسٍ واحد.

شهيقٌ زفير. نزمّ شفاهنا. زفيرٌ شهيق. كأنَّك هارمونيكا يا غزَّة، تتناقلها أيادينا. نستنشق من شقوقها ونزفر... صفير قطارٍ أو نشيجٌ أو نشازٌ أو بحَّةٌ باكية.

لا أحد يتقن عزف لحنك يا غزَّة. صدورنا قبور. وهل يتنفَّس الموتى؟ نعم، تقولين. فنستلقي على ظهورنا لنتلقّى منك قبلة الحياة. تنفخين. ترتفع صدورنا. تهبط. نفخة أخرى. وتنتظرين. يداك فوق صدرنا. ضغطتان. ثلاثة. عشرون... قلوبنا تنبض. حسنًا... نشكرك على خدمة الإسعاف الفوريَّة. لن نموت. ليس الآن على الأقلّ.

لا يعود الحطب من النار، ولا الصرخة من الهواء، ولا الطعنة من الجسد. لكن اقرؤوا في كتاب الصدى. لعلَّ في الرماد شيءٌ من الشجرة، وفي الهواء شيءٌ من ألم النفس، وفي الجرح شيءٌ من السيف ويد الجاني. ما هي طروادة لولا صداها الحزين؟

أحمد حسين

كيف نعزِّي غزّاويًّا بثلاثين شهيدًا من عائلته؟ أيُّ عبارةٍ تسبق الأخرى، وهل نقولها دفعةً واحدة «العوض بسلامتكم... عظَّم اللّـه أجركم...الرحمة لأرواحهم...» أم نقسّمها على مدار الجلسة ونكرِّرها تباعًا؟

البسي ألوانًا محايدة، لا داعي للأسود. قال لي آدم ونحن نستعدّ لزيارة أكرم وزوجه ناديا اللذين تربطنا بهما صداقة سنواتٍ طويلةٍ في المدينة، ولم نرهما منذ بداية المجازر.

استقبلنا أكرم على عتبة الباب. اختلطت أصواتنا بترحيبه الحارّ وكثقبٍ أسود ابتلعت ابتسامته تعازينا.

«نجلس في الحديقة لندخِّن». قال متقدِّمًا علينا، مقترحًا الكنبة الأقرب إلى مكيِّف الهواء الخاصّ بالمساحات الخارجيَّة. جلس في كرسيّه المستقلّ بجوار نرجيلةٍ تعلوها جمرةٌ طازجة. سرعان ما أمسك الخرطوم وراح يسحب من المبسم. خرخرت الماء والتمعت الجمرة.

أتعرفين يا غزَّة تلك الدقائق التي تسبق بداية عزف الأوركسترا؟ العازفون جالسون أمام آلاتهم. الجمهور في مقاعدهم. تسمعين سعالًا، أو عطسة، أو همهمة، أو أزيز كرسيّ، كأنَّ الجمهور يصبح جزءًا من الأوركسترا الصامتة، أو كأنَّ الصمت موسيقى أخرى. هكذا جلسنا. كلُّ واحدٍ منَّا يتساءل: من سيطلق النوتة الأولى لتبدأ معزوفة غزَّة وسيرة الشهداء. تنحنح آدم وقال: جمرة النارجيلة مغرية.

«آه واللّـه... الحمداللّـه... لكنَّك لست من هواة النارجيلة كما أذكر...»

ـ أهلًا أهلًا...

نبرم رؤوسنا ناحية الصوت. ناديا تنزل بضع درجات. لعباءتها حفيف. كلَّما دنت منَّا تسلَّلت إلينا رائحة زهر الليمون. نقف. نتعانق. وأجد فرصتي لإطلاق عبارات التعزية...

«ثلاثون شهيدًا من عائلتي واللّـه». يهتف أكرم لحظة جلوسنا من جديد. كأنَّه كان ينتظر ناديا لتسعفه في العدّ: «هم وأولادهم وبناتهم وأعمامهم وأخوالهم... كلُّهم... وعشرون صديقًا أيضًا من زملاء الدراسة والجيران.... تأتينا الأخبار بالقطارة. غالبًا ما يكون الإنترنت مقطوعًا كما يصعب التواصل أثناء النزوح... الحمداللّـه».

يشرق من نرجيلته وعيناه تلاحقان أطيافًا غير مرئيَّة، وهو يعدِّد أسماء الشهداء ويستعين بناديا ليتأكَّد من تواريخ رحيلهم، فلا يقدِّم شهيدًا على آخر كأنَّ في ذلك فألًا سيِّئًا.

لم أحص كم مرَّةً دخلت ناديا البيت وخرجت إلينا، تارةً بالفاكهة والعصير، وتارةً بالقهوة. في المرَّة الأخيرة التي جلست فيها ولم تقم، قالت: «راحوا متل الحلم». كان كفُّها مرفوعًا مثل كفِّ فيروز في جبال الصوان. ثمّ حمدلت باسمة. بدا عنقها أطول من قبل. هل نحفت أو زاوية نظري هي السبب؟

جلست قربي وفتحت هاتفها. صورة بعد صورةٍ لأطفال من عائلتَيْهما... هل رأيتهم على شاشة هاتفي قبل ذلك؟ كيف لي أن أعرف؟ ما رأيت سوى رؤوسٍ صغيرةٍ بلا عينٍ أو بلا دماغٍ وبلا جسد... في هاتف ناديا يلبسون ثيابهم الأجمل ذات عيدٍ بعيد... فيديو لإحدى الصغيرات تطفئ شمعتها الرابعة. هل رأيتها في كومة الجثث على التلفزيون؟ صورة لخمس صبايا تخرَّجن من الجامعة. هذه زوجة أخي وهذه أختها وهذه ابنة عمِّي... وكما يُلمس المخمل، يمرّ إصبعها فوق الشاشة. إلى أعلى. إلى أسفل. يتوقَّف على صورة. أكاد أسمع خاطر ناديا: هنا توقَّف الزمن. ترفع إصبعها عن الصورة وتكمل السحب إلى أسفل... أسأل عن مكان كلّ مجزرةٍ وتاريخها. تفتح صفحةً في هاتفها: روزنامةٌ كاملةٌ لكلّ الذين «راحوا متل الحلم»! (أنا أيضًا لي روزنامةٌ في هاتفي... لأنّي أنسى أعياد ميلاد صديقاتي وأهلي...)

قهقهةٌ يطلقها أكرم مباغتًا إيّانا: «كلّ هاد... ولي ابن عمّ يحضّر لعرسه».

ترتفع الرطوبة مع انحدار العتم على الحديقة. تضيء ناديا المصابيح في الزوايا. يفتح أكرم هاتفه ويصوّبه في اتّجاهنا لنشاهد تحضيرات العرس على شاطئك يا غزّة. تفقع ضحكته. رأسه يتحرّك يمنةً ويسرةً كأنّه يهشّ صورًا أو يستدعي الأجمل منها. هل نقول اللّـه يتمّم على خير؟ أو اللّـه يرحمهم؟ أسحب منديلًا من علبةٍ أمامي وأعطيها لآدم. أسحب أخرى لي. يقفز أكرم ويكبس زرًّا أعلى في جهاز التبريد ثمّ يحرّك الجهاز ليصبح قبالتنا مباشرة.

يعود ليشرق من نارجيلته. واللّـه مسخرة. يعني شو مفكّر العدوّ؟ الغزّاوي يستسلم؟ عرس يا زلمي بنصّ دين الإبادة. يقولها لآدم ليغلبه في الدّهشة. كنت بحكي مع ابن ابن عمّي يللي استشهد، عمره خمس سنين... قلت له: شدّ حيلك... ولم أستطع أن أضيف شيئًا... قال لي: أنا مش يتيم عمو أكرم، أنا ابن كل شهيد حمل مفتاح... تصوّروا... منين جاب هالكلام؟! أبوه رحمة اللّـه عليه كان مستشهد من ثلاثة أيام فقط... وأمُّه استشهدت بأوّل العدوان وأخوه وثلاث من أخواته.. هو كان معهم في البيت نفسه لكن سبحان اللّـه نجا...

يرخي نبريش النرجيلة على فخذه ويقبض على ركبة آدم: اسمع... أنا بعمري ما كنت مع أيِّ فصيل أو حزب... بس واللّـه إنّه يللي عملته المقاومة عظيم... وإذا قالت الآن: سأتوقّف، سألعنها وسيلعنها كلّ غزّاويّ!

تلملم ناديا فناجين القهوة. سأصنع ركوةً جديدة. نرجوها ألا تفعل. لا ينقصنا أرق. أظلمت ويجب أن نغادر. نقف دقائق طويلةً والتاكسي ينتظرنا كي ينتهي نقاش أكرم وآدم عن لبنان والجبهات المفتوحة.

«أهلك بخير هناك؟» تسألني ناديا. بخير... أتمتم. حتّى الآن... بعيدون عن القصف...

ويبتعد بنا التاكسي. نفتح الشبابيك. نغلقها. يتَّكل كلٌّ منَّا على الآخر لإيعاز السائق برفع درجة التبريد في المكيِّف. لم نتحدَّث طوال الطريق إلى البيت. فتحنا هواتفنا لنتابع ما فاتنا من مسلسل إبادتك. «ما اسم الصبيّ الذي أخبرنا عنه أكرم؟» لم يذكر اسمه. ردّ آدم وعيناه في الهاتف. الغزّاوي ما في حلّ معاه. تمتم... من الكبير للزغير.

وصلنا البيت كأنَّ كلّ واحدٍ منَّا فرغ من قضم قلبه كتفّاحة. رحت أرندح: راحوا متل الحلم...

«كان هون وطار رفّ العصافير الربيعيَّة

ومتل شي بَيْدَر فِضْي

وأصوات ما إلها عدد،

غنّت وسكتت للأبد».

هل تعرفين هذه الأغنية يا غزَّة؟

ما أغباني أسألك!

إنَّه الثأرُ
تبهتُ شعلته في الضلوع..
إذا ما توالت عليها الفصول..
ثمّ تبقى يد العار مرسومة (بأصابعها الخمس)
فوق الجباهِ الذليلة
الذي اغتالني ليس ربًّا...
بل محض لصّ

أمل دنقل

لم أقترب منك هنا لأسابيع طويلة... وربّما لأشهر... في الغرفة التي أكتب فيها، يربض الكمبيوتر مطبقًا على نفسه. أمسح الغبار عنه. أصله بالشاحن. أنزع الشاحن في اليوم التالي. لن أفتحه. قد تقفز البومة من صدري وتنعق. مرعوبة، غاضبة، مسعورةً تفرفر في قفصي... إن خرجتْ سيُعمِها الرماد وسواد الدم... ستنقر كلّ حروفي لتشمّ الفرائس تحت أوراقي... ستدير رأسها في اتِّجاهاتٍ مختلفةٍ وسيتهاوى ريشها على ضجيج كلماتي.

حاولت يا غزَّة... في كلِّ صباحٍ أقول: سأخرجها من حبسها وأبني لها وكرًا من خشبٍ لتتحرَّر من قفصي الصدريّ... ستفرح بتكاثر الفئران والقوارض وتمتلئ بنشوة الشبع. ستهسهس لي عن مكامن الخطر وسأدعها تطير برسالةٍ إلى أبعد مقاتل: احتم ببومتي لتظفر.

رحل تمّوز وجاء أيلول. لم أقترب منك يا غزَّة كي لا أسمّمك بكوابيسي. أمامك أحبّةٌ في أكفانٍ وتقيمين الصلوات على الغائبين. خطَّة الجنرالات فُعّلت. «سنرحل من شمال غزَّة إلى السماء» تصرخ جباليا. في مستشفى كمال عدوان تصرخ رغد البسيوني مولودها تحت القصف والحصار. تحملها سيَّارة الإسعاف مع طفلها إلى مكانٍ قد يكون آمنًا. يقصفهم الاحتلال قبل وصولهم. بعد أيَّامٍ تمرّ قافلةٌ أمميَّةٌ في المكان. تسمع بكاء طفل. تقترب من سيَّارة الإسعاف المدمَّرة. كلابٌ تنهش أجساد الشهداء. وحده الطفل الملفوف بقماشةٍ نجا من الصاروخ ومن الأنياب.

القطط تتشارك الكلاب نهش الجثث. وطفلٌ لم يبلغ العاشرة من عمره يسأل: «ماما كلُّنا نفس الطعم؟»

ينهشنا السؤال!

«راحت علينا» تكتب لي منى. لم أرها منذ عادت من لندن. اكتفينا بتبادل الأخبار والمخاوف. ومن لينا يأتيني منشور: «إسرائيل لا تجتاح لبنان، بل تحرِّره». برنارد هنري ليفي! وتعليق لينا: خلصت القصَّة يا غادة.

سألتصق بهاتفي ساعاتٍ وأيَّامًا وليالي. عاجلٌ وراء عاجل. من أصدّق؟ أخشى المصادر الموثوقة والبيانات الرسميَّة. ستحسم

شكوكي. أنتظر آدم في المساء. يجلس قبالتي. أحدّق به كما بساعةٍ رمليَّة. تتسرَّب حبَّات كلماته إلى جوف بومتي. ينكتم نعيقها. نشرب القهوة قبل العشاء في فنجانَيْن، واحدٌ رسم عليه حصانٌ وآخر بومة. منذ حصولنا عليهما كهديّةٍ من صديق، وأنا أضع بحركةٍ آليَّة، فنجان الحصان لآدم، وفنجان البومة لي. اليوم، حضّر هو القهوة. جلبها مع الفنجانَيْن. وزّعهما ثمّ انتبه. فوضع فنجان الحصان أمامه، والبومة أمامي.

تماسكي يقول. لكنَّ بومتي فقدت حكمتها ولعلَّها عميت. قبرًا بعد قبرٍ يُفتح وينسدّ المدى. آفاقنا صحراء من جماجم. أنجهش بالعويل أم نفتح في دهاليز الموت كوّةً للعبور؟ إلى أين؟ هل خلف الكوّة عتمةٌ أخرى؟ حفرةٌ أعمق؟ طوق نار؟ أم صخرةٌ منيعةٌ لقطعانٍ من الذئاب تلاحق الأنس والجنّ ولا يسقط لها ناب؟!

مواقع تنشر بالأحمر وبالخطّ العريض تصريحاتِ الصهاينة: أراد تدمير إسرائيل وقد قتلناه. كاذبون، يصرخ الفقراء. الخبر ما ترون، لا ما تسمعون يردّد الأحرار. أشرف الناس تاهوا. تفجَّرت عيونهم. مدُّوا أياديهم المقطوعة إلى الضباب علّ السبّابة ترتفع لتردّ الفجيعة، علّ لثغة الصوت تردع وترعب وتقزّم التنين الواهم. أطنانٌ من الأحقاد تفجَّرت. حفرة سحيقة. طلعت روحنا! خلصوا زيتاتنا كانت أمّي تقول. تعبت الروح منَّا فطارت. والآن ماذا؟ قفا نبك؟! لا. مستحيل. لن نأكل اليأس كالخبز الحافّ! سنلجأ إلى أوهامنا. سنحبس فيها من لا يحقّ له أن يرتاح منَّا!

اختناق!

آخ يا بلدنا! مذيعةٌ تغصّ وينهش صوتها الخبر. ومذيعةٌ تكاد تبتسم وتقبّل كلَّ حرفٍ في الخبر.

في أيِّ عامٍ نحن؟ الماضي حلزون. بقاياه اللزجة تجدِّد كولاجين التاريخ! يعود الموتى. يحتلُّون الشاشات. بالسترات المنفوخة والأكتاف المبطَّنة كالوسادات والقمصان بالياقات الطويلة والكنزات الفضفاضة! من أيِّ خندقٍ أفلتت هذه الشخوص؟ يرفعون التاريخ كأكياس رمل. جاهزون لتكراره. المتاريس عاليةٌ والأسلحة مجنزرة. هل نصدِّق ما نسمع؟ أم ننتظر كي نرى؟

«لكلٍّ منَّا الحقّ أن يحزن ويغضب ويبكي» يكتب آدم. أيخاطبني؟ وأقرؤه: «لكن علينا أن نستحدث قدرةً جديدةً على الحزن بأمل، والغضب بتفاؤلٍ والبكاء بغبطة، القدرة على نعي كلّ شهيدٍ بما يليق به، والتبشير بآلاف الولادات في الوقت نفسه».

شهيدٌ أصغر وشهيدٌ أكبر.... لا مقابر ولا أضرحة ولا جنازات. لا حقّ لنا بالحزن ولا بالأمل! حفرةٌ واسعةٌ وسوادٌ سحيق... راحت علينا تردِّد بومتي!

وسيأتي أوَّل تشرين. وسننظر إلى ذكرى ذلك الصباح المجيد... وعندما تنعق بومتي ستخرسينها: لن تصاب التربة بالعقم إذا قُتل حارثها. لن تتفتَّت الجبال إذا نُسفت قممها. لن تجفّ الينابيع إذا رُفعت فوقها السدود. لن يتبدَّد بحر الهواء إذا احترق السحاب. بعد السماء سماواتٌ أخرى، أمَّا الأرض فواحدة. فيها سكون العبيد يحنِّط الزمن. وفيها زئير الأحرار يزلزل براكين الجحيم.

جريحةً وبيدٍ مقطوعة... ترمقيننا. ضئيلةً على كنبة... ذاب لحمك.... أهذه حقًّا أنت؟ عصاك تجيب. ترمينها في وجه الثعلب. تضيء نجومها وسط الرماد. يمسك بها طفل، فامرأة، فشيخ، فرفيق الشوك والطين. يتناوب كلٌّ منهم على كنبتك.

المجازر مستمرَّة. ومعجزتك مستمرَّة. تعبر من أمامنا طفلة. قمر صبحٍ اسمها. بكنزةٍ حمراء وقدمَيْن عاريتَيْن، تمشي بكلّ ما في الأرض من تعب، حاملةً على كتفَيْها أختها مكسورة القدم.

وتمشين يا غزَّة ونحن على كتفَيْك بقدمٍ واحدةٍ وقلبٍ مكسور. نترنَّح، نكبو، ولا نسقط.

قولي لي يا غزَّة، هل ننجو؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

إذا كنتَ مِمّن تعبوا من أخبارِ غزّة، فلماذا تمسك بهذا الكتاب؟ ضعْهُ جانبًا، فهو ليسَ لِمَنْ تعبوا.

وإذا كنتَ مِمّن اعتادوا مشاهدَ المجازرِ والتجويع، فلا بأس بقراءةٍ هذا الكتاب، بين حفلةٍ غنائيّة، وعشاءٍ فاخر.

وإذا كنتَ مِمّن تعافَوا من ندوبِ غزّة، فستفتح هذا الكتاب بيقينِ مَنْ ينزع ضِمادةً عن جرحٍ اندمل. لا أضمنُ لك ذلك.

أمّا إذا كنتَ تظنّ أنّك نجوتَ من الإبادة، فهذا الكتاب لك، علّك تدرك مَنْ ماتَ حقًا، ومَنْ نجا حقًا.

إنّها سرديّةٌ شخصيّةٌ جدًّا. وقد لا تعنيك. هذا حقّك. لكنّها، حتمًا، ليست بِمعركةٍ بعيدةٍ عنك. ولستَ بمنأى عنها. صدِّقْني.

غادة الخوري روائيّة لبنانيّة. صدرت لها عن دار الآداب رواية "طفلة الرعد".

دار الآداب

تصميم الغلاف: نجاح طاهر
كلمة «غزة» خط: لين الجردلي